

www.ibtesamah.com/vb
FARES_MASRY
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر ديسمبر ٢٠١٨
أحمد المسلماني
الهندسة السياسية
مصر .. ما كان وما يجب أن تكون
الدار المصرية اللبنانية



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر ديسمبر 2018 **

www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

www.ibtesamah.com/vb

FARES_MASRY
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر ديسمبر ٢٠١٨

www.ibtesamah.com/vb



الهندسة السياسية

مصر .. ما كان وما يجب أن تكون

www.ibtesamah.com/vb

المسلماني، أحمد محمد محمود.
الهندسة السياسية: مصر.. ما كان وما يجب أن تكون
/ أحمد المسلماني .- ط1.- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2018.
336 ص؛ 20 سم.
تدمك: 1 - 009 - 795 - 977 - 978
1- مصر - الأحوال السياسية
2- مصر - تاريخ
3- الدولة
أ- العنوان 320.962
رقم الإيداع: 27785 /2017

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: يناير 2018م

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

www.ibtesamah.com/vb



أحمد المسلماني

الهندسة السياسية

مصر .. ما كان وما يجب أن تكون

www.ibtesamah.com/vb

FARES_MASRY
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر ديسمبر ٢٠١٨

www.ibtesamah.com/vb

قبل أن تقرأ

لم يسبق لليأس أن فاز بأيّة معركة

في عام 1987م خاطبَ الرئيس الأمريكي رونالد ريجان الزعيم السوفيتي ميخائيل جورباتشوف: «سيد جورباتشوف.. حطِّم ذلك الجدار». يقول الزعيم الألماني هيلموت كول: «عندما دعا ريجان جورباتشوف إلى تحطيم حائط برلين.. ظهرَ للعالم أنَّهُ متفائل جدًّا وله رؤية تبسيطيّة للأمور.. لكن تأكد لاحقًا أنه كان على حق».

لقد نجحَ رونالد ريجان في إسقاط الاتحاد السوفيتي.. بإعلان الثقة التامّة في النفس والازدراء الشديد للخِصم. كان الغرب يرتعد من الاتحاد السوفيتي.. وجاء ريجان ليسقِط القلق.. ويحرِّر الغرب من الخوف.

من قبل.. كانت هناك معركة أخرى.. كان الاتحاد السوفيتي قد نجح في إطلاق أول قمر صناعي عام 1957م، وفي أن يكون رائد الفضاء السوفيتي «يوري جاجارين» أول إنسان يصعد إلى الفضاء الخارجي ويدور حول الأرض.. وكان لابد من ردّ فعل يناسب ذلك التحدي.. وهنا التقى الرئيس جون كينيدي برئيس وكالة ناسا «جيمس ويب» وأبلغه القرار الرئاسي بأنَّ الردّ المناسب هو النزول على سطح القمر.. لأول مرة في التاريخ.

كان القرار حاسمًا، وكان النجاح سريعًا.. إلى الحدّ الذي جعل البعض يشكك في أن الرحلة أبولو 1 قد حدثتْ بالفعل، ويزعم أنَّ وكالة ناسا قد

www.ibtesamah.com/vb

خدعتْ البيت الأبيض.. وقدّمت تصويرًا قامت به في المنطقة السرية (51) في صحراء نيفادا.. على أنّه تصوير للنزول على سطح القمر!

***

خمسون ألف ساعة.. هي مدّة الحرب العالمية الثانية. انهزمتْ اليابان، وركَعَ الإمبراطور.. وغطّى الغبار الذرّي على الدولة والمجتمع.

لم يكن ممكنًا لأحدٍ أن يمتلك «جرأة الأمل».. قنبلتان نوويتان.. جنائز ومستشفيات.. اقتصادٌ يتهاوى وشركات تُغلِق أبوابها. ليس على الأرض سوى الخوف واليأس.. وليس في السماء سوى السُّحب النووية.

لكنّ اليابان أذهلت العالم.. بتلك البداية المبكّرة للغاية.. لقد بدأت العمل بعد يومٍ واحدٍ من الهزيمة!

لم يكن هناك من يفكر في إهانة الجيش أو إسقاط الإمبراطور.. أو وضع جدولٍ إعلاميّ.. وبدء رحلة التشفّي والشماتة.

بعد أربعٍ وعشرين ساعة من الهزيمة.. كان هناك مسئولان يابانيان يعملان في الصين.. قد انطلقَا في رحلة العودة إلى الوطن.. كانا يحمِلان معهما «خريطة طريق» لمَا يجب أن يكون.. لم يتوقّفا عند مشاهد الهدْمِ طويلًا.. وشرعَا يتحدَّثان في «إعادة الإعمار».

***

كان «سويتشيرو هوندا» مؤسس شركة «هوندا» اليابانية فقيرًا للغاية، مات خمسة من إخوته بسبب سوء التغذية.. كان والده حدّادًا، وتعلم منه إصلاح الدراجات.. ثم أسّس مصنعًا للدراجات النارية.. ثم كانت «أسطورة هوندا».

www.ibtesamah.com/vb

كانت فلسفة السيد «هوندا» تقوم على «عدم اليأس».. ولكن أيضًا «عدم الحماقة».. يقول «هوندا»: «إذا كان الخطأ جزءًا من التطور يكون مقبولًا».. «قمتُ بالكثير من الأخطاء.. لكن لا يوجد خطأ يتكرر مرتين».. «النجاح يمثل (1٪) من عملنا الذي ينتج عن (99٪) من فشلنا».

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية ومع احتلال ألمانيا لفرنسا.. وسقوط العاصمة باريس.. خاطب شارل ديجول الشعب والجيش بقولته الشهيرة: «أيها الفرنسيون.. لقد خسرنا معركة.. لكننا لم نخسر الحرب».

* * *

وكان الفيلسوف والسياسي الصيني «صن يات صن» – هو الآخر – من كبارِ صُنّاع الأمل في عالمنا.. وكان يرى أن أي فشلٍ هو فشل مؤقت.. مجرد ورقة في كتاب.. وأن الفشل الثاني والثالث كذلك.. المهم ألّا يستسلم الإنسان إلى سطْوة اليأس.

ومن أروع ما قال «صن يات صن».. في ازدراء الفشل.. واحتقار الإخفاق.. وإدراك فلسفة الانتصار: «كان هذا مجرد فشلنا الأول».. «كان هذا مجرد فشلنا الثاني».. «كان هذا مجرد فشلنا الثالث».. ثم يمضي: «كان هذا مجرد فشلنا الثالث عشر».. إلى أن يصل إلى قوله: «وفي المرة الرابعة عشرة تحقق النصر.. بعد ثلاث عشرة محاولة نبيلة فاشلة»!

* * *

يمكن للكثيرين أن يركنوا إلى راحة اليأس.. لكنّ بناة الأهرام لا يمكنهم إلّا إدارة الأمل. وحسب قول الرئيس الأمريكي أيزنهاور: «لم يسبق للتشاؤم أن فاز بأيّة معركة».

* * *

www.ibtesamah.com/vb

إن الهندسة السياسية ليست دعوة إلى الديكتاتورية الفكرية أو تعزيز الرأي الواحد.. كما أنها ليست دعوة إلى الاستعلاء على طبيعة المجتمع أو تجاوز إرادة الشعب. إنها صياغة رؤية تنطلق من «دراسة كل شيء لتحسين كل شيء».. ووضع تصور كلّي بعيد المدى يصيغ السياسات ويضبط الخُطى باتجاه ما يجب أن يكون.

لا يمكن إنكار حجم الأخطاء التي تواجدتْ في تجارب الهندسة السياسية عبْر التاريخ، كما لا يمكن إنكار حجم المآسي التي قادت إليها طموحات بعض كبار قادة الهندسة السياسية ممّن جنحوا بالسفينة بعيدًا.. فأغرقوا أنفسهم وأغرقوا آخرين.

إنّ دراسة التاريخ.. وتفادي الأخطاء والأخطار.. وتأمُّل مسارات الانفلات والانكسار.. هي من ضرورات بناء الحاضر وتأمين المستقبل.

* * *

لقد جاءت سطور هذا الكتاب - سواء ما اتصلَ منها بقراءة ما كان.. أو ما اتصل منها بما هو كائنٌ أو قادمٌ - هادفةً إلى تقديم أطروحةٍ فكريةٍ واضحةٍ ومتماسكةٍ.. حول ضرورة وضع الاستراتيجي قبل التكتيكي، والكلّي قبل الجزئي.. النظرية قبل الحركة، والفلسفة قبل السياسة.

وإنّي لآمل أن يكون هذا الكتاب بدايةً لتيار فكري وطني.. يعمل من أجل المستقبل الذي يليقُ بالتاريخ.. والزمان الذي يليقُ بالمكان.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

مقدمة

الهندسة السياسية.. عِلم بناء الدول

لديّ اعتقاد راسخ بأن أي بلد لا يمكنه أن ينهضَ ويمضِي دون هندسةٍ سياسيةٍ.. ولا يمكن لـ«السوق الحُرّ السياسي» أن ينتج مجتمعًا سياسيًّا قويًّا أو ناجحًا.

وإذا كان من بين العلوم السياسية.. علم الاجتماع السياسي، وعلم الاقتصاد السياسي، وعلم النفس السياسي.. وهي علوم تجمع بين أكثر من علم.. فإنني أتصور أن هناك علمًا جديدًا ينبغي له أن يتأسس باسم «علم الهندسة السياسية».

إن الولايات المتحدة الأمريكية - الناطقة باسم الديمقراطية العالمية - هي إمبراطورية عظمى نِتاج هذه الهندسة السياسية.. وليس السوق السياسي الحُرّ.

لقد قامَ الآباء المؤسسون للولايات المتحدة بتخطيط كل شيء.. وواصلَ القادة اللاحقون عمليّة التخطيط دون انقطاع. وعلى ذلك لم يكن الدستور الأمريكي ولا النظام الرئاسي ولا نظام الحزبيْن.. نتاج الحراك السياسي التلقائي في البلاد.. وإنما كان نتاج تخطيط مركزي يعرف تمامًا ماذا يفعل.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

إن النظام الحزبي في الولايات المتحدة - في تقديري - هو «نظام الحزب الواحد».. وهو حزب له جناحان: الجناح الجمهوري (الحزب الجمهوري)، والجناح الديمقراطي (الحزب الديمقراطي)- هذا يمين وهذا يسار.. يستخدمان لغتيْن في خطابٍ واحد.

كان الحزب الديمقراطي وحده الحزب الحاكم في البلاد، ثم انشقَّ عنه الحزب الجمهوري.. الذي هو جزء من تاريخ الحزب الديمقراطي.. وكأنَّ قادة القوة العظمى قد قرَّروا عدم ترك الحياة الحزبية فريسةً للحركة الطبيعية وآليات السوق السياسي.. وما تأتي به «الديمقراطية السائلة».. وإنَّما تخطيط البلاد سياسيًّا.. بمثل تخطيطها معماريًّا.. من أجل تحقيق ما يمكن تسميتُه بـ«الأمن الإيديولوجي» للولايات المتحدة.

* * *

أصبحتْ الولايات المتحدة دولة آمنة انتخابيًّا.. فهناك حزب واحد يحكم البلاد.. أو هما حزبان في حزب.. أو اثنان في واحد.

وحين حدَثَتْ محاولات كسْر لهذه الهندسة السياسية.. وذلك بصعود الشيوعية.. ولمعَان نجم الحزب الشيوعي الأمريكي.. جاءت «الفاشية المكارثيَّة» لتقضي على «البديل الشيوعي».

لا ديمقراطية إذن إذا كان البديل من خارج الهندسة السياسية للبلاد.. لا صناديقَ ولا برامج ولا منظمات حقوقية.. إذا كانت «الإيديولوجيا المعادية» هي البديل.. وإذا كان الحزب المنافس من خارج الترتيبات المسبَقة والدائمة للبلاد.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

التعريف الذي أَراهُ للهندســة السياسية.. هو علم بناء الدولة.. عبْر تخطيط شــامل للســلطة والمجتمــع.. بما يؤدي إلــى انتقــال الدولة مــن التخلف إلى التقــدم.. أو مــن التقدم إلى التقــدم الأعلى.. مع وضع آليات اســتدامة لعملية التقدّم.

الهندسة السياسية ببساطة.. هي عِلم النهضة، أو هي عِلم التقدُّم.

***

ثمّة نماذج عديدة باهرة للهندســة السياسية حول العالم كلها تقدم إجاباتٍ خلّاقةٍ على سؤال واحد: كيف يمكن بناء دولة متقدمة؟

كانــت اليابان ســبّاقةً في تقديم نموذجٍ رائدٍ فــي «إدارة الضعف» و«هزيمة الهزيمة».

حيــن كانت مصر قوة إقليمية كبرى، وكانت الحداثة المصرية تفوق أجزاءً واســعةً مــن أوروبــا.. كانت اليابان – في تلك الحقبة من القرن التاســع عشــر – تعانــي مــن مثلّث تدمير ذاتــي لا خروج منه.. كانتْ تعانــي من «الإقطاع» و«الساموراي» و«الفقر».. لا صناعة ولا زراعة ولا جيش.. وفي كلمة واحدة: اللادولة.

فــي عام 1868م جاء «الميجي».. أحد كبار «مهندســي الدولة» في التاريخ الحديث.. ألغى الإقطاع، وأنهى الســاموراي.. أطلــق ثورةً كبرى في التعليم، كمــا أحدَث ثــورةً هائلــةً في الزراعــة والصناعة.. أخــذ من العالم ما يناســب مشــروع النهضة اليابانية.. التعليم من ألمانيا، والإدارة من بريطانيا، والشــرطة من فرنسا.. والصناعة من أمريكا.

www.ibtesamah.com/vb

استغرقت «هندسة اليابان» في عهد الميجي ثماني سنواتٍ فقط.. لتكتمِل المعجزة اليابانية.. في المكان وفي الزمان.

* * *

ولقد قدّمت «سنغافورة».. نموذجًا جاذبًا للهندسة السياسية في عهد الزعيم «لي كوان يو».. الذي بدأ بـ«الهندسة الجغرافية».. والتي شملت «ردم البحر» لتوسيع مساحة الدولة الصغيرة.. ثم تأسيس «مجلس التنمية الاقتصادي» الذي أسّس تعليمًا عالميًّا، ورسم السياسات وجذب الاستثمار.

إن الثنائيّة الهندسيّة التي نهضت بها سنغافورة هي ما لخّصهُ «لي هسين لونغ» رئيس وزراء سنغافورة بقولِه: إن نهضة بلادي قامت على «قيادة قادرة على الإبداع.. ونظام ترقيات منضبط وحازم.. حيث الرجل المناسب في المكان المناسب.. تمامًا».

لقد بدأتْ «سنغافورة» كدولةٍ مطرودةٍ من الاتحاد الماليزي، ونجحتْ الهندسة السياسية في نقلها من «نموذج الدولة المطرودة» إلى «نموذج الدولة الناجحة». إن عنوان كتاب «لي كوان يو» الشهير.. «من العالم الثالث إلى الأول.. قصة سنغافورة».. يشرح بالضبط معنى الهندسة السياسية.

* * *

لقد قطعت كوريا الجنوبية هي الأخرى.. والتي خرجتْ من «احتلال ياباني» استمر (36) سنة.. ثم دخلتْ حربًا إقليمية كبرى.. مسيرةَ الفقر والدّم مع الجنرال «بارك تشونغ هي» عام 1961م. أسّس الجنرال «مجلس التخطيط الاقتصادي».. كما أسّس تعليمًا عالميًّا.. لتنتقِل كوريا الجنوبية من وضع «اللاتعليم» إلى «التعليم العالمي».. بحيث أصبح عددٌ من جامعاتِها من بين

www.ibtesamah.com/vb

أفضل (100) جامعة في العالم.. ولتنتقل - أيضًا - من وضع «الفوضى».. إلى المركز الرابع في طلب براءات الاختراع على مستوى العالم.

لقد نقلت «الهندسة السياسية» كوريا الجنوبية من متوسط دخل للفرد (80) دولار سنويًّا إلى (30) ألف دولار سنويًّا.. ومن وضع «الدولة الفاشلة» إلى وضع «الدولة الباهرة».

***

إن ماليزيا هي نموذج آخر في قوة «الهندسة السياسية».. نجح الدكتور مهاتير محمد في الانتقال بماليزيا من مستوى اقتصادي أقل من «غانا» وقت الاستقلال عام 1957م.. إلى أن تكون ماليزيا هي «اليابان الجديدة».

نظر مهاتير إلى جهة الشرق.. حيث اليابان وكوريا الجنوبية.. ورفع شعار «ماليزيا يمكنها فعل ذلك».. وخطتْ ماليزيا من حالٍ إلى حال.. يقول مهاتير في مذكراته: «كان بناء فندق يحتاج إلى (200) موافقة منفصلة.. والآن أصبح بناء منزل في ماليزيا أسرع منه في إنجلترا».

***

إنَّ التجربة الصينية تقدِّم - هي الأخرى - نموذجًا رائدًا آخر في «الهندسة السياسية». لم تقُم الصين بالإصلاح الجزئي.. بل وضعت رؤية للإصلاح الشامل. ويمتدِح باحثون تجربة الصين.. لنجاحها في تحقيق الإصلاح الكبير بدون عدد كبير من الخاسرين.. الذين كان يمكنهم عرقلة الإصلاح.. كما أن الصين قامت بالإبداع الفكري إزاء عدد من القضايا.. ولم تقم بالوصَفات الشائعة.

www.ibtesamah.com/vb

ويذكر «ويليام أوفرهولت» في دراسته «الصين والعولمة»: إن الصين أرسلتْ البعثات.. لتأخذ العلم والإدارة معًا.. فأخذت معايير المحاسبة الدولية وقوانين الأوراق المالية من الولايات المتحدة وبريطانيا، وأخذت النظم العسكرية من فرنسا.. واستعانت باستراتيجية التنمية من كوريا الجنوبية وسنغافورة، وقامت بهيكلة البنك المركزي الصيني على غرار هيكل بنك الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي.. وأخذت من الاقتصاد الغربي مبدأ التنافسية وسيادة القانون.. ثم إنها أضافت - فوق هذا كله - إبداعًا خاصًّا في الاستغلال الأمثل للسكان.. فنجحت في تفادي البطالة الضخمة وحافظت على الاستقرار الاجتماعي.

***

قدّمت «الهند» تجربة أخرى متميزة في «الهندسة السياسية».. ذلك أن العملاق الهندي الذي يتجاوز المليار وثلث المليار إنسان.. ويتزاحم في جسده الضخم العديد من اللغات واللهجات والأديان والمعتقدات.. قد نجح في الانطلاق من حافة الإفلاس عام 1991م إلى الإفلات نحو المستقبل. كان «الفقر» في كل مكان تقريبًا.. والديْن يلتهِم الناتج الإجمالي.. والاحتياطي يكفي لنحو أسبوعيْن فقط.. وبدأ الاستعداد لإعلان الإفلاس.

لقد مضتْ الهند لتقدِّم نموذجًا هائلًا في «الهندسة السياسية».. وفي إدارة الأمل على نحو يدعو للانبهار والاحترام.. توالت مبادرات «المدن الذكية» و«النانو تكنولوجي» و«استثمر في الهند» و«صنع في الهند».. وبعد ربع قرن من «استحالة الأمل».. تمّت «استعادة الأمل».

في عام 2008م انطلق مسبار فضائي هندي إلى القمر.. دارَ حول القمر ثلاثة آلاف مرة، وأرسل سبعين ألف صورة.

www.ibtesamah.com/vb

وفـي عام 2013م أرسـلت الهند مركبةً فضائيةً إلـى المريخ.. لتصبحَ الهند عضوًا رسميًّا في «نادي الفضاء» مع العمالقة.. وأمّا في عام 2017م فقد فاجأتْ الهنـد العالم بنجاح تجربة متقدمةٍ لإطلاق صاروخٍ مضادّ للصواريخ.. انطلقَ مـن جزيـرة عبد الـكلام، واعتـرضَ صاروخًا تمّ إطلاقه من سـفينة عسـكرية هنديـة فـي خليـج البنغال.. ثـم توالت المفاجـآت.. بنجاح الهنـد في إطلاق (104) أقمـار صناعية بصاروخٍ واحـدٍ.. وقالت الحكومة الهندية: «إنها لحظةٌ عظيمةٌ لأمّتنا.. اليوم صنعنا التاريخ».

لقـد نجحـتْ الهند بعد كثير من المحاولة والفشـل.. وحيـن صعدتْ إلى الفضاء نشـرتْ صحيفة «نيويورك تايمز» الأمريكية كاريكاتيرًا حاقدًا.. يسخر من نهضة الهند.. حيث يصور الرسـم.. فقيرًا يسـحب بقـرة ويدخل بها نادي الأثرياء.

اعترضـتْ الهند واعتـذرتْ الصحيفة وطلبتْ وكالة ناسـا التعاون. وحين زارَ الزعيم الهندي مدينة نيويورك وقف في «تايم سكوير» ليقول متباهيًا: «أيها الأمريكيون.. إنَّ الهند لم تعد أمّة السحرة الذين يراقصون الثعابين».

***

إن تجـارب سـنغافورة وماليزيـا وكوريـا الجنوبيـة والصيـن والهند.. هي نمـاذج فـي عِلم بناء الـدول.. والانتقال بها مـن مصاف «الدولـة التائهة» إلى مصاف «الدولة المتقدمة».. هنا تكمن فلسفة «الهندسة السياسية».. ومهارات «المهندسين السياسيين».

لقد توالى صدى «الهندسـة الوطنية» أو «الهندسـة السياسية» من قارةٍ إلى أخرى.. وفي دولةٍ مثل بولندا.. نجحتْ وارسـو في التحوّل من الشيوعية إلى الرأسمالية دون الانهيار.. واستطاعت البلاد أن تُجري تحوّلًا فكريًّا ضخمًا..

www.ibtesamah.com/vb

مـع نجاحٍ اقتصادي كبير. تواصَلَ النموّ ربع قرن كامل بلا انقطاع، وتضاعفتْ الصادراتُ خمسة وعشرين مرّة.

وفـي البرازيـل.. كانـت «الهندسـة السياسـية» أكثـر وضوحًـا فـي عهـد الزعيم «لولا دي سـيلفا».. تشـكلّت الرؤية من «منع توريـث» الفقر والجهل والمـرض.. وعدم دخول الحياة البرازيلية «فقراء جُـدد» أو «جهلاء جُدد» أو «مرضـى جُدد». كما تشـكلّت من ضـرورة بناء عدد من الشـركات الكبرى.. ذلـك أن معادلة النهضة ببسـاطة هي مجموع عدد من الشـركات.. وقد كانت هذه رؤية «الميجي» التي أخذها من نموذج الشـركات الأمريكية.. وهي أيضًا رؤية «طلعت حرب» في مصر.

أخـذ «لولا» من الزعيم الصيني «دينج» رباعيـة التحديث: العلم والجيش والزراعـة والصناعـة. ثـم تطلّع «لـولا» إلى «الهندسـة الخارجيـة» بعد نجاح «الهندسـة الوطنيـة».. فراحَ يعمل على تأسـيس «الناتو اللاتينـي».. وتحالف مع الهند والصين وروسـيا في تجمُّع «البريـك».. والذي أصبح لاحقًا تجمُّع «البريكس».

***

لقد بدأت كثيرٌ من التجارب الناجحة في عالم اليوم.. من قلب الإحباط.. ولم يكن ممكنًا لأحدٍ أن يتصوّر الوصول إلى النقطة الراهنة.. من نقطة البداية المفزِعة.

إنَّ الطاقة الحقيقية التي يمكنها أن تطلِق حركة «الهندسـة السياسية».. هي طاقـة الأمل.. وكان الرئيس الأمريكي أيزنهاور يقول: «لم يسـبق للتشـاؤم أن فازَ بأيّة معركة».

www.ibtesamah.com/vb

إن «صناعـة الأمل» ليسـت مجرّد خلق شـعور نفسـي بالفخـر.. إذْ يحتاج الشعور الوطني إلى إدارة استثمار.. كيف يمكن لهذه الروح الوثّابة أنْ تتحوّل إلـى صناعة الحجر وصياغة البشـر؟.. كيف يمكنها الانطـلاق من الوهَنِ إلى السطْوة.. ومـن الحاجة إلى الفائض.. ومن الانكسـار إلـى الانتصار؟.. إنها «الهندسة السياسية».. أو هي «إدارة الأمل».

* * *

إن مفهوم «الهندسـة السياسية» يجب أن يبقى بعيدًا عن التعريفات الشائعة لـ«الهندسة الاجتماعية» و«الهندسة الديمقراطية».

في القرن التاسع عشر تحدّث البعض عن وظيفة «المهندس الاجتماعي».. فـإذا كان «المهندسـون» يتعاملـون مـع مشـاكل المـادة.. فـإن «المهندسـين الاجتماعيين» يتعاملون مع مشاكل الإنسان.

وفي القرن العشـرين تردّد مصطلح «الهندسـة الاجتماعيـة».. وهي برأي البعض.. تهدف إلى التأثير على موقف الشـعب وسـلوك المجتمع. وقد طوّر البعـض المصطلح ليذهـب إلى خطط اختـراق العقول البشـرية وتوجيهها.. حيث لا يكفي اختراق الأجهزة.. دون اختراق العقول.

وفي أثناء تشكيل ما سُمّي بـ«النظام العالمي الجديد» عقب انهيار الاتحاد السـوفيتي ونهاية الحرب الباردة.. تحدّث البعض عن «الهندسـة السياسية».. ثم تحدّث آخرون عن «الهندسة الديمقراطية».

* * *

لسـتُ واحـدًا ممـن يوافقون علـى التعريف المتـداول – لـدى البعض – لمصطلح الهندسة السياسية.. وحيث إن العلوم الاجتماعية تحتمل باستمرار

www.ibtesamah.com/vb

العديد من التعريفات.. المتقاربة أحيانًا والمتباعدة أحيانًا أخرى.. فإنني أذهب إلى وضع تعريف جديد لمصطلح «الهندسة السياسية».

تشير التعريفات القائمة إلى «سيادة نموذج سياسي واحد يعتمد على حقوق الإنسان والديمقراطية.. ومن أجل ذلك يجب إعادة النظر في مفهوم السيادة».. «حيث تتراجع الدولة وسيادتها لصالح النموذج الديمقراطي العالمي.. وهنا لا يجوز لكل دولة أن تختار نموذجها في الحكم.. فهذا هو النموذج العالمي الوحيد للحكم».. و«في هذا الإطار.. يجب على الغرب.. استخدام القوة العسكرية لإعادة تشكيل أنظمة الحكم في العالم بما يتماشى مع تصورات الهندسة السياسية».

لقد نشأتْ على إثر ذلك مصطلحات مساعدة.. مثل «الهندسة الديمقراطية».. وهي تُعنى بتقديم الاستشارات للتحوّل الديمقراطي.. ويقول أصحابها في ترويجها: «عندما تودّ عائلة أن تبني منزلًا جديدًا.. فإنها تقوم باستشارة مهندس معماري.. وحين يرغب أحد في تحسين نظامه الديمقراطي عليه أن يتصل قبل أي شيء بمستشار في الديمقراطية.. إنه «المهندس الديمقراطي».. الذي يقدّم أفضل مشورة.. وأقل مخاطر».

***

للأسف.. فقد تردّدت هذه المفاهيم للهندسة السياسية.. وجرى حصَارها في عملية التحوُّل الديمقراطي وحقوق الإنسان.. دون التطرق إلى ما ينبغي أن يشير إليه المصطلح بالضرورة.. وهي هندسة السياسة الداخلية والخارجية للدولة بما ينقلها من وضع «عدم التقدم» إلى مصافّ الدول المتقدمة.

ومن المؤسف أن معهد الدراسات السياسية في جامعة «آكس أون بروفانس».. يمنح درجة الماجيستير في «الهندسة السياسية» طبقًا للمفهوم

www.ibtesamah.com/vb

الســائد.. الـذي يتعلـق بصياغة عالميـة لنظام حكـم ديمقراطـي.. عبْر وضع هياكل للدسـتور والقانون والانتخابات.. أو ما يسمى بـ«الهندسة الدستورية» و«الهندسة القانونية» و«الهندسة الانتخابية».

***

تذهب هذه السطور إلى بلورة تعريفٍ آخر.. وسياقٍ فكريٍّ آخر لـ«الهندسة السياسـية». إنَّ التعريـف الفرنسي يختـزل الأطروحـة فـي مجـرد نصـوص حقوقيـة وانتخابيـة.. وهـي أمـورٌ لهـا مكانهـا في دراسـات حقوق الإنسـان ودراسـات نظم الحكـم.. ولا تحتاج إلى مصطلح جديـد.. ذلك أن مصطلح «التحوّل الديمقراطي» هو الأنسـب لوصْف الهندسـات الدستورية والقانونية والانتخابية.

وحتى ما يخصّ نزع سـيادة دولة مّا، وفرض نموذج لنظام الحكم عليها.. فهـو يدخـل في إطـار «الصـراع الدولي» ضمن حقـل «العلاقـات الدولية».. ولا يحتاج إلى مصطلح «الهندسة السياسية» في شيء.

***

تدور صفحات هذا الكتاب حول.. الهندسـة السياسـية في مصر. حول ما كان ومـا يجب أن يكون.. حول «الإمبراطورية المصرية» التي شـغلت معظم التاريـخ.. وحول «الدولة المصرية» التي كانت باسـتمرار.. فاصلًا بين حِقَب الإمبراطورية المصرية.

ولقد رأيتُ أن الرؤية الهندسيّة لبلادنا لا يمكنها أن تتجاوز الماضي.. لتبدأ من منطقة الصفر. ولذا جاء الفصل الأول من الكتاب حول هندسـة التاريخ..

www.ibtesamah.com/vb

أيْ إعادة تقديم التاريخ المصري على أسسٍ علميّة وفكرية.. تُفصِح عن حيثيات العظمة.. وأسباب المجد.

لقد مثَّلت «الوطنيّة السطحيّة» التي تتحدّث عن مصر على نحو ساذجٍ وركيك، عبئًا على «الوطنيّة العلميّة» التي تقوم على حقائق وثوابت.. ويحتاج سبْر أغوارها إلى رؤى ومعارك.. لا مجرد الهتاف والتصفيق.

إن مصر لم تعد كما كانت.. لا الحضارة هي الحضارة، ولا المكانة هي المكانة.. ويحتاج ترميم المسافة الشاسعة بين ما هو كائن.. وما كان.. أو بين ما هو كائن.. وما يجب أن يكون.. إلى أطروحاتٍ ونظرياتٍ.. وإلى سياساتٍ وقراراتٍ.. وقد جاء الفصل الثاني ليطرح جوانب من هندسة الحاضر.. أو ما يجب أن يكون.

ولم يكن ممكنًا تقديم طرحٍ فكريٍّ جديدٍ كـ«الهندسة السياسية في مصر».. دون الوقوف أمام بعضٍ من نجوم الهندسة السياسية.. وروَّاد بناء الدول والإمبراطوريات.. في مصر والعالم.. وهنا كان الفصل الثالث.

***

إنني إذْ أتقدم بصفحات كتابي هذا.. «الهندسة السياسية».. فإنني أتمنّى من القارئ العزيز أن يجد فيه ما يفيد وينفع.. عِلمًا ووطنًا.

والله وليّ التوفيق،

أحمد المسلماني

www.ibtesamah.com/vb

الفصل الأول

هندسة الماضي

www.ibtesamah.com/vb

FARES_MASRY
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر ديسمبر ٢٠١٨

www.ibtesamah.com/vb

عصر الاستقلال

كنت في مكتبة عامة في مدينة خليجية، ووقعت عيناي على كتاب «ناصر» لمؤلفه الشهير أنتوني ناتنج، كان المؤلف وزيرًا بريطانيًا وهو كاتب سياسي شهير.. وكتابه هذا هو أشهر كتاب في العالم عن الرئيس جمال عبد الناصر.

أصابني أول سطر في الكتاب بالغثيان.. «جمال عبد الناصر هو أول حاكم مصري بعد ألفيْ سنة من الاستعمار».. قلت في نفسي يا إلهي.. كل هذا الهوان أَصَابَنَا. هل ظلّت مصر مستعمرة عشرين قرنًا متصلة حتى جاء الرئيس عبد الناصر؟!.. وإذا كان الأمر كذلك.. فنحن الآن إذن في مرحلةٍ استثنائيةٍ لا تمثّل مصر. لدينا وقت قصير للغاية في تجربة الاستقلال.. أمام مساحة عملاقة من زمن الاحتلال!

***

إن ما وجدته في كتاب «ناتنج» وجدته في كتب ومقالات عديدة تروج لتلك الخرافة.. أن مصر هي أطول المستعمرات عمرًا، وأن تاريخ الاستقلال في بلادنا هو بمثابة الاستثناء.. وأنَّه لن يصلُح مصر إلا حُكم الأجانب.. الذين وحدهم يملكون وضع النظام السليم والإدارة الرشيدة للبلاد.

لو أنَّني أجريتُ بحثًا عن هؤلاء الذين قالوا إن تاريخنا كلّه استعمار، وأن استقلالنا محض استثناء.. وأن شعبنا لم ينهض إلا مع حاكم قادم من أرض

www.ibtesamah.com/vb

أخرى ووطن آخر ولسان آخر.. لاحتجتُ إلى مجلدات تضم كلَّ هذا الكمّ من «القِمامة النظرية».

***

إن مصر هي الدولة الأكثر استقلالًا في تاريخ العالم.. ويذهب الدكتور حسين فوزي إلى أن مصر أطول الأمم تاريخًا، وهي أيضًا الأطول استقلالًا.. ومن بين 5 آلاف سنة هي عُمر الدولة في مصر.. عاشت مصر دولة مستقلة أو إمبراطورية مصرية 3500 سنة، وأنها في تاريخها الثّري العظيم عاشت أطوارًا من الحضارات.. من حضارة فرعونية خالصة.. إلى حضارة مصرية يونانية إلى حضارة مصرية رومانية.. إلى حضارة مصرية إسلامية.

ويقطعْ الدكتور جمال حمدان بأنَّ عُمر الاستقلال في مصر يصِل إلى 4 آلاف سنة كاملة.. لم تخضَع فيها مصر لأيٍّ من الغزاة الأجانب.

يقول جمال حمدان: لا توجد دولة لم تعرف الاستعمار، وهناك دول عرفت الاستعمار طوال تاريخها، وبلد مثل بريطانيا رغم أنه «بلد متطوّح» وليس مركز العالم مثل مصر.. بريطانيا خضعت للغزو الأجنبي كل تاريخها حتى العصور الحديثة.. تمَّ استعمار بريطانيا بتتابع وبلا انقطاع.. وكان بعض ملوكها المستوردين لا يعرفون الإنجليزية!

ويزيد الدكتور جمال حمدان توضيحًا وتعظيمًا.. أن بعض الذين احتلُّونا سبق لنا احتلالهم.. وأن الثورات المصرية اندلعتْ وغطّتْ جميع عصور الاحتلال.. وأن مصر انفردتْ بزعامة المنطقة لأطول مدى ممكن.. نصف العصور الوسطى ومعظم العصور القديمة.

***

www.ibtesamah.com/vb

عاشت مصر ثلاثة أرباع تاريخها دولةً مستقلةً، وهي النسبة الأعلى في تاريخ العالم، وينقل الدكتور طه عبد العليم في دراسته «خرافة نظرية أنَّ مصر أطول المستعمرات عُمرًا».. عن الدكتور جمال حمدان والدكتور حسين فوزي خلاصة بحثهما الموثَّق.. بأن مصر قد عاشت أكثر من سبعين بالمائة من تاريخها دولة مستقلة.. ثم ينقل الكاتب عن المؤرخ «فيرجريف» دهشته في كتابه الشهير «موجز تاريخ أفريقيا».. من امتداد زمن الاستقلال في مصر. يقول «فيرجريف»: «في تاريخ كل الدول في العالم.. ما من دولة واحدة - غير مصر - استمرتْ أكثر من نصف الوقت وهي متحرِّرة من الغزو»!

يذهب عددٌ كبيرٌ من المؤرخين والباحثين إلى أن مصر قد عاشت أكثر من نصف تاريخها الإسلامي دولة مستقلة.. ويوجز الدكتور جلال الشايب جوانبَ من معالم الاستقلال المصري في العصر الإسلامي على النحو التالي:

يبدأ تاريخ مصر الإسلامية عندما فتح عمرو بن العاص مصر في عام 640م.

أصبحتْ مصر ولاية تابعة لمركز الخلافة في عصر الخلفاء الراشدين «640ـ 660م»، وولاية تابعة لمركز الخلافة في دمشق في عصر الدولة الأموية «660ـ 750م»، وولاية تابعة لمركز الخلافة في بغداد في عصر الدولة العباسية «750ـ 868م».

إلا أن مصر استطاعت الاستقلال.. في بعض الفترات مثل العصر الطولوني «868ـ 905م» والعصر الإخشيدي «935ـ 969م»، حتى أصبحت مصر إمبراطورية إقليمية مهمَّة تبسط سلطانها على بلاد الشام والحجاز واليمن في العصر الفاطمي «969ـ 1171م».. وصارت القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية

www.ibtesamah.com/vb

لا تقل شهرة ومكانة في العالم الإسلامي عن مدينتي بغداد، عاصمة الخلافة العباسية، أو قرطبة، عاصمة الخلافة الأموية في الأندلس.

وفي العصر الأيوبي «1171 ـ 1250م»، نجح صلاح الدين الأيوبي في ضم دمشق وحلب وطرد الصليبيين من القدس.

وفي العصر المملوكي «1250 ـ 1517م»، أصبحت مصر «قوة عظمى».. حيث وصلتْ حدودها حتى الدولة العثمانية، كما تمكَّنت من الاستيلاء على جزيرة قبرص.. وبعد سقوط الخلافة على يد المغول نقلت الخلافة العباسية إلى مصر في عهد الظاهر بيبرس في عام 1260م، وانتقل مركز الثقافة الإسلامية من بغداد إلى القاهرة، عاصمة الدولة المملوكية، وصارت القاهرة بمثابة الحصن للحضارة العربية الإسلامية.

لكن انهيار الوضع الاقتصادي في آخر العهد المملوكي «بعد اكتشاف فاسكو دي جاما طريق رأس الرجاء الصالح» قد أدَّى إلى وقوع مصر فريسةً سهلةً للدولة العثمانية، ومن ثَمَّ أصبحتْ مصر ولاية تابعة لمركز الخلافة في إسطنبول «1517 ـ 1805م».

ولكن مصر حصلت على الاستقلال - من جديد - تحت حكم أسرة محمد علي منذ عام 1805م وحتى الاستعمار البريطاني.

يخلُص دكتور جلال الشايب من كل ما سبق «من الفتح الإسلامي حتى الغزو البريطاني» إلى أن مصر قد عاشت أكثر من نصف تاريخها الإسلامي دولة مستقلة «بنسبة 56٪»، وعاشت ولاية تابعة «بنسبة 44٪»، وهو ما ينفي تمامًا فكرة أن مصر كانت مستعمرة طوال تاريخها الإسلامي، ولم تعرف الاستقلال، إلا في عصر «محمد علي» فحسب.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

لم تقف الأكاذيب بشأن التاريخ المصري المجيد عند خرافة أن مصر أطول المستعمرات عُمرًا.. بل تجاوزتْ إلى الادّعاء بأن عصور الاستعمار في مصر هي عصور الإنجاز والتعمير، وإن عصور التخريب والفشل هي في الأغلب فترات حُكم المصريين لبلادهم.

يقطعُ جمال حمدان وحسين فوزي بأن تلك المقولات هي محض خرافة.. وأن مصر هي الدولة الأطول استقلالًا والأعلى بناءً.. والأبهى حضارةً.. في كل العالم وعلى مرِّ التاريخ.. وأن مصر عاشت ثلاثة أرباع تاريخها دولة مستقلة - ومتقدمة أيضًا - وهي أعلى نسبة في تاريخ الشعوب.

يقول الدكتور جلال الشايب مفنِّدًا خرافة «البناء في زمن الاستعمار».. و«الفشل في زمن الحكم الوطني»:

1- الدارس للعمارة الإسلامية في مصر يكتشف أن نهضتها كانت مرتبطة دائمًا باستقلالها، وفي الفترات التي كانت فيها مصر ولاية تابعة سواء للدولة الأموية أو للدولة العباسية أو للدولة العثمانية.. كانت تتخلَّف معماريًّا.

2- على مدى 228 سنة منذ فتح مصر وحتى قيام الدولة الطولونية المستقلة.. لم يُشيَّد سوى جامع عمرو بن العاص الذي لم يتبق منه سوى حائط القبلة حيث شُيد الجامع بشكله الحالي في عصورٍ لاحقة. وكذلك جامع العسكر وهو غير موجود حاليًّا. وأما مقياس النيل في الروضة فقد شُيد في العصر العباسي لأسباب تتعلق بجباية المال.

3- في العصر الطولوني عندما استقلت مصر عن الدولة العباسية تم تشييد جامع ابن طولون «الجامع الثالث في مصر، وأحد أجمل المساجد الإسلامية».

www.ibtesamah.com/vb

4- في العصر الفاطمي أنشأ جوهر الصقلي مدينة القاهرة، وشيَّد الأسوار للدفاع عنها، وأنشأ البوابات.. مثل باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة.

5- في العصر الفاطمي أيضًا تم تشييد الجامع الأزهر.

6- امتازت الدولة الأيوبية المصرية المستقلة بالعمارة الحربية، مثل: القلاع والحصون والمعسكرات وإنشاء المدارس الكبيرة، ومن بين المنشآت المعمارية تميَّز ضريح الإمام الشافعي.

7- تمثل الدولة المملوكية المصرية المستقلة العصر الذهبي لفن العمارة الإسلامية في مصر.. وهي عمارة تمتاز بضخامتها.

8- من إبداعات سلاطين المماليك البحرية «1250 - 1382م» جامع السلطان قلاوون، وجامع ومدرسة الناصر محمد، وجامع ومدرسة السلطان حسن «الذي زاره الرئيس الأمريكي باراك أوباما في عام 2009م»، والذي يعتبر من أروع العمائر الإسلامية في العالم.

9- من إبداعات سلاطين المماليك البرجية «1382 - 1517م» جامع ومدرسة قنصوة الغوري، وضريح ومدرسة الظاهر برقوق، وقلعة قايتباي بالإسكندرية.

10- الصافي من ذلك كله.. أنَّه حين تُحكَم مصر من داخل مصر.. يكون الصعود وحين تُحكَم مصر من خارج مصر يكون الهبوط.

هنا تكمن فلسفة التاريخ في مصر: عصور الاستقلال هي الأكبر في تاريخ العالم.. وعصور الاستقلال هي نفسها عصور الازدهار.

www.ibtesamah.com/vb

فرعون واحد من مئات الفراعنة..
قصّة موسى

نحن المصريون فراعنة.. يمتدُّ نَسَبُنَا المجيد إلى الأمة الفرعونيّة، ولما تشرّفَتْ بلادُنا بدخول الإسلام الحنيف.. أصبحتْ أمّتنا الفرعونيّة جزءًا من الأمة العربية والإسلامية.

لايزال المصريون فراعنة من حيث الانتماء العرقي والأصل التاريخي.. وهم أيضًا مركز العروبة والإسلام من حيث الانتماء الديني والتكوين الثقافي.

ليس في نسبِنا الفرعوني ما يدعو للخجَل.. ليس فيه إلّا ما يدعو للشَّرف. الأمّة الفرعونيّة أمةٌ ماجدةٌ.. هي الأعظم والأرقى في كلّ أمم العالم على امتداد قرونٍ طويلةٍ.. وهي الأعلى والأعلم في كل آلاف السنين.. التي شهدت انتقال الإنسان من الغابة إلى الحضارة.

ولقد واجهتْ الحضارة الفرعونية والنسب الفرعوني.. هجومًا واسعًا.. من أعدائنا.. ما جعلها في وضعِ الدفاعِ والتبرير.

وتمضِي اليوم منظومةٌ كاملةٌ.. مدعومةٌ من «الخارج الحاقد» و«الخارج الجاهل».. لنزعِ شرفِ التاريخ عنّا.. وإرباكِ الصورةِ الحضاريةِ لبلادنا.

يقول السفهاء من الناس: إنّ الحضارة الفرعونية قامتْ على بنائها كائناتٌ فضائيةٌ جاءتْ من السماء، ويقول سفهاء آخرون: إن العبيد اليهود هم من

www.ibtesamah.com/vb

بنوها بالسخرة والقمع.. ويقول سفهاء ثالثون: إن الفراعنة هم أعداء الدين، وهم أعداء النبي موسى وقومه.. وهم على ذلك كفار وخصوم أنبياء، ويقول سفهاء رابعون: إن الهكسوس هم بنو إسرائيل، ويقول سفهاء خامسون: إن فرعون موسى اسمه فرعون.. وإنَّ المصريين القدماء ليسوا فراعنة.. وإنَّ شخصًا واحدًا اسمه فرعون!

لم يتمكَّن تحالف الحاقدين والجاهلين من الصمودِ طويلًا فيما مضى.. ولن يتمكَّن من الصمود فيما هو آت.

* * *

في قولةٍ واحدةٍ.. ثمّة فرعون واحد اصطدم مع نبي واحد.. إنّه «فرعون الخروج» الذي كفَر برسالة ربّه، وعادَى سيدنا موسى عليه السلام.. وكان جزاؤه الغرق في الدنيا والعذاب في الآخرة.

فيما عدا فرعون الخروج وقصّته مع النبي موسى عليه السلام.. لم يذكر القرآن الكريم فرعونًا ثانيًا على هذا النحو.. وعلى ذلك فإن حقبة الصِّدام بين الملوك الفراعنة وبين رسالة السماء.. إنما تشمل عهدًا واحدًا وفرعونًا واحدًا.. وليس فرعونيْن أو ثلاثة. ولا يوجَد من بين المفكرين والمؤرخين ذوي المكانة مثقّف واحد.. يتحدث عن فرعونيْن أو أكثر قامَا بالصدام مع نبيّ الله موسى وإنكار رسالته.. حيث ينصرِف الإجماع على أنه فرعون واحد.

وإذا كان الأمر كذلك.. فإنّ بقية الفراعنة لم يأتِ ذكرهم في القرآن الكريم أو التوراة بمثل ما جاء ذكر فرعون الخروج.. من نقدٍ ووعيدٍ.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

إن عـدد الملـوك الفراعنـة فـي تاريخنـا المجيد يُعـدُّ بالمئـات، ويُحصِي المؤرخون – بالأسـماء – أكثر من ثلاثمائة من الملوك الفراعنة حكموا مصر طيلة العصر الفرعوني.. ينتمون إلى واحدٍ وثلاثين أسرة.

وحيـن قامت ثورة يوليو 1952م قدَّرت بعـض المصادر أن الرئيس محمد نجيب يحتل الترتيب رقم (462) ضمن سلسلة حكام مصر منذ تأسيس الدولة المصرية.. وأنَّ حكَّام مصر الفراعنة يزيدُ عددُهـم عن (300) فرعون من (31) أسرة في (2868) سنة.

يشمَل عهد الأسرة الأولى تسعة ملوك، والأسرة الثانية ستة ملوك، والأسرة الثالثة خمسـة ملوك، والأسـرة الرابعة سـبعة ملوك، والأسـرة الخامسة تسعة ملوك، والأسـرة السادسة ستّة ملوك، والأسرة السـابعة تسعة ملوك، والأسرة الثامنة ستة ملوك، والأسرة التاسعة سبعة ملوك، والأسرة العاشرة ستة ملوك.

كما شـمل عهد الأسـرة الحادية عشرة سـتة ملوك، والأسـرة الثانية عشرة ثمانيـة ملوك، والأسـرتين الثالثة عشـرة والرابعة عشـرة أكثر من سـتين ملكًا، وشـملتْ الأسـرة الخامسـة عشـرة والسادسـة عشـرة ثلاثة وعشـرين ملكًا، والأسـرة السابعة عشرة أربعة ملوك، والأسـرة الثامنة عشرة أربعة عشر ملكًا، والأسرة التاسعة عشرة ثمانية ملوك، والأسرة العشرين عشرة ملوك.

وقد شمل عهد الأسرة الحادية والعشرين ثلاثةَ عشر ملكًا، والأسرة الثانية والعشرين اثني عشـر ملكًا، والأسرة الثالثة والعشرين خمسة ملوك، والأسرة الرابعـة والعشـرين ملكيْن اثنيْن، والأسـرة الخامسـة والعشـرين سـتة ملوك، والأسرة السادسة والعشـرين تسعة ملوك، والأسرة السابعة والعشرين خمسة ملوك، والأسـرة الثامنة والعشـرين ملكًا واحدًا، والأسـرة التاسعة والعشرين أربعة ملوك، والأسرة الثلاثين أربعة ملوك.

www.ibtesamah.com/vb

وقد شملت الأسرة الحادية والثلاثين وهي الأسرة الفرعونية الأخيرة ثلاثة ملـوك كان آخرهم «داريوس الثالث».. وينتهي العصر الفرعوني المصري في عام 332 قبل الميلاد.

***

ضِمن هذه الأسـر.. كان ملوك الأسـرة الخامسـة عشـرة والسادسة عشرة مـن الهكسـوس الذين حكموا جـزءًا من مصر، وكان ملوك الأسـرة السـابعة والعشرين من الفرس.

إذن فإن ملوك ثلاث أُسَـر كانوا من الهكسـوس والفـرس.. وملوك ثمانية وعشرين أسرة كانوا من الفراعنة المصريين.

وفي عصر الهكسـوس.. كان هناك الملـوك الفراعنة في الجنوب، وكانت عاصمـة مصر قائمةً في الصعيد. لم تسـقط الدولة المصرية بكاملها.. بل كان وجود الهكسوس بمثابة احتلال جزئي لمصر.. لم يتجاوز شمال البلاد.. وإذا مـا تم تطبيق قواعد علوم السياسـة والقانون المعاصـرة.. فإنّه يمكن القول إن الدولة المصرية لم تسـقط في عهد الهكسـوس.. وإن الهكسوس قد سيطروا على أجزاء من شـمال مصر.. وبقيت السـيادة المصرية الفرعونية على معظم البلاد.

***

لـم يكن الملـوك الفراعنة كلهـم عند مسـتوى واحد من الحضـارة.. ولم يكونوا جميعًا متسـاويين في الكفـاءة والموهبة.. أو البطولـة والإنجاز. فلقد كانت الأسـرة الثامنة عشـرة هي أسـرة أسـطورية في العظمة والمجد.. وهي بمثابة «عصر الكبار» في التاريخ الفرعوني.

www.ibtesamah.com/vb

في الأسـرة الثامنة عشرة.. أربعة أمنحتب وأربعة تحتمس: أمنحتب الأول والثانـي والثالث والرابع، وتحتمـس الأول والثاني والثالـث والرابع.. وفيها الملكة الشـهيرة حتشبسـوت، والملك الشـهير توت عنخ آمون.. وفي مقدمة الأسرة المؤسس العظيم الملك أحمس.

وقد ضمّت الأسرتان التاسعة عشرة والعشرون عددًا من نجوم الرعامسة.. من رمسيس الأول إلى رمسيس الحادي عشر. وبينما يتوقَّف التاريخ في حزن وانكسـار أمام الملك بيبي الثاني.. الـذي افتقد الذكاء والمعرفة.. حتى ليقول «آلان جاردنر» في كتابه «مصر الفراعنة» إنه أول «حاكم غبي» عرفه التاريخ.. فكان عصر المحنة لأربعة وتسعين عامًا.. عهد فسادٍ وتدهورٍ وحروبٍ أهلية.. فـإنَّ التاريخ يتوقَّف بالفخـر والزهو أمام «الملك أحمس» هازِم الهكسـوس، و«الملـك أبسـماتيك الأول» هازِم الآشـوريين و«الملـك أميرتايوس» الذي انتزع السلطة من الفرس في الأسرة الثامنة والعشرين.

* * *

إن الملـوك الفراعنة على ذلك هم كثيـرون.. والحدّ الأدنى لعددِهم.. هو ما شـرح المؤرخون حياتهم ومسيرتهم من الأسرة الأولى إلى الأسرة الحادية والثلاثين. وإذا تمَّ اسـتثناء الهكسـوس والفرس وحسـاب الملوك الفراعنة.. دون إضافـة ملـوك الجنـوب الفراعنـة في عهد الهكسـوس.. وملـوك فراعنة آخرين لـم تتمكن الدراسات من إحصائهم.. يكون المجموع كالتالي:

+ (6) + (7) + (6) + (9) + (6) + (9) + (7) + (5) + (6) +(9)

(5) + (12) + (13) + (10) + (8) (14) + (24) + (61) + (8) + (6)

(2) (6) + (9) + (1) + (4) + (4) + (3) = (260) ملكًا فرعونيًا.

www.ibtesamah.com/vb

وإذا ما أضيف لذلك.. ملوك عصور الضعف وملوك لم يتمّ التحقُّق التاريخي بشأن وجودهم.. فإن العدد يتجاوز الـ(300) فرعون.. ممّن اعتلوا عرش مصر الفرعونية.. من الملك «مينا نارمر» وحتى الملك «داريوس الثالث».

***

وسط هذه المئات من الملوك الفراعنة.. ثمّة فرعون كافر.. ادَّعى الألوهية، وطاردَ نبي الله موسى، وعادَى المؤمنين برسالة السماء.

إنّه فرعون واحدٌ من مئات الفراعنة.. ومعه «رئيس وزراء» واحد من بين المئات من رؤساء الحكومات الفرعونية وهو «هامان».

كان فرعون الخروج فرعونًا مصريًّا.. أي ملكًا مصريًّا من ملوك الفراعنة. «الفرعون» ليس اسمه.. بل هو وصف منصبه الملكيّ، وقد كان مصريًّا ولم يكن من الهكسوس أو غيرهم.. وهو كافر وقاتِل.. ولكنَّه وحده في هذه المكانة المتدنيَّة.

في عهده كان استعباد المصريين لبني إسرائيل قد وصلَ إلى الحدّ الأقصى، وكان هذا خطأً فادحًا وظلمًا شديدًا.. نشعر نحن المصريون إزاءه بالخجَل والأسَف.

وفي سفر الخروج تصِف التوراة حقبة الاستعباد: «فاستعبدَ المصريون بني إسرائيل، ومرَّروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبِن.. وفي كل عملٍ في الحقل.. كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عُنفًا».

لم يشارك «اليهود العبيد» في بناء الأهرامات.. بل بناها المهندسون والفنيون والعمال المصريون.. ولكن جرى استعباد اليهود في أمور أخرى..

www.ibtesamah.com/vb

لم تكن منها هذه الأمور العظيمة. لذلك لم يترك اليهود أيّ ذكر لهم.. ولا توجَد أيّة دلائل على وجودهم.. نظرًا لضعف إسهامهم، وهامشية أعمالهم في حقبة وجودهم.

ببساطةٍ شديدةٍ.. فإن المصريين لم يذكروا وجودَ أو غياب اليهود في بلادهم.. نظرًا لعدم أهميّة وجودهم أو رحيلهم.. في المسار الكبير للحضارة المصرية.

ويذهب «جي. دبليو. سميث» في كتابه «الله والإنسان في إسرائيل القديمة» إلى القول: «جاء سكوتُ وصمتُ الآثار المصرية عن قصة الخروج لبني إسرائيل من مصر.. لأنها من وجهة النظر المصرية الفرعونية لا تزيد عن كونها فرار مجموعة من العبيد من سادتهم المصريين.. ولا تستحق التسجيل على جدران المعابد».

ويذهب مؤرخون آخرون إلى أنّ الفراعنة المصريين لم يسجّلوا «غرق الفرعون» أثناء مطاردته بني إسرائيل.. من باب عدم تخليد الهزيمة والإهانة.. و«التعتيم الإعلامي» على فشل الفرعون.

* * *

الثابت في «القرآن الكريم» والموجود في «التوراة» أن الفراعنة هم ملوك مصر.. وأن أحدَهم ادعى الألوهية ووقف ضد رسالة الله إلى نبيه موسى عليه السلام.. وأن الله قد أغرقه ليكون آيةً واعتبارًا للآخرين.

وقد جاءت أوصاف القرآن الكريم كالتالي: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴾ [الفجر: 10].. ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: 43، 44].. ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: 23، 24]..

www.ibtesamah.com/vb

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس: 92].. ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: 137].. ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الدخان: 30، 31].. ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الدخان: 25 – 27].

وعلى ذلك.. فإن حقائق ما جرى – طبقًا للقرآن الكريم – هي كالتالي:

أولا: كانت العمارة الفرعونية شامخة.. وكانت منشآتها عظيمة.

ثانيًا: ادَّعى فرعون الألوهية خلافًا لأسلافه.. الذين كانوا يقولون إنَّهم يستمدُّون قوتهم من الإله.. ادّعى أنه هو الإله.. والربّ الأعلى. ولوْ كان ادعاء الألوهية سمةً ثابتةً في الحكم الفرعوني.. لكان الوصف قد امتدّ إلى الجميع.. أسلافه وسابقيه.. كما جاء في أقوامٍ آخرين.

ثالثًا: أن أسلوب التعامل الأنسب مع فرعون رغم طغيانه وادعائه الألوهية.. هو اللياقة واللين.. لعلّه يتذكّر أو يخشى.

رابعًا: أن فرعون قد مات.. ولكن الله نجّى بدَنه.. ما يعني أن بدَنه ربَّما قد جرى تحنيطه.. ليكون ضمن المومياوات التي تم العثور عليها.. أو أنَّ مومياء فرعون الخروج لم يتم التوصُّل لها بعد.

خامسًا: أن آثار فرعون الخروج.. وهي آثار شامخة وسامية.. ذات أوتاد ولها مستوى عمارة مذهل.. قد تم تدميرها.. فلقد دمّر الله ما كان يصنع فرعون وقومه، وما كانوا يعرشون، والآثار المصرية الموجودة حاليًّا من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب.. لا يوجد فيها أثر واحد لفرعون الخروج.

www.ibtesamah.com/vb

سادسًا: لقد نجَا بنو إسرائيل بإرادة الله من فرعون.. وقد كان فرعون يسومُهم سوء العذاب.. وكان «عاليًا» من المسرفين.

سابعًا: كانت مصر قوة عظمى، ذات ثراء فاحش وخيرٍ لا مثيل له.. كانت جناتٍ وعيون، وزروعٍ ومقامٍ كريم.. كما أنها كانت مساحة من الوفرة والرخاء، والنعمة التي كانوا فيها فاكهين.

***

هكذا تبدو الصورة واضحةً تمامًا.. فرعونٌ كافرٌ أمام نبيٍّ رسول.. ونحن – كمؤمنين – إنّما نناصِرُ نبيَّ الله.. على فرعون وهامان وجنودهما.

لا يتعارضُ هذا أبدًا مع الفخر بحضارتنا وتاريخنا الذي لا مثيل له.. إنه ملكٌ واحدٌ ورئيس وزراء واحدٍ.. ولدينا مئاتٌ آخرون ممَّن لم يأتِ القرآن الكريم على ذكرهم بالكفر.. أو اختصاصِهم بالعذاب الأليم. بل إن لدينا مديحًا رائعًا في «السيدة الفرعونية الأولى».. والتي جاء ذكرها في القرآن الكريم مرتبطًا بقوّة الإيمان وسموّ الأخلاق.. وفي سورة التحريم: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: 11].

وقد جاء في التوراة مديحٌ آخر في أخلاق فرعون مصر الذي التقى النبي إبراهيم عليه السلام. وفي صدد التعليق على موقف فرعون من زوجة إبراهيم يذكر «فرانسيس دافدسن» في كتابه «تفسير الكتاب المقدس» قول المفسر اللاهوتي «كيفن»: «إن فرعون كان يتسم بالاستقامة الطبيعية والأخلاق الحميدة».

***

www.ibtesamah.com/vb

يهدف تحالف «الجهل والحقد» ضد الحضارة المصرية.. إلى الإساءة إلى أكبر عدد من ملوك مصر الفرعونية.. بوصمِهم بأنهم فراعنة الخروج.. يتحدَّثون عن أحمس، وعن تحتمس الأول والثاني والثالث، وعن أمنحتب الثاني ومرنبتاح!

ليس كل هذا إلّا هُراء.. ذلك أن فرعون الخروج لم يعد له ذكر في حضارةٍ أو تاريخٍ. الحضارة المصرية لم تذكر شيئًا عن اليهود أو الخروج.. والقرآن الكريم قَطَعَ بالقول: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾.. فلم تبقَ له.. مسلّة ولا معبد.. ولم تصمُد له لوحة من بردي أو نقوش على جدران.. لقد تدمَّرت معالم عصره تمامًا.. وفي قولةٍ واحدةٍ: هو وعصره والعدم سواء.

وعلى ذلك.. فإن كلَّ الحضارة الفرعونية المجيدة.. لا يوجد فيها شيء من فرعون الخروج.. وملوكنا العظام الذين نعرف سيرتهم وتاريخهم وإبداعهم.. وما تركوا لنا من معالم أسطورية.. ليس من بينهم فرعون الخروج.

***

الصافي من هذا كله: المصريون فراعنة، والفرعونية هي القومية المصرية، والمصريون المعاصرون هم الفراعنة المعاصرون.

إنّ الفرعون ليس اسمًا لشخصٍ أو نعتًا لملك.. بل هو منصبٌ للجميع، ووصفٌ للكل. ولم يكن الملك المصري «فرعون الخروج» إلّا واحدًا من قرابة ثلاثمائة من الملوك الفراعنة. وإن المصريين إذْ يتبرأونَ منه.. ومن كُفرِه.. وعدائِه للّه ورسالاتِه.. فإنهم يعتزون ويتشرَّفون بكل تاريخِهم، وكل حضارتِهم.. وبأصلِهم الفرعوني المجيد.. إنّنا ببساطة.. فراعنة ونفتخر.

www.ibtesamah.com/vb

أنْ تنتصِر على المنتصِر وأنْ تغلِب الغالبِ.. سطْوة الحضارة

في القرن السادس قبل الميلاد.. كان فراعنة مصر قد ارتكبوا خطأً فادحًا.. حيث بدأ الفراعنة يعتمدون تدريجيًّا على «المرتزقة» في صفوف الجيش المصري. ثم زادَ وجودهم يومًا بعد يومٍ.. إلى أن أصبح عدد كبير من قادة الجيش من المرتزقة الذين جاءوا من أماكن عديدة.

ثمّة أساس عنصري لمَا حدث.. حيث رأى الفراعنة في ذلك الوقت أنّه لا ينبغي أن يعمل المصريون في الجيش والأعمال اليدوية.. وإنَّما يجب أن يتفرغوا لأعمال الدين وخدمة المعابد.. بينما يعمل المرتزقة على حمايتهم. وباتتْ المعادلة وكأنها كالتالي: المصريون هم جميعًا من السادة.. يبنُون المعابد والمسلّات، ويعملون في الفكر والدين.. دماؤهم مقدسة لا يجب إهدارها في الحروب، ويتولَّى مهمة الدفاع عنهم.. آلاف المرتزقة الذين لا قيمة لهم.

* * *

لم تكن هناك سياسةٌ حمقاء على مرّ تاريخ مثل هذه السياسة.. فقد أصبح جيش الفراعنة في أيدي المرتزقة الأجانب.

www.ibtesamah.com/vb

كان بعض المرتزقة قد قدِموا من اليونان.. وكان نفوذهم بلا حدود.. وهم من ساهموا في تعزيز الغزو الفارسي لمصر.. وقد بدتْ الصورة في بعض الأحيان وكأنها.. غزو تحالف المرتزقة في الجيش المصري مع الجيش الفارسي.. لبلادنا.. أو أنَّها - جزئيًا - الغزو المصري لمصر!

***

في نهايات القرن السادس قبل الميلاد.. تأسَّست الإمبراطورية الفارسية، واعتلى العرش الملك الشهير قورش.

كانت الحضارة المصرية وقتها هي الأكثر إبهارًا في العالم.. وعلى الرغم من سطوة المرتزقة وعوامل الضعف المتزايدة.. لم يكن هناك من يجرؤ على منافستها.

ثمّة رواية مثيرة أوْردها بعض المؤرخين.. تقول الرواية: إن الملك الفارسي «قورش» كان مريضًا وطلب من مصر أن ترسل له طبيب عيون.. وأن فرعون مصر «أحمس الثاني» اختار طبيبًا من البلاط الفرعوني يرسله إلى قورش، ولكن الطبيب كان كسولًا وكارهًا للعمل.. وكان ناقمًا على الفرعون.. وأراد الانتقام منه.. فلما تقرّب من الملك قورش.. أقنعهُ بأن يطلب الزواج من ابنة فرعون.. وكان يدرك أن الفرعون سوف يرفض الطلب نظرًا لمكانته المرموقة، ووضْع الملك الفارسي الأقلّ مكانةً.. ممّا سيقود إلى الحرب!

اختار الفرعون أن يقوم بحلٍّ وسط.. ذلك أنه كان يدرك عوامل ضعف مصر وصعود فارس وقتها.. فأرسل له ابنة فرعون سابق. تمَّ اكتشاف الأمر.. إنَّها ليست ابنة الفرعون أحمس الثاني.. وقد اعترفتْ الأميرة الفرعونية بذلك. استشعر الملك قورش بالإهانة.. وقرَّر الحرب والغزو!

www.ibtesamah.com/vb

رحــل الملك قورش عــام 530 قبل الميلاد.. قبل أن يبدأ غزو مصر.. وقام ابنه الملك قمبيز الثاني.. بالغزو. ويذكر مؤرخو اليونان.. أن أحد قادة الجيش المصري – من المرتزقة – يدعى «فانيس» وكان يحتلُّ منصبًا أشبه بالمستشار العســكري للفرعــون.. قد انشــقّ عليه.. وخــانَ وظيفته.. وذهــب إلى فارس ليتولـى قيادة أجـزاء من الجيش الفارسـي.. فأعطاهم المعلومات العسـكرية المصرية كاملةً.. وقادَهم عبر الصحراء إلى الأراضي المصرية.

* * *

تحرَّك جيش فــارس بقيادة «قمبيز» لغزو مصر.. وقد توفّي الملك أحمس الثانـي قبـل الغـزو.. وتولّـى الملك «بسـماتيك الثالـث» حُكم مصـر. انهزم الفرعون الجديد في معركة الفارما في بورسعيد.. ثم في العاصمة منف.. وتمَّ أسره.

كان ذلك في عام 525 قبل الميلاد.. وعلى الرغم من قتل المصريين لأكثر من سبعة آلاف من جيش الفرس.. وتخريب سفينة فارسية وقتل كل من فيها.. إلّا أن الهزيمة قد حلّت بالبلاد، وتوجد لوحة شهيرة.. تم رسمها وهي تصور عملية أسْر الجيش الفارسي لملك مصر.

* * *

لم يستسـلم المصريـون للحكم الفارسـي.. وقد توالتْ الثـورات.. حتى اسـتقلتْ مصر في أعقـاب وفاة الملك «قمبيـز الثاني».. وأثنـاء حكم الملك «دارا الأول».

ويسـتنِد مؤرخون إلى نقش «بهسـتان الفارسـي» في محافظة «كرمانشـاه» الإيرانية.. والذي يؤكد ثورة المصريين على الحكم الفارسي واستقلال مصر

www.ibtesamah.com/vb

بعد سنوات قليلة من الاحتلال.. وأنَّ مصر قد استمرت دولةً مستقلةً أكثر من ثلث قرن.

في عام 485 قبل الميلاد.. في عهد «خاشيار شاه الأول».. تكرَّرت المعارك بين مصر والفرس. وانتصر جيش الفرس في معركة «ماري» في مريوط بالإسكندرية. ويقول مؤرخون إن هذه الجولة قد استمرت خمسة وعشرين عامًا حتى عام 460 قبل الميلاد.

* * *

عادَ الفرس من جديد.. إلى أن جاء الفرعون البطل «آمون حر الثاني».. والمعروف يونانيًّا باسم «أميرتايوس». نجح هذ البطل الذي ولد في «صاو» – صالحجر مركز بسيون محافظة الغربية– في هزيمة الفرس وتحرير كل الأراضي المصرية.

بدأ «آمون حر الثاني» – «أميرتايوس».. بإطلاق حرب عصابات حول صالحجر في عام 411 قبل الميلاد.. ثم واصَلَ القتال في حرب نظامية.. حتى سحقَ الجيش الفارسي في عهد الملك دارا الثاني.. وأسّس الأسرة الفرعونية الثامنة والعشرين في عام 404 قبل الميلاد.

وقد نجحت الأسرات الفرعونية التاسعة والعشرون والثلاثون والحادية والثلاثون.. في منع الفرس من دخول مصر.

* * *

كان الحكم الفارسي لمصر في العصر الفرعوني.. يمثل انتصارًا عسكريًّا.. وانكسارًا حضاريًّا. كانوا عبئًا على الحضارة المصرية.. ولولا المهندسون

www.ibtesamah.com/vb

والعمال المصريون ما استطاعت الإمبراطورية الفارسية أن تتوسَّع عمرانيًّا وترتقي معماريًّا في عاصمتها «سوسا».. ولولا ما أخذه الفرس من إبداعات المصريين.. مثل قرص الذهب العملاق الذي يحمل تدوين أيام السنة وخريطة النجوم، وكنوز عديدة لا حصر لها.. لبقيتْ فارس أقلّ حضارةً ممّا وصلت إليه.

***

تملّق الفرس عبادة المصريين وعاداتهم.. وظلُّوا منبهرين بالحضارة الأعرق في التاريخ الإنساني. كان التأثير الفارسي في الحضارة المصرية محدودًا للغاية، ولكن التأثير المصري في الحضارة الفارسية كان واضحًا تمامًا.. وقد عرضتْ الباحثة «إنجي فايد» في كتابها «الوجود المصري والإيراني في عمارة إيران» معلوماتٍ وافيةً وصورًا عديدةً.. لحجم التأثير الكبير للحضارة المصرية في الحضارة الفارسية.

***

لقد مضتْ مصر طويلًا عكس القاعدة الشهيرة لعالم الاجتماع عبد الرحمن ابن خلدون.. ذلك أنَّه طبقًا لابن خلدون.. فإن المغلوب يقلِّد الغالب.. وفي الحالة المصرية.. فإن الغالب كان يقلِّد المغلوب.

إن مصر - حتى في حقب الضعفِ والترهل - كانت باستمرار تمتلك الروح الحضارية والقوة الناعمة التي مكنتها من أن تنتصِر على المنتصِر.. وأن تغلب الغالب.

www.ibtesamah.com/vb

إنّ ما يحكم المستقبل هو ما قد حَكَمَ الماضي.. القوة الناعمة وإعادة تقديم الحضارة المصرية.. يمكنها أن تهزم القوة الصلبة المعادية إذا ما كانت أقوى. إنَّها المكوِّن الأكبر في حساب القوة الشاملة.

إنَّ «الفخر الوطني».. صناعة وسياسة.. وإنَّ الاستثمار الحضاري يجب أن يوازي الاستثمار الاقتصادي.. وإن «قوة الأنا» لا تقلُّ أهميةً عن «قوة السلاح».

www.ibtesamah.com/vb

الهكسوس في مصر.. هندسة الإلغاء..
أو رحلة العدم

تمكَّن الهكسوس من غزو مصر.. احتلوا أجزاءً منها عدة عقود.. ثم قام المصريون بقتالِهم وهزيمتهم.. وملاحقتِهم حتى نهايتهم. تلك حالةٌ تاريخيةٌ فريدةٌ.. الانتقال من «حرب الحدود» إلى «حرب الوجود».. حيث لم يعُد للهكسوس أيّ ذكرٍ في أيّ مكانٍ أوْ زمان.. كأنّهم لم يكونوا ذاتَ يوم!

***

جاء الهكسوس إلى مصر بأعدادٍ ضخمةٍ.. وبدائيةٍ جافّةٍ. نجحوا في احتلال شمال البلاد وأسَّسوا مدينة «أواريس» - صان الحجر محافظة الشرقية حاليًّا - عاصمة لسلطتِهم.

لم يكن لديهم ما يعطونه لمصر.. فأخذوا منها كلّ شيء.. ويذكر المؤرخ المصري الشهير مانيتون أنهم كانوا قومًا من الهَمَج، وقد قاموا بتقليد المصريين في مأكلِهم وملبسِهم.. وفي عاداتِهم وتقاليدهم.. ثم أخذوا منهم عقيدتهم.. وبذلوا جهودًا مضنيةً لكي يتمصّروا!

لم يمنْع الانسِحاق الهكسوسي أمام المصريين من قيام ثورات عديدة ضدّ سلطتهم، وضدّ وجودهم.. حتى جاء الفرعون «سقنن رع» عام 1580 ق.م. ليقودَ حربًا شاملةً ضدّ الهكسوس. وقد تولّى بنفسه إدارة العمليات الحربية..

www.ibtesamah.com/vb

حتى نجح الهكسوس في الغدرِ به.. وقتله بطريق الخداع بعد أن فشلوا في قتله أثناء المعارك.

ويذكر «سير جرافتون إليوت سميث» أن مومياء «سقنن رع» بها آثار لضرباتٍ شديدةٍ على رأسه.. وأنّه قد تم قتلُه على حين غِرّة. ولقد واصلت الملكة «إياح حتب الأولى» زوجة الملك سقنن رع ووالدة الملك أحمس الأول مسيرة النضال ضد الهكسوس.. وبثّ العزيمة في نفوس المقاتلين.

أضاف الملك كامس إلى انتصارات والده الكثير حتى وصل إلى عاصمة الهكسوس. ثم تولّى أخوه الملك البطل أحمس الأول قيادة مصر في سنّ السادسة عشرة.. وهو سنّ يرى المؤرخون أنّه كان يمثل سنّ النضوج عند الفراعنة.

نجحتْ الملكة «إياح حتب الأولى» في أن تكون نموذجًا عظيمًا في الكفاح ضدّ الاستعمار.. وهي أول امرأة في مصر تحصُل على وسام عسكري، وقد وضَع الملك أحمس الأوسمة العسكرية التي حصلت عليها مع المومياء الخاصة بها.. وتوجد مقبرة الملكة في وادي الملوك.

***

قام الملك أحمس بهزيمة الهكسوس وطردهم نهائيًا من مصر.. ومن خلال الجيش القوي والأسطول الضخم.. الذي أسّسهُ لحرب الهكسوس.. أسّس للإمبراطورية المصرية من جديد. وقد توسّعتْ الإمبراطورية فيما بعد.. وتمدّدتْ في زمن ازدهارها.. من تركيا شمالًا إلى إثيوبيا جنوبًا.. ومن إيران شرقًا إلى تونس غربًا.

***

www.ibtesamah.com/vb

طيلة الوقت.. لم يحتلّ الهكسوس إلّا شمال مصر.. ولم يحدث في أيّة لحظة أن احتلَّ الهكسوس كل الأراضي المصرية.. فقد كانتْ مصر العليا في الجنوب عند احتلال الهكسوس ذات سيادة مصرية ويحكمها الملوك الفراعنة.

***

ومن المثير حقًّا.. أنَّ المصريين قد محوُا كل شيء يخصّ وجود الهكسوس، واعتبروهم جملةً عارضةً لا قيمة لها.. قاموا بإسقاطها.. كأنها لم توجد ولم تكن.

***

لم يكن ممكنًا للهكسوس احتلال مصر.. لولا الصراع السياسي في شمال البلاد.. وتعمّق الفتنة والانقسام.

يحاول أعداؤنا باستمرار إهانة تاريخنا من خلال القول بأنَّ مصر دولةً سهلة.. وأن «حفنةً من الرعاع» وهم الهكسوس قد تمكّنوا من احتلالها والسيطرة عليها. والشاهد أن هذا القول غير صحيح.. ذلك أنَّ «هزيمة مصر أمام مصر» كانت سابقةً لهزيمتها أمام الهكسوس.. فقد أدى الانقسام والصراع السياسي في الشمال إلى إضعاف البلاد.. وكسْر حضارتها، والاستغراق في الدسائس والمؤامرات.. والتربُّص بين القوى السياسية والعسكرية المتنافسة على السلطة.

لقد كان سهلًا لتلك الأعداد الهائلة التي جاءت من خارج الحضارة.. مدفوعةً بالسلب والنهب والاغتراف من الخزائن المصرية.. أنْ تستخدم أقصى قوتّها من أجل الفوز في المعارك. كان ذلك نموذجًا نادرًا من «قوة

www.ibtesamah.com/vb

التخلُّف».. تلك القوة المستمدَّة من انعدام الأطر العقلية والأسس الأخلاقية، وهي المستمدَّة أيضًا من عدم خسارة أيّ شيء.. ذلك أنَّه لا توجد ملكيّة لأيّ شيء، ولا تميّز بأيّ شيء.

***

لقد دفع هذا الأمر المصريين إلى الغيْظ والحنق.. كيف طردتْ هذه العملة الرديئة العملة القويّة على هذا النحو؟! وكيف تمكن هؤلاء الحفاة العراة من احتلال أعظم حضارة إنسانية؟!

تجلّى الغضب المصري في الثورات والحروب، كما تجلّى في مطاردتهم خارج مصر إلى الشام وما بعد الشام.. حتى تم القضاء عليهم نهائيًّا. ثم إنَّه تجلّى في إلغاء وجودهم التاريخي وحذف كل ما يخص عصرهم وما يتعلق بحقبتهم.

إنها أكبر عملية إبادة معنوية في التاريخ.. تم التخلُّص من العار بإلغاء العار.. كما تمّت هزيمة الهزيمة بمحْوها ومحْو أطرافها.. وإلغاء المحتلّ كأنَّه جملةٌ عارضةٌ.. لم تُوجد ولم تكُن.

لقد توازتْ «هندسة الإلغاء» مع «هندسة البناء».. تمّ سحق العدو والذاكرة.. وتمهيد الأرض لإعادة المجد الإمبراطوري من جديد.

www.ibtesamah.com/vb

ما بعد الهكسوس.. المصريون
وتأسيس حضارة الصين

الأطروحة التي قدّمها عالم الجيوكيمياء الصيني البروفيسور «صن ويدونج» - والتي تضمّنت - أن المصريين هم الذين أسَّسوا الحضارة الصينية.. لاتزال تشغل علماء التاريخ والآثار.

لقد احتفتْ دورية «فورين بوليسي» بالأطروحة.. ونشرت مؤشرات «تأسيس المصريين لحضارة الصين»، وكتب موقع «هافنجتون بوست» الأمريكي تعليقًا على الدراسة: «الصين مصرية.. عالم صيني يحلّ معضلة أصول حضارة بلاده.. مهاجرون مصريون أسَّسوا حضارتنا».

***

البداية.. من سؤال: أين ذهب الهكسوس بعد قضاء مصر عليهم ومطاردتهم في آسيا؟.. تقول إحدى النظريات: إنهم ذهبوا إلى الصين.. وهناك نقلوا الحضارة المصرية.. ثمّ إن أعدادًا من المصريين قد توافدوا على الصين فيما بعد.. وقد ساهموا في تأسيس الحضارة الصينية.. وتركوا آثارهم في الصناعة والأدب والقصص التاريخية.

يذكر المؤرخ الصيني «سيما كيان» في دراسته حول طبوغرافيا «إمبراطورية شيا» أن هناك أصولًا مصرية للحضارة الصينية، ويذهب في كتابه

www.ibtesamah.com/vb

«The Records of the Grand Historian» أن النصوص الجغرافية الصينية القديمة تتوافق مع جغرافيا مصر.. لا جغرافيا الصين.. ذلك أن النص القديم الشهير: «ينقسم التيار شمالًا، ويصبح تسعة أنهار، ثم يتجمّع ويصب في البحر جهة الشمال».. لا يمكن أن يكون النهر الأصفر الشهير في الصين.. ذلك أَنَّهُ يتدفّق من الغرب إلى الشرق. ولكنَّه يتعلق بنهر النيل.. النهر الوحيد الذي يصب شمالًا، ويتدفق على هذا النحو المذكور وبهذا الوصف الدقيق.

***

اعتمد عالم الجيوكيمياء «صن ويدونج» الأستاذ في جامعة العلوم في مدينة هيلي شرق الصين.. دراسة المؤرخ الشهير «سيما كيان».. ونشر دراسة مثيرة بعنوان: «أصل سرّ فترة يان تشانج في الصين وذلك عن طريق سبائك الرصاص».. والتي نشرتها دورية «Nature Research Journal».

أعلن «صن ويدونج» نتائج بحث إشعاعي أجراه على المشغولات البرونزية القديمة في الصين، وكذلك سبائك الرصاص.. وهي النتائج التي أظهرت أن التكوين الكيميائي هو نفسه الموجود في مصر الفرعونية وليس من الخامات الصينية. كما أن سبائك الرصاص التي ظهرتْ لا علاقة لها أيضًا بما في الصين.. ولكنها جاءتْ من مصر. وكذلك فإِنَّهُ قد تم اكتشاف «Cartons» في مواقع أثرية جامدة نسبيًّا.. أصلها من مصر.

ويذهب «صن ويدونج» إلى أن عصر التكنولوجيا البرونزية مصدره الرئيسي مصر.. وقد دخل الصين من جهة الشمال الغربي، ومن خلال طريق الحرير.. عن طريق الهكسوس الذين قام المصريون بطردهم من مصر، ومطاردتهم في آسيا.

***

www.ibtesamah.com/vb

جاءت دراسات المؤرخ «سيما كيان» ثم العالم «صن ويدونج» في إطار بحث طويل خاضه آخرون في القرن ونصف القرن الأخير للإجابة عن سؤال الأصل والوجود: من أين أتى الشعب الصيني؟

وقد اجتهد آخرون في إجابات أخرى.. ولكن «الإجابة المصرية» حظيت باهتمام وانتشار واسع النطاق. وتوجد دراسات عديدة حول الهجرة المصرية إلى الصين في عصر الفراعنة.. حيث يشير مؤرخون إلى أن بعضًا منها كان من جهة الجنوب عند سواحل الصين.

ولا يُعَدّ ما يقوله «ويدونج» جديدًا.. لكنّ تفاصيل القوْل وحجم الصدى العالمي.. كان يحمل جديدًا بالطبع.. ذلك أن مفكرين وساسة في الصين سبق لهم القول بنظرية الوجود المصري في تأسيس حضارة الصين.

كان مؤسس الجمهورية في الصين «صن يات سين» يعتقد في أن نموّ الحضارة الصينية يمكن أن يكون بسبب المهاجرين إلى الصين من حضارة متقدمة للغاية. وقد جاءت دراسات «ويدونج» والمستندة إلى دراسات «سيما كيان».. لتحدّد تلك «الحضارة المتقدمة للغاية» بأنها الحضارة المصرية.

***

إن الحضارة الصينية حضارة عظيمة، والشعب الصيني شعب عريق.. والدولة الصينية لها تاريخ أسطوري ومجد تليد.. ولا يمكن أن يكون الحديث عن دورٍ للمصريين في تأسيس حضارة الصين - سواء عبر المصريين الذين هاجروا، أو «فلول الهكسوس» الذين هربوا بحضارتِنا إليهم - لا يمكن أن يكون تقليلًا من شأن الحضارة الصينية الكبرى، أو من إبداعات الشعب الصيني صاحب التاريخ العريق الممتد آلاف السنين.. ولكنّ هذه الدراسات

www.ibtesamah.com/vb

تؤكد حجم التمدُّد الحضاري المصري.. وحجم التعاون الحضاري التاريخي بين مصر والصين.

ولقد جاءت الكثير من ردود فعل الصينيين حول الأطروحات المذكورة.. متسامحة تمامًا. ولم تجد غضاضةً في قبول النظرية.. واحترام أسانيدها باعتبارها تتوافق مع قواعد التبادل والتأثير الثقافي والإبداعي في الحضارات القديمة.

* * *

لقد كانتْ الحضارة المصرية التي تمدّدت في تلك الأثناء من إيران إلى تونس.. ومن تركيا إلى إثيوبيا.. تملك القوة الناعمة الأكبر في كلّ التاريخ القديم.. وليس مدهشًا - والحال كذلك - أن توجد العلوم المصرية أو الآداب المصرية.. في كافة الحضارات القديمة.

www.ibtesamah.com/vb

مصر تحكم أيرلندا وتؤسس اسكتلندا..

الفراعنة في بريطانيا

«وَصَلَ المصريون الفراعنة إلى بريطانيا، واتّخذوا من مقاطعة يوركشاير مكانًا لنشر حضارتهم وثقافتهم». لم يحمِل ذلك النصّ من صحيفة «ديلي ميل» البريطانية جديدًا.. بل جاء تأكيدًا لما سبقَ نشرُه في العديد من الكتب والمراجع ذات الثقة والاحترام.

مثّل الوجود المصري في بريطانيا جانبًا آخر من جوانب التمدُّد الإمبراطوري لبلادنا.. لم يكن ذلك الجانب متعلّقًا بغزوٍ أو حربٍ.. كما لم يكن متعلّقًا بتأمين أو ضمّ.. بل كان تمددًا هادئًا ذا طبيعة خاصة.

يعود المؤرخ الاسكتلندي «والتر باور» في مخطوطته الشهيرة «Scotichronicon» – والتي كتبها في القرن الخامس عشر ويعتبرها كثيرون أهم سرد تاريخي لاسكتلندا في العصر القديم – بأصل ما جرى إلى ذلك الصراع الديني الذي نشأ في مصر بين كهنة آتون وكهنة آمون.. وهو الصراع الذي أدّى إلى سخط الأميرة الفرعونية «سكوتا».. ابنة الفرعون إخناتون والملكة نفرتيتي.. ثم قاد غضب الأميرة من ارتفاع حدّة الانقسام الديني.. إلى تخطيطها للمغادرة إلى أرضٍ جديدةٍ ونقل الحضارة المصرية إليها.

www.ibtesamah.com/vb

أمرتْ الملكة سكوتا بتجهيز أسطولٍ يضم عددًا من السفن الكبيرة.. للإبحار عبْر البحر المتوسط إلى أرضٍ جديدة.

غادر مع الملكة سكوتا عددٌ كبيرٌ من المصريين.. ووصلوا إلى إسبانيا.. ومنها إلى بريطانيا.. لبدء موجة حضارية خارج مصر.. بعد أن أدّى الصراع الديني إلى صعوبة الحياة والبناء في الدولة الفرعونية.

* * *

يذكر المؤرخ المصري الشهير مانيتون.. أن «الملكة سكوتا» قد تكون هي نفسها الملكة «عنخ إسن آمون» ابنة إخناتون ونفرتيتي وأرملة توت عنخ آمون.. وأنها تزوَّجت من وزير مصري أصبح فرعون مصر بعد توت عنخ آمون، واسمه «آي».. لكنه لم يمكث طويلًا بسبب صراع كهنة آتون وآمون.

غادرت الملكة سكوتا إلى إسبانيا ثم بريطانيا.. وغطَّت قصتها على التاريخ القديم لويلز وأيرلندا واسكتلندا.. وينقل الكاتب D.E.R Watt في كتابه «A History Book for Scots» عن «والتر باور» في مخطوطته.. أن كلمة «اسكتلندا» هي نسبة إلى الملكة «سكوتا»، وأن الملكة المصرية سكوتا هي «أم الاسكتلنديين».

وصلت الملكة ومن معها من المصريين إلى أيرلندا عبْر إسبانيا.. ثم إلى اسكتلندا.. حيث استقروا وبدأوا في بناء حياةٍ جديدةٍ. لكن «شعب البيكتس» الذي كان يقيم في اسكتلندا.. قام بالتضييق على الفراعنة القادمين، وتم إجبارهم على المغادرة إلى أيرلندا.

يذكر «والتر باور» أن الفراعنة بعد وصولهم أيرلندا من اسكتلندا.. قد شكَّلوا ما يمكن تسميتُه «الجالية الإسكوتية».. لكن أحفاد سكوتا من ملوك

www.ibtesamah.com/vb

اسكتلندا.. قد عادوا إليها وهزموا «شعب البيكتس».. وأعطوا اسكتلندا اسمها.. أمّا الملكة سكوتا فقد قُتِلت فيما قبل في معركة حربية من أجل أيرلندا.

***

لا يمكن إحصاء عدد البحوث والدراسات التاريخية والأثرية التي تشرح حقائق هذه القصة المثيرة... وهو ما جعلها من ثوابت تاريخ اسكتلندا القديم.. ولا توجد دراسات جادّة مضادّة.. يمكن النظر إليها باعتبار. ويمكننا الإشارة بين فيضٍ غزيرٍ من المؤلفات والدراسات إلى بعضٍ منها على النحو التالي:

تؤكد الأثرية البريطانية «لورين إيفانز» في كتابها «Kingdom of the Ark» أنَّ الأدلة الوراثية وعلم المصريات وكذلك الدراسات اللغوية.. تكشف بجلاءٍ عن الأصول المصرية القديمة للبريطانيين.

إن الأوروبيين أو «الرجال البيض».. كانوا معروفين تمامًا للمصريين الفراعنة.. وكانوا يأتون إلى مصر، كما كان المصريون يذهبون إلى مناطقهم.. وقد جرت الإشارة لهم في اللغة والآثار الفرعونية باعتبارهم جزءًا من الفضاء الحضاري المصري.

يذكر البروفيسور «إميل بروجش» أن كلمة «تام – هو» بمعنى الرجال البيض.. كانت معروفة منذ عام 2500 قبل الميلاد. ويذكر «جيمس بونويك» في كتابه «الاعتقاد المصري والفكر الحديث» أنّه من المحيّر العثور على جملة «الرجال البيض» في التاريخ القديم. وحسب العالم الفرنسي «شامبليون» الذي فكَّ رموز حجر رشيد فإن كلمة «تام – هو» الهيروغليفية تشير إلى الجنس الأبيض، ويذهب البروفيسور «تيودول ديفيريا» إلى أنَّ «حورس»

www.ibtesamah.com/vb

الرمز المصري الشهير موجود لقيادة وإرشاد الشعب الأبيض.. حيث كان الويلزيون والأيرلنديون في مصر في وقتٍ مّا.

اكتشفت بعثة «بارنسلي» الأثرية أن الآلهة المصرية «إيزيس» و«سيرابيس» قد تمّت عبادتهما في «يوركشاير» منذ ألفيْ عام.. عثرت البعثة على مومياء من الجبس في المنطقة ذاتها. ويقطع الأثري «جوان فليتشر» بأنَّهُ قد تمّ تحنيط المومياوات التي تمّ العثور عليها في يوركشاير بنفس الطريقة التي قام عليها التحنيط عند الفراعنة.

في عام 1955م وفي أثناء التنقيب في منطقة «وادي تارا» حيث موقع الملكيّة القديمة لأيرلندا.. اكتشَف عالم الآثار «سون ربوردان» بقايا هيكل عظمي ينتمي للعصر البرونزي.. يرتدي الهيكل العظمي قلادةً نادرةً من الخزف المصري الفرعوني.. والأرجح أن صاحبة الهيكل هي ملكة شابة تدعى «سكوتا».

وفي عام 1956م أكد الباحثان «جي ستون» و«لي توماس» أن خزف القلادة.. هو خزف مصري فرعوني.. في التصميم وفي أسلوب الصناعة.

إن الملك توت عنخ آمون الذي تم دفنه في نفس الفترة تقريبًا.. كان يرتدي قلادةً خزفيةً مشابهة لقلادة الهيكل العظمي الذي تم اكتشافه في وادي تارا.. وهو ما دعا الباحثان للتأكيد على فرعونية الملكة سكوتا.. ونقلها لتقاليد الحضارة المصرية في الموت والحياة.. من مصر إلى بريطانيا.. حيث وصلتْ وحكمتْ ورحلتْ.

***

لقد امتّد التأثير المصري إلى عصورٍ لاحقةٍ، ويذكر الباحثون أنه خلال القرن الثاني قبل الميلاد.. وَصَلَ بعض الفلاسفة المصريين إلى بريطانيا..

www.ibtesamah.com/vb

وعملوا مستشارين لملوك اسكتلندا.. كما أن كثيرًا من المستوطنات الرهبانية في اسكتلندا وأيرلندا والتي بُنيت في عصورٍ لاحقةٍ.. قد تأسّست طبقًا للنموذج المصري.

* * *

الحاصل إذن.. أنَّ الحضارة الفرعونية كانت حضارةً عالميةً.. وأنها امتدَّت – حضورًا أو تأثيرًا – من الصين إلى بريطانيا.

الحاصل أيضًا.. أنَّ معادلة القوة المصرية – البريطانية جرتْ كالتالي: هزمتْ مصر بريطانيا في حرب 1807م، وهزمتْ بريطانيا مصر في حرب 1882م. احتلّت بريطانيا مصر سبع سنوات، وحكمتْ مصر أيرلندا وويلز وأسّست اسكتلندا.. وكان ملوك بريطانيا من مصر لعقودٍ طويلةٍ.

* * *

إن هندسة الماضي.. وإعادة تقديم التاريخ.. لا تعني رواية ما لم يحدثْ، ولا خلق ما لم يوجدْ.. وإنّما الإضاءة الكثيفة والدائمة على الحقائق الحضارية المصرية.. ليس فقط من أجل سحق أكاذيب عصر الاستعمار ومجابهة أساطير الحرب النفسية، وإنما أيضًا – ليعرف العالم المعاصر.. أنه ليس العالم الوحيد.. وأنَّ التاريخ لا يمكن أن يكون قطعةً من السهو.. أوْ مساحةً من النسيان!

www.ibtesamah.com/vb

الجزء الثاني من الحضارة المصرية

يقول الجهلاء: إنَّ الشعب المصري لم يواجِه أشكال الاستعمار المتعاقبة.. وأن ما حدث ببساطة.. هو أنَّ كل استعمار جديد كان يطرد الاستعمار القديم دون أن يتدخل المصريون.. وكأنَّ الأمر لا يعنيهم.

لا يعلم الكثيرون أن الحقبة الأخيرة من العصر الفرعوني قد شهدت حلَّ الجيش المصري، وأصبحتْ مصر بلا جيش منذ ذلك العهد. كان أساسُ الحل.. ذلك الغرور والاستعلاء الذي أصاب قادة مصر في تلك الحقبة.. حيث رأى فرعون مصر - كما سبقَ ذكره - أن الشعب المصري.. أعظم وأقيم من أن يكون محاربًا، وأن مهمة القتال ينبغي أن يعهد بها المصريون إلى الشعوب الأدنى.

لقد تعاملت مصر وقتها كما تتعامل الولايات المتحدة الآن.. حيث اعتمد المصريون على المرتزقة للدفاع عنهم. والفارق الرئيسي بين فراعنة مصر وحكام واشنطن.. أن الجيش الأمريكي يعتمد على المرتزقة بدرجة هامشية، وفي مهمات محددة، وتحت مسميَّات لائقة. لكن بناء الجيش الأمريكي بضباط وجنود أمريكيين هو الأصل، أمّا فراعنة مصر المتأخرين فقد قاموا بحلّ الجيش المصري تمامًا، وأصبح كل الجيش من الأجانب المرتزقة.

www.ibtesamah.com/vb

في الولايات المتحدة عملتْ «شركة بلاك ووتر» على تجنيد المرتزقة للدفاع عن الولايات المتحدة.. وفي مصر الفرعونية الأخيرة كانت «شركة بلاك ووتر» الفرعونية هي كلُّ الجيش.

***

لقد أصبحتْ مصر منذ ذلك الحين دولةً بلا جيش، لذا كان طبيعيًّا أن يكون صراع الرومان والفرس والعرب على مصر صراعًا ثنائيًّا دون أن يكون المصريون طرفًا ثالثًا.. ذلك أن جيشيْن أجنبييْن يتصارعان في بلدٍ بلا جيش.

إن الذين يسخرون من مصر في هذه الأثناء ويهينون الدولة والشعب ويحتقرون تاريخنا في هذه الحقبة.. لم يكلفوا أنفسهم لحظة واحدة كي يفهموا.. لماذا حدث هذا؟

بل راحَ هؤلاء يفسِّرون ذلك بصفاتٍ ألصقوها بالمصريين.. فأصبح المصريون في نظرهم جبناء وراضين وراضخين.. لا همَّة ولا كرامة ولا ثورة..!

***

تجيء المرحلة التالية.. لقد جاء العرب إلى مصر ولم يقم المصريون بالثورة ضد العرب المسلمين القادمين من الجزيرة العربية.. ويفسِّر جهلاء آخرون ذلك القبول بالفاتحين.. بالجبن والانبطاح والتضحية بحضارة عظيمة مجيدة.. تحت أقدام الخيول العربية.

***

لم يرَ المصريون في الفتح العربي لمصر استعمارًا للبلاد، ذلك أنه لم يكن دخولًا بالسلاح.. وإنما كان دخولًا برسالةٍ تسبِق السلاح.. كان السلاحُ موجهًا للرومان.. وكانتْ الرسالة موجَّهة إلى المصريين.

www.ibtesamah.com/vb

لقد بدَا الفتح العربي لمصر.. بمثابة إهداء حضاري عظيم لبلد يعرف قيمة الكلمة ومقام الحِكمة، قام العرب بتخليص المصريين من الرومان، فكان السلاح الإسلامي صديقًا لا عدوًّا.. ثم قام العرب بإبلاغ المصريين رسالةً سمحةً عذبةً.. تضيء طرقات الدنيا وتُنير طريق الآخرة.. وأدرك المصريون أنهم إزاء بداية جديدة.. بداية الجزء الثاني من الحضارة المصرية.

* * *

لم يكن للجزء الأول في الحضارة المصرية مثيل.. ولا منافس. كانت كل حضارات العالم أقلَّ من حضارة المصريين.. وكان كل تاريخ العالم أقلَّ من تاريخ المصريين.. وكانت كل جغرافيا العالم أقلَّ من جغرافيا المصريين.

لقد انتهى ذلك الجزء المجيد المتفرِّد.. وأصبح على المصريين في الجزء الثاني من حضارتهم أن يقبلوا وجود حضارات أخرى منافسة أو غالبة.. وأن يشاركهم في وظيفتهم الحضارية الجديدة شركاء الدين الجديد.. ذلك أن دين المصريين انتقل من حدود المعابد إلى رحاب السماوات.

وهكذا لم يجد المصريون في العرب المسلمين غزاةً ولا محتلين.. وإنما طليعة تجديد حضاري.. أو أداة تنبيه لمعالم عصرٍ جديد.

كان دخول الإسلام إلى مصر بمثابة «عودة الروح» لحضارة منهَكة.. وأصبح المسلمون القادمون.. حلفاء حضاريين بمقولاتٍ جديدةٍ.

لم يكن سكونُ المصريين إزاء المجدِّدين العرب.. سكونَ الجبان والخائف والمستسلم الذي لا حيلةَ له.. بل سكون من يستعد لقيادة الحضارة الإسلامية الجديدة، وقيادة القادمين أنفسهم في المعارك العالمية الكبرى.. التي خاضتها الحضارة العربية الإسلامية في «حطين» و«عين جالوت» بقيادة مصر.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

لم تكن الدولة الطولونية ولا الإخشيدية ولا الأيوبية ولا عصر المماليك.. نموذجًا للحكم الأجنبي لمصر.. كان حكَّام تلك الأسر ذوي أصول غير مصرية.. لكنّهم باتوا جميعًا من المصريين. لقد استوعبتهُم مصر استيعابَ دولةٍ كبرى تعطي جنسيتها.. لمن يضيفُ أو يفيدُ دون وجَلٍ أو خوفٍ.. فأصبحتْ الدولة الطولونية المصرية والدولة الإخشيدية المصرية.. مراحل في الجزء الثاني من الحضارة المصرية.

وإذا كان البعض مندهشًا من تلك الرؤية.. فما على هذا البعض إلا أن يبحث في جنسية ملكة بريطانيا الحالية، أو ملوك السويد والدنمارك وإسبانيا الحاليين.. لقد خاضتْ بريطانيا الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا.. وكانت ملكة بريطانيا ألمانية من أب ألماني.. كما كان زعيم ألمانيا نمساويًّا من أب نمساوي!

***

لقد واصلتْ بلادُنا ما انقطعَ من حضارتها.. تعدّل موقعُها من «القيادة الحضارية المطلقة» إلى «القيادة الحضارية المشتركة».

واليوم فإنَّ الحضارة المصرية تساوي: «حاصل جمع» الجزء الأول من الحضارة مع الجزء الثاني منها.. الحضارة الفرعونية والحضارة الإسلامية وما بينهما. ومن غير الصحيح وصف الوجود العربي الإسلامي في مصر بالغزو الذي قطع طريق الحضارة.. بل إنه «التجديد الحضاري».. الذي ساعدَ في تعظيم طبقات الحضارة المصرية.. وصيانتِها.. ثم انطلاقِها.

إنها الجزء الثاني من الحضارة المصريّة.

www.ibtesamah.com/vb

العصور الوسطى المصرية..
القاهرة تهزِم القوتيْن العظميين

في العصور الوسطى المصرية.. كانت محافظة «غازي عنتاب» التركية ضمن مناطق تركية واسعة تقع تحت السيادة المصرية. كانت الإمبراطورية المصرية قبل الغزو العثماني تمتدّ لتشمل الحجاز وبلاد الشام.. وصولًا إلى قلب تركيا.

لم يكن العصر المملوكي المصري على نحو ما تذهب كتابات عربية عديدة.. رمزًا للصراع والتخلف.. بل كان عصرًا مجيدًا.. انتصرت فيه مصر على القوتين العظميَيْن في العالم.. القوة العظمى في الشرق (التتار) والقوة العظمى في الغرب (الصليبيين).

كانت مصر.. هي القوة العظمى الإسلاميّة، وكان لقب قادتها «حماة الإسلام والمسلمين».. كما كان لقب العديد من سلاطينها «خادم الحرمين الشريفين».

لقد قام العثمانيون بتزييف التاريخ.. سرقَ سليم الأول لقب «خادم الحرمين الشريفين».. كما زعمَ أنصار الدولة العثمانية أن بلاد الحرمين كانت في خطر، وأن الأمّة كانت على وشك النهاية.. ولولا الدولة العثمانية لاندثر الإسلام والمسلمون.. وتمّت سرقة شعار «حماة الإسلام والمسلمين» من الإمبراطورية المصرية.. للإمبراطورية العثمانية!

www.ibtesamah.com/vb

لـم يكن ذلك صحيحًـا.. حيث إن الإمبراطوريـة المصرية هي التي قامت بحماية الإسـلام والمسـلمين.. وهزمـتْ التتار والصليبيين.. وأنقذتْ الدين والدنيـا فـي معارك عديـدة.. كانت أبرزها عيـن جالوت وحطّيـن. أمّا الدولة العثمانية والتي تلقَّت العديد من رسائل الاستغاثة من المسلمين في الأندلس.. فاتَّجهـت إلى مصر لاحتلال دولةٍ مسـلمةٍ، بدلًا من الاتجاه إلى أوروبا لإنقاذ أمّةٍ مسلمةٍ!

* * *

كانـت دولـة المسـلمين فـي الأندلـس تواجـه تحديـات وجوديّـة، وكان المسلمون يواجهون خيارًا شاقًّا.. بين مغادرة العقيدة أو مغادرة الحياة.

يـروي المؤرخـون: قـام الإسـبان بسـدٍّ مضيق جبل طـارق حتـى لا يأتي الدعم من شـمال إفريقيا.. فكان أن طلب المسـلمون في الأندلس النجدة من العثمانيين. وصل وفدٌ من الأندلس إلى اسـتانبول.. وسـلّم السلطان العثماني بايزيد الثاني رسـالة اسـتغاثة من مسـلمي الأندلس.. امتلأت الرسـالة بمديحٍ غيـر مسـبوقٍ.. ورجـاءٍ غير محـدود.. ولكنها لـم تجِد الصـدى الكافي لدى السلطان.

يقـول أنصـار العثمانية: إن الدولـة العثمانية كانـت تمرّ بظروفٍ قاسـيةٍ.. مـن هجـوم الصفويين علـى عاصمة الدولـة العثمانية والحرب مـع مصر. لم يكـن ذلك دقيقًـا.. ذلك أن النظـام المملوكي في مصر كان نظامًا سـنيًّا، وهو النظام الذي سـحقَ أعداء الإسـلام شـرقًا وغربًا.. ولم تبدأ مصر بالمعركة مع العثمانيين، ولكن العثمانيين الذين لم يملكوا رسـالةً فكريةً أو حضاريةً.. ولم يكن لديهم سـوى طموحات عسكرية توسعية.. هم الذين قرَّروا الاشتباك مع

www.ibtesamah.com/vb

مصـر.. بدلًا مـن التحالف معها فـي مواجهة الصفوييـن، أو التعاون معها في إطار الأُخوَّة الإسلامية.

لـم يذهـب العثمانيـون لإنقـاذ المسـلمين فـي الأندلـس.. وإنمـا ذهبـوا لإثـارة حرب إسـلامية - إسـلامية.. انتهتْ بهزيمـة الجيش الذي هـزمَ التتار والصليبيين.. واحتلال الدولة التي حمتْ الإسلام والمسلمين!

ولمّـا جـاء السـلطان سـليم الأول ابـن بايزيـد الأول ابن محمـد الفاتح.. انحـرفَ بالفتوحات الإسـلامية من أوروبا إلى الشـرق الإسـلامي.. ورسَّـخ مأسـاة «الفتح الإسـلامي لبلاد المسـلمين».. ولم يكن لمشـهد إعدام الزعيم المصري «طومان باي» وهو يردِّد الشـهادتيْن ويتلو القرآن، ومن حوله جموع المصرييـن يتلُون ويدعون.. أيّ أثرٍ في قلب «السـلطان المسـلم».. الذي أمر بتعليق جثمان صاحب الشهادتيْن على باب زويلة ثلاثة أيام!

* * *

امتـدَّت الإمبراطورية المصرية في العهـد المملوكي من عام 1250 وحتى عـام 1517م. بدأتْ بعد سـقوط النظام الأيوبي.. مع السـلطان عز الدين أيبك وانتهـتْ مـع الغزو العثمانـي لمصر عقب معـارك مرج دابـق والريدانية.. مع السلطان طومان باي.

كانـت الإمبراطوريـة المصريـة قـوة كبـرى، وكان قادتها يقومـون بتعيين الخليفـة العباسـي الـذي كان رمـزًا دينيًّـا مقـرّه القاهـرة. كان أول الخلفـاء العباسيين في القاهرة.. بعد سقوط بغداد «أحمد المستنصر بالله»، وكان آخر الخلفـاء «محمد المتوكل على الله».. والـذي انتهتْ خلافته بعد هزيمة مصر أمام العثمانيين.

www.ibtesamah.com/vb

كانت الأمة الإسلامية في طريقها للنهاية بعد سقوط بغداد ومقتل آخر الخلفاء العباسيين «المستعصم بالله» على يد هولاكو.. وبعد أن سارَ التتار لغزو الشام.. وهدَّدوا القاهرة بأن تكون بغداد جديدة.. ولولا الدولة المصرية وقادتها الكبار سيف الدين قطز والظاهر بيبرس.. لوضعَ التتار نقطة نهاية المسلمين.

قامت القاهرة بتمديد «الخلافة العباسية» في القاهرة.. فيما يسمّى بالعصر العباسي الثالث.. كما قامتْ بإعلان الحرب على التتار.. وبعد معارك وبطولات أسطورية.. قضَى المصريون على التتار.. وأنقذُوا العالم الإسلامي في حرب عام 1260م.

ثم واصلت مصر في العهد المملوكي ما بدأته من معارك تحرير العالم الإسلامي من الصليبيين.. وبعد (194) سنة من الحرب.. نجحتْ مصر في هزيمة ما بقي من الصليبيين في عام 1291م.

في خلال أربعة عقود.. كانت مصر في العهد المملوكي قد أنهتْ تمامًا التتار والصليبيين.. وكانت المسافة الفاصلة بين خروج آخر جندي من التتار وآخر جندي من الصليبيين.. هي واحد وثلاثون عامًا!

***

لم يكن المماليك من الأتراك.. لم يكنْ لهم وطنٌ آخر، بل كانوا جميعًا - وإن اختلطت أصولهم - مصريين. كانوا جميعًا مصريين في اللهجة والثقافة والحياة.. ثم إنَّهم جميعًا بنوا المعالم الحضارية والإسلامية.. وروائع العمارة المملوكية في وطنهم الوحيد وبلدهم الذي يقاتلون لأجله.. كانوا جميعًا - بأخطائهم وبطولاتهم - مقاتلين عِظام.. انتماؤهم الوحيد للدولة المصرية.

***

www.ibtesamah.com/vb

يـرى المؤرخـون أن من بين أسـباب هزيمة مصر أمـام العثمانيين في عهد طومان باي.. هو اعتزاز المماليك بالفروسية، واحتقارهم لاستخدام الأسلحة النارية والبنادق.. التي رأوْا في استخدامها جُبنًا لا يليق بالأبطال.. وحين وقعَ طومان باي في الأسر بعد أدائه الأسطوري في ميدان الحرب.. قالَ مخاطبًا سليم الأول: «إن الأنفُس التي تربّت في العزّ لا تقبل الذل، لستُم بأفرسَ منا، ولا أشجع.. وليس في جندِك من يقايشني في حوْمة الوغَى». وقد دخل المماليك التاريخ من باب الجسارة والبطولة.. وقد اتخذ الجيش الأمريكي «السيف المملوكي» شعارًا لمشاة البحرية (المارينز).

* * *

لم يكن الجيش المصري من المماليك ذوي الأصول غير المصرية.. ولكن المماليك كانوا فصائل ضمن الجيش المصري، ولم يكن هناك أيّ تمييز بين المصريين ذوي الأصول غير المصرية وبين ذوي الأصول المصرية.. وكان المؤرخون الأوروبيون يطلقون على الجيش المصري وصف «المصريين» و«الجيش المصري».. ولكنْ الاستعمار البريطاني وعملاؤه.. ثم بعض الكتابات العربية الركيكة.. حاولوا أن يفرقوا بين المماليك والمصريين.. واعتبار أن المماليك غير مصريين.

لم ينجح الاستعمار البريطاني وعملاؤه، كما لم تنجح الكتابات الحاقدة على الدولة المصرية.. في نزع المصريّة من المماليك.. أو إدخالهم التاريخ باعتبارهم غير مصريين.

* * *

انتعشَ الاقتصاد المصري في العصر المملوكي.. كانت مصر دولةً غنيّةً.. كما كانت القاهرة أكبر مدينة في العالم في العصور الوسطى.. وحين زارها

www.ibtesamah.com/vb

الرحالـة «ابـن بطوطة» عام 1324م في زمن السـلطان «الناصر محمد» قال في وصف القاهرة: «هي أم البلاد.. المتناهية في كثرة العمارة، المتباهية بالحُسن والنضارة». كما كان المصريون سعداء وينعمون بالرخاء.. يقول «ابن بطوطة»: «المصريون ذوو طربٍ وسرور».

انتعشـت المعالـم الحضاريـة المصريـة.. من المسـاجد والمـدارس إلى المنازل والقلاع.. ويُعدُّ جامع السـلطان حسـن الـذي زاره الرئيس الأمريكي بـاراك أوباما عـام 2009م من روائع العمارة الإسـلامية فـي العالـم.. ويذهب المستشـرق «جاسـتون فييـت» إلى أن مسـتوى العمـارة المصرية فـي العصر المملوكي يليق بالمستوى التاريخي للحضارة المصرية الفرعونية. وقد اشتهر من المماليك مواليد مصر عدد كبير من المثقفين والمؤرخين.

***

لقد تدهور النظام المملوكي في مصر تدهورًا شديدًا في السنوات الأخيرة.. وكان لابَّد لحركة التاريخ أن تضعَ نقطة نهاية سـطرٍ ليبدأ سـطرٌ جديد. ولسوء حـظ المماليك أنهم دخلوا في خصومة مع محمد علي باشـا، فجرى الانتقام مـن تاريخهم.. ثمَّ إنَّ الانتقام تواصلَ فـي عهد الرئيس عبد الناصر ومكونات الفكر السياسي لثورة يوليو.

www.ibtesamah.com/vb

الزعيم المصري محمد علي باشا..
أو الملكة الألمانية إليزابيث الثانية

حين زرتُ دولة كوسوفو في منطقة البلقان.. كان الاستقبال حافلًا لأنني قادمٌ من مصر.. يحب الشعب الألباني مصر أكثر من أي بلدٍ آخر.. وتغنّي الأم لصغارها: « أنهم سيكبرون وسيكونون في وضع جيد.. وسيزورون مصر».

لقد جاء محمد علي باشا إلى مصر.. ضمن حلم كل الألبان بزيارة الدولة الأكثر جاذبية لدى العامة من الألبانيين. لم تكن إقامة محمد علي في مصر.. مجرد انتقال في أداء الخدمة والوظيفة.. وإنما كان الحظّ العظيم الذي قاد الضابط الألباني إلى حلم الأحلام.. وغاية الأمل.

* * *

يقوم مفهوم الانتماء في العالم الحديث على أساس «الجنسية»، أي بطاقة الهوية أو جواز السفر، فالترشيح للوظائف وتولي المناصب وأداء الخدمة العسكرية وسائر شئون الحياة.. يقوم على أساس الجنسية التي ينتمي إليها المواطن.

وفي القوانين الأوروبية والأمريكية يتم منح الجنسية للأشخاص بمجرد تواجدهم بضع سنوات على أرض البلد.. ويكفي للحصول على الجنسية البريطانية أن يقيم أيُّ فرد خمس سنوات على الأراضي البريطانية، وبمجرد الحصول على الجنسية يصبح المقيم مواطنًا تامًّا.

www.ibtesamah.com/vb

وفي حالة محمد علي باشا أحد أعظم الحكام المصريين من ذوي الأصول الأجنبية، فقد كان الرجل مصريًّا بموجب قوانين الجنسية في العالم الحديث، فلقد مكثَ في مصر أكثر من خمس سنوات قبل أن يصل إلى السلطة.. أيْ أنه أقام ما يكفي لمنحه الجنسية المصرية قبل أن يصبح حاكمًا للبلاد، وبنهاية حكمه يكون محمد علي باشا قد أقام في مصر نصف قرن متصل غير منقوص، أي ليس مجرد شخص حصل على جواز سفر جديد.. بل هو مواطن مصري قضَى في الحياة العامة في وطنه الجديد ما يزيد على الخمسين عامًا.

***

إن الزعيم الفرنسي نابليون بونابرت هو «دفعة» محمد علي باشا.. كلاهما ولد في عام 1769م، ولد محمد علي في ألبانيا، وولد نابليون لعائلة إيطالية من «جنوة» أقامت في جزيرة كورسيكا. لم تكن جزيرة كورسيكا في ذلك الوقت منطقة فرنسية، بل ضمتها فرنسا إلى أراضيها قبيل مولد نابليون بونابرت بأشهر قليلة، ولو تقدَّم مولد نابليون عامًا واحدًا لما حصل نابليون على الجنسية الفرنسية.. ولكان من مواليد وطنٍ آخر غير فرنسا.

وحتى اليوم فإن الحركة الانفصالية في كورسيكا لا تعتبر كورسيكا جزءًا من فرنسا.. وحين حَضَرَ الرئيس الفرنسي جاك شيراك مباراة لكرة القدم.. قامْ مشجعو الفريق الكورسيكي بإهانة النشيد الفرنسي بالتصفير والتوبيخ.. وهو ما أثار غضب شيراك الذي اعتبرَ ذلك عملًا موجهًا ضدّ الوطن الفرنسي.

إنَّ نسبة نابليون إلى فرنسا كنسبة محمد علي إلى مصر، هذا من مواليد جزيرة لم تكن فرنسية، وذاك من مواليد مدينة لم تكن مصرية، وكلا الرجلين قاد وطنه الجديد إلى المجد.

www.ibtesamah.com/vb

إن أدولف هتلر مواطن نمساوي من مواليد النمسا ضمن الإمبراطورية النمساوية المجرية.. ولم يتحدث أحد عن نمساوية هتلر الذي لم يكن مواطنًا ألمانيًّا حتى عام 1932م.. لقد عاش محمد علي باشا في مصر خمس سنوات قبل السلطة، وعاش هتلر كمواطن ألماني عامًا واحدًا قبل قيادته ألمانيا إلى القمة ثم إلى الهاوية.. يتحدَّث العالم عن عصر الزعيم الألماني وليس الزعيم النمساوي أودلف هتلر.

***

إنَّ القيصرة «كاترين الكبرى» قيصرة روسيا كانت ألمانيّة.. كما أنَّ العائلة المالكة السويدية من أصول فرنسية.. تنحدر من ضابط عيّنه نابليون حاكمًا على السويد.. ومع هذا فإن أحدًا لا يقول عن الملك كارل جوستاف وهو يمنح جوائز نوبل.. إنه ملك فرنسي!

إنَّ العائلة المالكة البلجيكية من أصل هولندي، والعائلة المالكة في موناكو من أصل إيطالي، والعائلة المالكة النرويجية من أصل دنماركي، والملكة صوفيا الإسبانية من أصل يوناني، وأما العائلة المالكة البريطانية فهي كلها من أصل ألماني قريب.

تكمن المفارقة البريطانية في أن عائلة الملكة إليزابيث هي عائلة «ساكس ـ كوبرغ ـ غوتا» الألمانية، وهي تنتسب إلى الأمير الألماني «ألبرت» زوج الملكة فيكتوريا، وفي الحرب العالمية الثانية كانت بريطانيا تحارب ألمانيا، وقد غيّرت العائلة المالكة البريطانية اسمها أثناء الحرب.. من الاسم الألماني إلى اسم بريطاني هو «وندسور»، أما ولي العهد البريطاني الأمير تشارلز فهو

www.ibtesamah.com/vb

ينتسب لأمٍ من أصل ألماني هي الملكة إليزابيث وأبٍ يوناني هو الأمير فيليب.

* * *

حاول عملاء الاستعمار قلب المعادلة.. والنيْل فقط من التاريخ المصري.. إنّ المعادلة هي: إمّا أن تكون الملكة الألمانية إليزابيث الثانية أوْ أن يكون الزعيم المصري محمد علي باشا؟.. هذه سطورٌ إضافيةٌ في التأصيل العلمي لوطنيّة كافة القادة المصريين ذوي الأصول غيْر المصرية.

www.ibtesamah.com/vb

محمد علي باشا والمماليك..
في مديح انقلاب عظيم

جاءَ نابليون.. اختفَى المماليك.

لم يكن الجيل الأخير من المماليك الذين يحكُمونَ مصر.. جيلًا مسئولًا يعرف ماذا يحكم.. ومنْ يحكم. بل كان جيلًا محدودًا.. لا يعرف في السياسة إلّا القتل والخيانة، ولا يعرف في الاقتصاد غيْر السَّلب والنَّهب.. كما أنَّه لا يعرف من العلاقات الدولية.. إلّا العمالة للقوة الأجنبية، والاتصال بعواصم أوروبا الاستعمارية.

لم يكن هذا الجيل امتدادًا للدولة المصرية المملوكية المجيدة.. التي شهدت قادة عظامًا وأبطالًا كبارًا.

لا نقولُ بأنَّ هؤلاء المماليك كانوا أجانبَ يجب طردهم.. بل كانوا مواطنين مصريين.. هم مصريون من أصول أجنبية، لا يعرفون غير هذه الأرض ولا ينتمون لغير هذا الوطن. ولكنَّ الجيل الأخير.. كان جيلًا مصريًّا فاسدًا وجاهلًا.. كما كان عنصريًّا ومجرمًا.. لم يكن يليقُ ببلادنا أن يبقى هذا النظام في سدّة الحكم أو دوائر النفوذ.. كان لابُدَّ من إسقاط النظام.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

كان هؤلاء المماليك جيلًا رديئًا من غير الأسوياء.. ملأوا مصر فسادًا وذعرًا.. وجعلوا من الدلتا والصعيد مكانًا للخوف والفقر. وحين جاءت الحملة الفرنسية.. توارى المماليك كالفئران.. واختفوا في جحورهم، ولمّا غادر الفرنسيون عادوا لإرهاب المجتمع وترويع الشعب.

وأصبحت السلطة المصرية بعد نابليون مزيجًا من حاكمٍ فاشلٍ هو «خورشيد باشا»، ونخبةٍ فاشلةٍ هم الأمراء المماليك ورجالهم المجرمين.

دخلتْ مصر على أيدي المماليك المتأخرين مرحلة الانهيار.. وأوشكت الدولة على السقوط التام.. إلى أنْ قررت النخبة الوطنية بزعامة عمر مكرم اختيار محمد علي باشا حاكمًا على مصر. كان ذلك بمثابة الانقلاب السلمي على خورشيد باشا.. وإعطاء مصر مساحةً جديدة من الأمل.

ولمّا جاء محمد علي.. وقفَ الإنجليز والفرنسيون والأتراك ضد احتمالات «عودة مصر» من جديد.. وراحَ عملاء المماليك يعملون لصالح القوى الثلاث ولصالح أنفسهم لقتل كل احتمالات المستقبل.

أدارَ محمد علي سياسةً واسعةً من المفاوضات والاتفاقات.. لكنها كانت - جميعُها - تنهار في وقت قليل، ولم يصمُد اتفاقٌ واحدٌ مع أيٍّ من المماليك.. هي أيام أو أسابيع ثم ينقلب المماليك على أعقابهم خائنين.

لم يكن أمام محمد علي باشا إلّا السلاح.. ولكن العدد والسلاح كان مع المماليك.. لذلك كانت استراتيجية «الحرب خدعة»، وتعويض السلاح بالسياسة.. هي الأنسب في إدارة الصراع.

***

www.ibtesamah.com/vb

كان الصراع بين محمد علي والمماليك صراعًا عسكريًّا مسلحًا، معارك عديدة.. واحدة تلو الأخرى. ولم تكن «مذبحة القلعة» سوى المعركة الأخيرة في الحرب ضد المماليك.

إن حرب محمد علي مع المماليك تشكّلت من عدة معارك.. انتصر في بعضها وخسِر في بعضها الآخر، وكانت «معركة القلعة – مذبحة القلعة» هي المعركة الفاصلة التي أنهتْ الحرب بالنصر التام.. وزوال المماليك.

لقد كتبتُ في السابق أصِف ما حدث بأنها «مذبحة رائعة».. وقد دخلتُ نقاشًا طويلًا على صفحات الجرائد بهذا الشأن مع الكاتبة صافيناز كاظم وغيرها.. واليوم أجدُني غير راضٍ عن وصف «المذبحة الرائعة».. وأرى «معركة القلعة».. جزءًا من حربٍ سبقتْ معاركها في شمال البلاد وجنوبها.. أو أنها أشبه بانقلاب عسكري على مجموعات عسكرية متصارعة.

إنها نصف معركة ونصف انقلاب.. أو هي انقلاب عسكري تضمَّن معركة.. كانت نتائجُها هي الأخرى ألف قتيل!

***

كان ذلك الانقلاب له خصوصيَّته.. فهو انقلاب سلطة الدولة على سلطة الميليشيات.. «انقلابٌ بلا جيش». إنّه الانقلاب الذي أسَّس الجيش.. الانقلاب الذي أنهى عصر العصابات المسلحة.. ليبدأ عصر «الجيش الوطني المصري الحديث».

كان «الانقلاب – المعركة».. محكمًا تمامًا.. حيث سالتْ كل الدماء في جانب العدو وحده.. ولم يستغرق الانقلاب وتداعياته سوى ثلاثة أيام.. لتبدأ رحلة تأسيس مصر الحديثة.. بعد أن تمّ إلغاء الماضي في ساعات.

www.ibtesamah.com/vb

لم تكن معركة القلعة.. خديعةً إنسانيةً لأناس أبرياء، بل كانت معركة عسكرية جاءت في أعلى منحنى الصراع على السلطة. لم يكن في معركة القلعة نساءٌ ولا أطفال.. ولم يُقتل فيها مدني واحد.. بل كان كل المماليك من قادة الميليشيات وأمراء الحرب.

كان انقلاب «محمد علي» على المماليك.. النقطة الفاصلة بين التقدم والتخلف، بين المعرفة والجهل.. بين فلاسفة النهضة وزعماء الجريمة.. إنَّها اللحظة الفارقة بين العصور الوسطى والعصور الحديثة.

كان ذلك الانقلاب وما تلاه من بناء ونهضة أسطورية.. نموذجًا مذهِلًا في الهندسة السياسية.

www.ibtesamah.com/vb

حرب 1807م.. مصر تهزم بريطانيا

لماذا لا تحتفل مصر بانتصارات حرب 1807م على بريطانيا.. مثلما تحتفل بانتصارات حرب 1973م على إسرائيل؟!

لماذا لا يتم الاحتفال بذكرى معارك حرب 1807م.. معركة رشيد في 21 مارس، ومعركة الحمّاد في 21 أبريل من كل عام؟!

لقد خاضتْ مصر حربًا مجيدةً في مواجهة الجيش البريطاني الذي جاء لغزو مصر.. فكانَ أن لقيَ هزيمةً ساحقةً.. كان أقصَى ما حصلَ عليه في مفاوضات الهزيمة وبموجب «معاهدة دمنهور».. أخذَ الجرحى والأسرى.. والمغادرة!

* * *

إنها قصةٌ مجيدةٌ.. لمْ تتمَّ روايتُها بالشكلِ المناسب. يختزل البعضُ الحربَ في كلمة «حملة».. وكل ما يجري الإشارة إليه هو «صمود مدينة رشيد أمام حملة فريزر».. ضمن عبارةٍ مدرسيّةٍ عامّةٍ.. لا تكشف حقائق الحرب وحقائق المجد.

* * *

تبدأ قصة الحرب.. بقيام بريطانيا – ضمن صراعاتٍ ومنافساتٍ دولية – بإرسال جيشٍ إلى مصر لاحتلالها. ووضعتْ في قيادة ذلك الجيش الجنرال «ألكسندر ماكنزي فريزر».

www.ibtesamah.com/vb

تشكَّل الجيش البريطاني من فرقتيْن من (25) سفينة عسكرية و(7) آلاف جندي.. وقد قام الجنرال «ستوارت» بقيادة الفرقة الأولى، والجنرال «ويكوب» بقيادة الفرقة الثانية.. وبرزتْ في المعارك أسماء كبار الضباط الإنجليز: «ويكوب» و«ماكلود» و«وجسلند» و«تارلتون» و«مور»... وآخرين.

جاء الجيش البريطاني مغرورًا وخرج مهزومًا.. مئات القتلى والجرحى.. تمّت إهانة الجيش بكل قادته.. قُتِل «ماكلود» وأُسِر «مور» و«وجسلند».. وعاد الجيش المهزوم إلى بريطانيا مجلّلًا بالعار.

***

بدأ الجيش البريطاني بالإنزال في الإسكندرية.. ونتيجة خيانة محافظ الإسكندرية تم احتلالها.. ثم اتجهت الأنظار إلى رشيد.: ضمن خطّة كانت تقوم على احتلال بريطانيا السواحل والموانئ، واستيلاء «الطابور الخامس المملوكي» بزعامة محمد بك الألفي على القاهرة.. ثم اقتسام السلطة بينهما.

كانت الصدمة في رشيد.. ثم في قرية الحمّاد مركز رشيد محافظة البحيرة.. حيث دارت اثنتان من كبريات المعارك في حرب 1807م.. وانتصرت مصر وانهزمت بريطانيا.

في معركة رشيد.. جرى إعداد خطّةٍ بارعةٍ.. اعتمدت على قوة الدهاء وقوة الإيمان، وسيادة الوطنية المصرية.. جرى إبعاد كل المراكب عن شواطئ رشيد.. حتى لا يفكر أحدٌ في الهرب أو المغادرة.. فلا يكونُ أمام الجميع إلّا المقاومة والانتصار. وقامَ الجنود والمواطنون بالعمل معًا في خطةٍ واحدةٍ تقوم على إخلاء المدينة.. حتى يدخل الإنجليز.. ثمّ رفع الأذان لإعلان بدء القتال.. ثم الانطلاق من كل مباني المدينة الباسلة لإغراق جنود الاحتلال بكل ما يملكون من أدوات القتال.

www.ibtesamah.com/vb

قـام الجيش البريطاني باسـتخدام السـلاح دون أيّـة قيود أخلاقيـة.. لكنّه فشـل فـي تحقيـق أيّ انتصـار.. حيث نجـح المصريون فـي إلحـاق الهزيمة التامّة بالجيش البريطاني.. وكان الانسـحاب بعد الكثير من القتلى والجرحى والأسرى.

***

فـي القاهـرة كان محمـد علـي باشـا الـذي تولّى السـلطة قبـل عامين من الحـرب.. قد عاد مـن الصعيد حيث معاركُه ضد «فلـول المماليك».. وأدرك بعـد الانتصـار المصري في رشـيد أنَّ الإنجليـز لن يغادروا وأنهم سـيعودون للحرب من جديد.

قام محمد علي بإعداد العاصمـة للمقاومة.. ووضع خططًا بارعةً لإغراق الأسـطول الإنجليـزي وحماية القاهرة.. ثم أرسـل جيشًـا إلى رشـيد لملاقاة الإنجليز ودعم المدينة الباسـلة.. وكذلك تحرير الإسكندرية. وكانت معركة الحمّـاد واحـدة من المعـارك المجيـدة في تاريـخ مصر.. حيث اسـتخدمت بريطانيا كل قوتها.. وأمطرت مدينة رشـيد بالقنابل، ونصبَت المدفعية لترويع الأهالـي وخلـق الفزع في قلـوب المصريين.. لكن الشـعب المصـري واجَه القنابل بكل قوة.. ورغم استشهاد البعض.. وكلهم من المدنيين المحاصرين، إلاّ أن المقاومة واصلت العمل مع الجيش.. حتى انهزم الإنجليز.

يـروي المؤرخون تفاصيـلَ مذهلةً في معركة الحمّـاد.. وحقائق مثيرة في إجمالي هذه الحرب التي انتهت بهزيمة القوة العظمى البريطانية.. وانسحابها بالأسرى والجرحى.. بعد أن جرى دفن الموتى.

***

www.ibtesamah.com/vb

إن حرب 1807م حسبما يروي «الجبرتي» و«الرافعي» وكما يروي المؤرخون الأجانب.. هي مصدر فخرٍ مصريّ لا نهاية له.. وتمثّل «معاهدة دمنهور» التي عقدها محمد علي باشا مع الإنجليز.. تعبيرًا حاسمًا عن حجم الهزيمة البريطانية وضخامة الانتصار المصري.

ولقد كانت الآثار السياسية والاستراتيجية لهذه الحرب.. عظيمةً على صعيد الوطنية المصرية.. فقد انهزم الإنجليز، وانتهى المماليك، ولم يعد للعثمانيين في بلادنا وجود.

كان الوجود العثماني منذ هذه الحرب وحتى سقوط الدولة العثمانية وجودًا شكليًّا لا وزنَ له.. كما أن «فلول المماليك» قد انتهوا أخلاقيًّا بتحالفهم مع الإنجليز.. ثم انتهوا عسكريًّا بعد «معارك محمد علي» التالية لمعركة القلعة.

* * *

تحتاج الحرب المصرية البريطانية 1807م إلى إضاءات كثيرة.. إلى أفلامٍ ومسلسلاتٍ.. وإلى كتبٍ ومؤلفاتٍ.. ثم إلى احتفالاتٍ ومهرجاناتٍ.. إنها حربٌ مجيدةٌ.. يجب أن تكون حاضرة إلى جوار انتصارات حرب 1973م ومجمل انتصارات بلادنا.

إن «ثقافة ثغرة الدفرسوار».. أي الإضاءة على نقاط الضعف وسط المشهد العظيم.. حانَ لها أن تنتهي.. وإن إعادة تقديم الوطنية المصرية.. بما هو حقيقي وعظيم.. واجبٌ حتميّ من أجل هندسة الماضي وصناعة المستقبل.

يجب أن نضع في سلسلة أمجادنا «هَزَمْنَا هؤلاء».. فصلًا مجيدًا بعنوان: «هَزمْنَا بريطانيا».

www.ibtesamah.com/vb

نكسة يونيو 1879م.. خطأ السلطان عبد الحميد الثاني

كانت نهاية نابليون بونابرت هي بداية بريطانيا العظمى.. غابَ العصر النابليوني وبدأ العصر البريطاني.. سقطَ النظام العالمي الذي تقوده فرنسا ليبدأ النظام العالمي الذي تقوده بريطانيا.

امتلكتْ القوة العظمى الجديدة الصناعة والتجارة، والسلاح والمال.. ثورةً صناعيةً وقوةً بحريةً وانطلاقةً ماليةً وتمدّدًا تجاريًّا. وحسب «سعد محيو» في مقالته «ما بعد النظام العالمي الأمريكي».. فإن عام 1860م كان عام الذروة في الصعود البريطاني.

كانت بريطانيا تستهلك (53٪) من الحديد العالمي، و(50٪) من الفحم العالمي.. كما كانت تستهلك نصف القطن في العالم، وتمتلك ثُلث الأساطيل التجارية ونصف القدرات الصناعية في العالم.

وصلَ استهلاك «القوة العظمى البريطانية» إلى خمسة أضعاف استهلاك الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا (بروسيا وقتها).. وستة أضعاف استهلاك فرنسا.. وأمّا المقارنة مع روسيا فهي صادمة للغاية.. حيث كانت بريطانيا تستهلك أكثر من روسيا (155) مرة!

www.ibtesamah.com/vb

امتلكتْ بريطانيا مهابةً دوليةً لم ينافسها فيها أحد.. وفي عام 1910م كانت جنازة الملك إدوارد السابع تعبيرًا صارخًا عن حجم الهيْبة البريطانيّة.. فقد حضَرَ إمبراطور ألمانيا وثمانية ملوك من أوروبا وقادة مصر والصين واليابان.. والعشرات من أمراء الدولة العثمانية والإمبراطورية النمساوية المجرية.. كانوا جميعهم يتقرّبون للإمبراطورية قبل أن تغرب عنها الشمس.

***

في زمن الصعود الفرنسي ثم زمن السطوة البريطانية.. كانت الدولة العثمانية تتراجع وتتداعى.. ومعها تداعتْ الأمّة من حولِها.

وحدَها كانت مصر - الإضاءة الكبرى - في ظلمات العصر العثماني.. كان محمد علي باشا ثم الخديوي إسماعيل.. النموذج الباهر في البناء الوطني والهندسة الحضاريّة.

***

كانت عملية «استعادة التاريخ» تمضي على نحو شامل.. وبلا توقُّف.. وحين جاء الخديوي إسماعيل أحد كبار قادة الحداثة في العالم.. كان العام الواحد يمتلئ بالعديد من المعالم الجديدة، والإنجازات الباهرة.

ولايزال عصر الخديوي إسماعيل حاضرًا في مصر المعاصرة.. من كوبري قصر النيل إلى قصر عابدين، ومن المتحف المصري إلى دار الكتب والوثائق.. إلى الجمعية الجغرافية. شيّد الخديوي إسماعيل مجلس شورى النواب وأول أوبرا، وأول دار للآثار، وثلاثين قصرًا تاريخيًّا. كما افتتح قناة السويس، وحفرَ ترعة الإبراهيمية في الصعيد، ومدّ أنابيب المياه، وأصلحَ موانئ السويس والإسكندرية، كما أصلح منارات البحر المتوسط والبحر الأحمر.

www.ibtesamah.com/vb

لقد توازتْ مع ذلك كله نهضة ثقافية وتعليمية كبرى.. حيث تأسّست صحيفة الأهرام، كما تأسّست دار العلوم وأول مدرسة للبنات.. ونجح تكليف إسماعيل لـ«علي مبارك باشا» في وضع قانون للتعليم.. واعتماد سياسةٍ تعليميةٍ رفيعةٍ.

* * *

نقلَ الخديوي إسماعيل مقرّ الحكم من «القلعة» إلى «عابدين».. وأصبح رمز الاستقلال والحداثة.. ولم يكن يربط مصر بالدولة العثمانية سوى دفع الجزية والتمثيل الدبلوماسي.

إن الخديوي إسماعيل الذي أوْقف تجارة الرقيق في شرق إفريقيا.. وانطلق يزيدُ في تمتين القوة الصلبة والقوة الناعمة.. قد أثارَ غضب بريطانيا وفرنسا.. ذلك أنَّهُ كان يمتلك مشروعًا حضاريًّا مكتملًا.. كما أنّه سارَ في خريطة طريقه بنجاحٍ مثيرٍ.. وتسارعٍ مخيفٍ.

هنا كانت المؤامرة العثمانية البريطانية الفرنسية.. حيث رضخَ السلطان عبد الحميد الثاني لمطالب بريطانيا وفرنسا بعزل الخديوي القوي.. وعطّلَ مسيرة النهضة المصرية.

* * *

إنّها «نكسة يونيو 1879م».. تمّ عزل الخديوي إسماعيل وتولّى الخديوي توفيق السلطة في البلاد. قام «الخديوي الخائن» بجريمةٍ مروِّعة.. حيث أصدرَ مرسومًا بحلِّ الجيش المصري في 19 سبتمبر عام 1882م.. وهو أسوأ قرار في العصر الحديث.. وأحد أسوأ القرارات على مرّ التاريخ المصري.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

لقد حاولَ الملك فؤاد الأول ابن الخديوي إسماعيل «استعادة الأمل» في القرن العشرين بعد أن انقطع في القرن التاسع عشر. إن الملك الذي كادَ أن يكون ملكًا على ألبانيا عام 1913م.. لولا معارضة النمسا وإيطاليا.. تولّى السلطة في مصر عام 1917م.

في عهد الملك فؤاد الأول تأسّست مدينة بورفؤاد، وتأسّس بنك مصر وبنك التسليف ومصر للطيران، وانطلق مشروع طلعت حرب، كما تأسس مجمع اللغة العربية وانطلقت الإذاعة المصرية، ووضِعتْ نواة أكاديمية الفنون.. وتأسست جامعة القاهرة.

لقد دعّم الملك فؤاد زعامة سعد زغلول للوفد المصري، كما أيّدَ كل خطوات ثورة 1919م.. وأقرّ بعد نجاحها دستور عام 1923م.. ثم إنّه عزّز المكانة الإقليمية والدولية وكان له دور كبير في تأسيس الجامعة العربية.

***

لقد حرمت نكسة يونيو 1879م مصر من استمرار صعود جيشها القوي.. وقد استغرقت مصر وقتًا طويلًا بعد معاهدة عام 1936م حتى تصل إلى المستوى اللائق في عام 1973م. ولو لم يكن خضوع السلطان عبد الحميد الثاني لبريطانيا وفرنسا.. والإطاحة بالخديوي إسماعيل ثم دفع الخديوي توفيق لحلّ الجيش المصري.. لكان هناك تاريخ آخر للشرق الأوسط.. غيْر التاريخ الذي كان.

***

كان الخديوي إسماعيل نموذجًا للهندسة الحضارية، وكان الخديوي توفيق نموذجًا للهندسة المضادّة.

www.ibtesamah.com/vb

عيد الاستقلال المصري 1922م

تحتفل مصر في 23 يوليو من كل عام بالعيد الوطني. وفي تقديري فإن التاريخ الصحيح للعيد الوطني المصري ليس يوم 23 يوليو وإنما يوم 15 مارس.

***

إن يوم 15 مارس 1922م هو «يوم الاستقلال» المصري.. وقد جاء بعد أسبوعيْن تقريبًا من إعلان الاستقلال المصري في 28 فبراير 1922م.. في 15 مارس 1922م تأسست المملكة المصرية الحديثة.. وأصبح أحمد فؤاد ملكًا على مصر.. ولقد لعبت مصر منذ ذلك التاريخ دورًا بارزًا على الساحة الإقليمية والدولية.. وكان من بين ما قامت به.. دعم تأسيس جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة.

***

كانت مصر مستعمرة «بريطانية» لمدة ثماني سنوات.. من عام 1914م حيث أعلنت بريطانيا الحماية على مصر.. وحتى عام 1922م حيث تم إلغاء الحماية والاعتراف البريطاني بمصر دولةً مستقلةً ذات سيادة. وقد جاءت ثورة 23 يوليو عام 1952م على بلدٍ استقلّ قبل ثلاثين عامًا.. كانت فيه حكوماته وسفاراته وأحزابه ونوابه.. وكان فيه الملك والعلم والنشيد.. واعتراف العالم.

www.ibtesamah.com/vb

ولمّـا جاء يوم 18 يونيو 1954م.. ورحلَ آخـر جندي بريطاني عن القاعدة العسـكرية البريطانيـة فـي مصـر.. كانـت مصـر دولـةً مسـتقلةً.. وإذْ يحظـى عيـد الجـلاء بالإجلال والاحترام.. فإن عيد الاسـتقلال قد سـبق عيد الجلاء باثنين وثلاثين عامًا.

***

ينتقـد البعـض تصريـح 28 فبرايـر 1922م الـذي تضمَّـن إنهـاء الحمايـة البريطانيـة على مصـر.. ويروْن أنـه لم يكن تصريحًا مُشـرِّفًا، وأنّـه كان منحةً مـن بريطانيا.. ولا يليقُ الاحتفال به. وهذا رأيٌ غير صائب.. ذلك أنَّه تصريحٌ يشرِّف كل المصريين.. وهو ليس منحةً من المحتلّ.. بل هو نتاج ثورةٍ عظيمةٍ هـي ثورة 1919م، ونتاج جهـد نخبة وطنية رفيعة.. يتصدَّرهـا زعيمٌ عظيمٌ هو سعد زغلول باشا.

لقد جاء تصريح فبراير بعد أن خاضَ الشـعب معركة الاسـتقلال، وذهب ممثِّلـون إلى مؤتمر الصلح. ولمّا خذَلهم الرئيس الأمريكي «ودرو ويلسـون» ومعـه المؤتمـر.. عادوا إلى ميدان النضال وسـاحة الكفاح مـن جديد.. حتى تكلّلت الثورة بالنجاح.. وحصلتْ مصر على الاستقلال.

ينتقِـد آخرون «السـيادة الناقصة» التي حصلتْ عليهـا مصر.. حيث كانت هنـاك «التحفّظـات الأربعـة».. والتـي أبقـتْ لبريطانيـا بعض أشـكال النفوذ والوجـود. وهـذا قـولٌ صحيـحٌ.. ولكـن نقصـان السـيادة لا يُلغي السـيادة. إن أوروبـا الآن تمتلـئ بالقواعـد العسـكرية الأمريكيـة. وفي اليابـان وكوريا الجنوبيـة.. كما فـي كل القارة الأوروبية.. قواعد عسـكرية أمريكية.. ووجود عسكري مستقل تمامًا.. في الحجم والحركة.

www.ibtesamah.com/vb

ولـم يقـل أحدٌ إن هـذه البلدان هـي دول محتلّة. ثم إنّ الشـعب المصري العظيم قد وَاصَل مسيرة التحرير حتى جلاء آخر جندي بريطاني عن مصر.

* * *

إن أيـام «23 يوليـو» و«25 ينايـر» و«30 يونيـو».. هي كلها أيـامٌ مجيدةٌ في تاريخ بلادنا.. ولكنها جميعًا تشـير إلى سـقوط أنظمةٍ كان ينبغي أن تسـقط.. ولا تشير إلى استقلال وطنٍ كان ينبغي أن يستقلّ.

إنَّ «الأيـام الثلاثة» هـي تاريخُ ثوراتٍ وأحداث. هي أيـامُ تغيير نظم حُكمْ لا تغييـر سـيادة دولة. هي أيامٌ جاءتْ نتيجة صراع بين قوى سياسـية وشـعبية عديدة.. نجحتْ جميعها في إسـقاط رأس السلطة.. وتغيير النظام السياسي.. ولكنها لا تصلح أن تكون اليوم الوطني المصري أو عيد الاستقلال.

* * *

إن يوم 15 مارس هو «يوم الاسـتقلال» المصري.. هو نتاج ثورةٍ مجيدةٍ.. وهو أساس دستورٍ حديثٍ.. وبداية حقبةٍ زاهيةٍ من تاريخ الوطن.

إن يـوم «23 يوليـو» هـو يـوم الثـورة فـي مواجهـة السـلطة.. أمّـا يـوم «15 مارس» فهو يوم الاسـتقلال في مواجهـة الاحتلال.. ومواجهة الاحتلال أَوْلى بالاحتفال.

www.ibtesamah.com/vb

1967م هزيمة عادية.. كسر صناعة اليأس

إن أكبر هزيمة ألحقتها إسرائيل ببلادنا هي ترسيخ الاعتقاد بأن هزيمة 1967 كانت أسطورية، وأنها هزيمةٌ لا سابقَ لها في تاريخ الحروب ولا سيَر الشعوب، وأن «إسرائيل الكبرى» سحقتْ «مصر الصغرى» في أيام.

لقد بذلتْ إسرائيل نصف الجهد في تأكيد الأسطورة، أمَّا نصف الجهد الآخر فقد تكفَّل به عددٌ وفيرٌ من المصريين.. بعضهم كان معاديًا للثورة، وبعضهم كان معاديًا للرئيس، وبعضهم كان معاديًا للمشير، وبعضهم لم يكن معاديًا لأحد، ولكنه انهار تحت وطأة ما يرى.

وقد تكفَّل الجهدان معًا.. جهد إسرائيل واجتهاد مثقفينا بفقدان الثقة في كل شيء.. في الوطن والجيش والشعب، في كل ما يسمع ويقرأ ويتابع.. أصبحت كل نزعة وطنية ضربًا من البلاغة، وكل جرأة وطنية فاصلًا من الخطابة، وكل رؤية وطنية تحاصرها كل نظريات المؤامرة.

* * *

لقد بذل بعض مثقفينا كل الجهد.. ليؤكدوا لشعبنا أن 5 يونيو 1967م هي آخر الحروب، وأنه لا قيامة بعدها، وأن كل المحاولات التالية لها كانت جهودًا ناقصة واستعراضات محدودة!

www.ibtesamah.com/vb

وهكذا صاغت إسرائيل أسطورتها حول هزيمة المصريين في 1967، ثم واصلتْ الصحافة والسياسة ما بدأته إسرائيل.. وكلَّما نسيت إسرائيل قام البعض هنا بتذكيرها بالأسطورة، وكلَّما تراختْ إسرائيل في وصف جيشها، كان هناك من يواصلون الوصف لجيشها الذي لا يقهر ومخابراتها التي لا تهزم.. نجحت إسرائيل فيما أرادتْ.. أطلقتْ الأسطورة، وسلَّمتها لمن أخلصوا للخرافة وأحسَنوا الاستخدام.

ولأنني من مدرسةٍ تقدِّم الوطنية على الإيديولوجيا، وتقدِّم الأدوار على الأبطال، وتضع المعرفة فوق الأساطير، أجدني اليوم - وبعد عقودٍ على هزيمة 1967 - أرى فيما جرى، هزيمةً عاديَّةً.

* * *

لم تحظَ الطلعات الجوية المصرية في حرب 1967 بما يليق من التحليل والتكريم.. لقد جرى تصوير الأمر وكأنَّ إسرائيل قوةً كبرى، وأن الجيش المصري جرى مسحه من الوجود في ساعات.

وتحفلُ الكتابات العسكرية الرصينة بنماذج باهرة لطيارين مصريين.. أدركوا جيدًا حجم المأساة.. وشاهدوا بأعينهم آثار الخراب الذي سبَّبه سلاح الجو الإسرائيلي في الطائرات والممرات، ولكنهم مع ذلك انطلقوا بطائراتهم في أعمال بطولية لا مثيل لها. لقد قامت القوات الجوية المصرية بعدد كبير من الطلعات الجوية في يوم 5 يونيو وما بعده.

كانت هذه الطلعات أقرب إلى الأساطير، ذلك أن الضباط الذين قاموا بها، كانوا يدركون أن جيشهم قد انهزم، وأن أرضهم قد احتلت، وأن قادتهم قد أصابهم الفزع بعد الفشل. كان الأبطال المصريون في 1967 أكثرَ جسارة.. من نجوم العسكرية الألمانية والبريطانية في الحرب العالمية الثانية.

www.ibtesamah.com/vb

إن عشرين طيارًا مصريًّا انطلقوا بطائراتهم في أسبوع النكسة عام 1967م،وهم يدركون تمامًا أنها عمليات استشهادية، كانوا يعلمون أنهم يحاربون وسط الهزيمة، ويقاتلون بلا مطارات ولا ممرات ولا غطاء.. ومع ذلك انطلق العشرون طيارًا بعشرين طائرة في عملية تشبه «عملية بيرل هاربر»، التي نفذها الجيش الياباني في الحرب العالمية الثانية، حيث الانطلاق والقتال مع اليقين الكامل بالموت. ولقد استشهد في هذه الطلعة (19) طيارًا ليعود من تلك النخبة من الأبطال طيارٌ واحدٌ!

***

حكَى لي الفريق سعد الدين الشاذلي، رئيس الأركان في حرب أكتوبر، ما كان من شأنه وشأن مجموعة الشاذلي في حرب 1967. حدَّثني الفريق الشاذلي عن وجوده مع أكثر من ألف من ضباط وجنود الجيش المصري داخل إسرائيل بخمسة كيلومترات.. أيْ أنَّ «مجموعة الشاذلي» تقدَّمت في حرب 1967 لتحتل مواقع في إسرائيل، ثم قدمت نموذجًا بارعًا في كيفية الانسحاب بأقل الخسائر فيما بعد.

إنَّ الهدف من إحياء بطولات 1967 ليس فحسب هدفًا وطنيًّا يعيد الثقة لشعبنا في بلادنا، ويرفع رؤوس أجيالٍ باتتْ تقرأ لجهلاء وعملاء.. يحدثونهم عن انكسار مصر في حرب أكتوبر 1973م.. وعن بطولات إسرائيل في الثغرة، وعظمة قادتها في الدفرسوار.. بل الهدف أيضًا هو إحياء الحقيقة وإزالة الغبار عن أناسٍ.. حاولوا إضاءة ظلمات يونيو بما قدموا من أرواحٍ وأجسادٍ.. فالشرف لنا ولهم أن نعيد إليهم الاعتبار.. ونعيد إلينا الاحترام..

***

www.ibtesamah.com/vb

لـم تكـن حرب 1967 حدثًـا تاريخيًـا فاصلًا، كما لم تكن نصرًا أسـطوريًا على النحو الذي ارتآه الفكر الإسرائيلي وارتضاه الفكر العربي، بل إن النتيجة النهائية للحرب، وهي احتلال سيناء حتى قناة السـويس، ليست بالنتيجة التي كانت تسـتدعي كل هذا الانهيار النفسـي في بلادنا، لقد بدَا الأمر وكأنَّنا أمة.. لا تعرف ما يكفي عن الجغرافيا أو التاريخ!

ذلك لأن الحروب بطبيعتها هي هزائم وانتصارات وتعادلات.. وأن الأمـم العظيمـة والـدول الماجـدة.. هي تلـك التي تحسِـن إدارة الانكسـار بمثل ما تحسِن إدارة الانتصار.

قبـل عشـرين عامًا مـن حـرب 1967، كانـت الحـرب العالميـة الثانية قد وضعـت أوزارهـا قبـل قليل، وكان مـن وقائع هـذه الحرب ما يزيد عشـرات المرات على ما جرى في 1967.. إنَّ إمبراطورية استعمارية راسخة مثل فرنسا جرى اكتسـاحُها في أيام، واحتلَّت ألمانيا قلب فرنسـا في باريس بأسـهل مما احتلَّـت إسـرائيل أطراف مصر في سـيناء.. بـل لقد وجدت ألمانيا في فرنسـا حاكمًا عميلًا، وحكومة عميلة، ونظامًا سياسـيًا كاملًا سقطَ خائنًا تحت أقدام الاحتـلال. أما إسـرائيل فقد وجدتْ في سـيناء مقاومةً عظيمـةً.. كما وجدتْ في جيشـنا، الـذي أخطأ قادته فـي السياسـة والإدارة، بطولاتٍ مذهلـةٍ وثباتًا مستحيلًا.

ثـم إنَّ هذا الجيش الذي اضطرَّته أخطاء الساسـة إلى الانسـحاب.. لم يأخذ ساعةً واحدةً للارتياح.. حتى بدأ حرب الاستنزاف المجيدة بعد أيامٍ من الهزيمة.

***

إن دولةً مثل بولندا اكتسحها الجيش الألماني في يوم واحد، وإمبراطورية عملاقـة مثـل الاتحاد السـوفيتي غزاهـا الألمان وتمكَّنـوا منهـا.. حتى تمَّت هزيمتهم!

www.ibtesamah.com/vb

ثـم إن دولًا مثـل كوريـا والصين دخلَهـا الجيش الياباني كاسـحًا الأرض وماسحًا ما فوقها.. ليسقط الملايين دون مقاومةٍ مشرفةٍ.

إن إمبراطوريـةً ثالثـةً مثل بريطانيا كانت على وشـك الهزيمـة.. واختفتْ معالـم لنـدن تحت قنابل هتلـر.. ولولا دخـول الولايات المتحـدة الأمريكية لخرجت بريطانيا وفرنسا من التاريخ!

فـي كل الحـروب الحديثـة.. كانـت الـدول تنهـار، والعواصم تتسـاقط، والعملاء يصعَدون.. وتأخذ الأوطان قرونًا أو عقودًا حتى تنهض من جديد.

وفي حرب 1967م.. لم تتفكَّك الدولة، ولم تسـقطْ العاصمة، ولم يحكُم الاحتلال.. بل جرى احتلال جزء ثمين من أرض الوطن.. لم يمرّ على احتلاله أسبوع واحد حتى بدأتْ حرب التحرير من الاستنزاف وحتى أكتوبر.

***

لـم تكـن مصـر فـي أيٍّ مـن الحـروب الثـلاث.. حـرب 1967م، وحرب الاسـتنزاف، وحرب 1973م.. تحارب إسرائيل وحدها.. بل كانت تحارب.. الطائـرات الأمريكيـة والدبابـات الأمريكيـة والذخائـر الأمريكيـة والأقمـار الأمريكية والإدارة الأمريكية.

كان في أمريكا من يقف ضد جنوح إسرائيل، ومن يخشى انفلات المنطقة والعالـم.. ولكـن كان هنـاك مـن يـرى في إسـرائيل امتـدادًا للتـراب الوطني الأمريكي!

فـي حرب عـام 1967م لم تكن مصر تحارب إسـرائيل وحدها.. بل كانت تحارب إسرائيل ونِصف الولايات المتحدة.. معًا.

www.ibtesamah.com/vb

حرب الأيام الستّة.. وحرب الساعات الست

الفريق سعد الدين الشاذلي واحد من أعظم جنرالات الحرب المعاصرين.. خاض حرب 1948 ضابطًا في الحرس الملكي وقاد حرب 1973 رئيسًا للأركان، وهو يقع في مصاف كبار العسكريين في العالم.

تشرفتُ بتحرير مذكرات الفريق سعد الدين الشاذلي.. تقع المذكرات في (704) صفحة، وتحمل كل صفحة توقيعه أعلى الصفحة وتوقيعي أسفلها.. ولهذه المذكرات التي تملك عائلة الفريق حقوق نشرها.. قصة قصيرة.

***

تعرفتُ على الفريق الشاذلي للمرة الأولى في التسعينيات. كنتُ أكتب مقالًا أسبوعيًا في صحيفة الوفد في إطار «مركز الوفد للدراسات السياسية».. وفي إحدى المرات اتصلتُ بالفريق الشاذلي لتوثيق بعض المعلومات.

لم أكن أجهل أن الشاذلي شخصية جادة وصارمة، وأنه ربما لا يرحب بمكالمة هاتفية من كاتب غير معروف.. فكان مدخلي للتعامل معه أننا «بلديّات».. فكلانا من مركز بسيون محافظة الغربية، والمسافة بين قريتيْنا عشر دقائق، وبين العائلتيْن صلات نسب غير مباشرة.. عرفتُ جانبًا منها حين زرت عائلة الفريق في وقتٍ لاحق.

www.ibtesamah.com/vb

سعدتُ كثيرًا بدور «بسيون» في خلق حالة من الودّ والثقة، وتتابعت على إثر ذلك الاتصالات بيننا، ثم توثّقت الصلة.. حين دعاني لزيارة منزله ومسجده في شبراتنا. وكانت زوجته السيدة «زينات» بالغة الرقة والرقيّ. وقد مضتْ الصلة على هذا النحو.. حتى اتصلتُ به ذات يوم لأجل كتابة مذكراته.

* * *

تعلمتُ الكثير من الفريق الشاذلي أثناء تحريري لهذه المذكرات، والتي ساعدني فيها الأستاذ هشام يونس الكاتب بالأهرام. كان أول ما تعلَّمت حين سألني الفريق الشاذلي عن الجدول الزمني للكتابة والنشر.. قلت له: بـ«الوَيَمْ» عدة أشهر.. يعني تقريبًا هذا العام.. قال لي: هذه بداية غير موفقة!.. يعني إيه «الوَيَمْ».. مفيش حاجة في العالم اسمها «الوَيَمْ».. ويعني إيه «عدة أشهر» ويعني إيه «تقريبًا»!.. سأعتبر أنك لم تتحدث بعد.. سأحذف إجابتك وأسألك من جديد لأنك لم تجِب أصلًا.

قل لي: كم ساعة سنجلس؟ وما هي مواعيد هذه الساعات؟ من أي ساعة إلى أي ساعة؟.. بالليل أو بالنهار؟.. وما هي خريطة الأسبوع؟.. وما هو وضع يوم الجمعة؟.. وما هو أول موعد لتقديم أول نص؟ وما هو هذا النص؟ وكم تطلب منّي من الوقت لمراجعته وردّه إليك؟.. أريد خطة دقيقة لا مجال فيها للخطأ أو الغموض.

كان هذا درس قوي وموجز في «الهندسة الشخصية».

* * *

www.ibtesamah.com/vb

ليس من المناسب أبدًا أن تتحدث إلى الفريق الشاذلي دون أن ترتدي الملابس العسكرية وتنزل الجبهة ومعك الخرائط والخُطط.. وتكون جميع حساباتك لا تحتمِل سوى شيء واحد: الصواب.

وأذكر مرة أنني قلت له: متى نلتقي غدًا؟ قال: الثامنة صباحًا.. ثم أضاف: طبعًا.. لا تأخير، ولا ينبغي أن أقول: لا تأخير.. قلت له: سأكون موجودًا في السابعة صباحًا. وقد أردتُ بهذا القول أن أؤكد على التزامي التامّ.. ولكنني فوجئت به يقول: السابعة صباحًا!.. هذا أيضًا خلل، قبل الثامنة مثل بعد الثامنة، الموعد موعد، قبله خطأ وبعده خطأ.. إنني أكون منشغلًا قبل الموعد وبعد الموعد.. والمجيء مبكرًا مثل المجيء متأخرًا.. يُربِك جدول الأعمال. الثامنة هي الثامنة، ومسموح بالمجيء مبكرًا أو متأخرًا لمدة «دقيقة».. أي سأنتظرك من السابعة وتسع وخمسون وحتى الثامنة ودقيقة!

وفي مرة نادرة تأخرت على الفريق الشاذلي عشر دقائق، ولحسن الحظ أنه كان رائق الذهن في ذلك اليوم.. لكنه نظر في ساعته وقال لي: هل تعرف يا أحمد.. لو أنني اعتمدتُ على أمثالك في حرب أكتوبر.. لكانت إسرائيل قد وصلت إلى إفريقيا!

* * *

كان ذلك التعبير صادمًا لي.. لكنه كان صحيحًا تمامًا في دلالاته الزمنيّة، ذلك أن حرب أكتوبر كانت تُدار بـ«الفمتو ثانية».. قبل أن يكتشفها الدكتور زويل فيما بعد. وأذكر أنه مرةً قال لي: كيف لم تتعلم دقة المواعيد وأنت على هذه الصلة القوية بالدكتور زويل؟!

www.ibtesamah.com/vb

امتدحَ الفريق الشـاذلي الدكتور زويل وطلـب منّي ترتيب لقاء بينهما.. ثم قـال: لقد كُنّـا نتعامل في حـرب أكتوبر مع عنصـر «الزمن» بأعلى مسـتويات الكفاءة والدقة.. كنا نتعامل بالفمتو قبل أن يعرف العالم زمن الفمتو.

***

جلسـتُ مـع الفريق الشـاذلي (200) سـاعة، معظمها في منزله في شـارع بيروت في حيّ مصر الجديدة، وبعض السـاعات في منزله الريفي في شـبراتنا مركـز بسـيون محافظة الغربية.. وسـاعات أخرى في منزل أسـرته في المنتزة بالإسكندرية.

وأذكر ذات يوم وأنا في زيارته في المنتزة.. ذهبنا معًا لصلاة الجمعة، وبعد انتهـاء الصلاة وجدتُ أناسًـا كثيرين يتحلّقون حول الفريق الشـاذلي.. وكانوا جميعًا يصافحونه: حرمًا يا بطَل. وقد وجدتُ في وجهه الرضا عن هذا التقدير الذي عَوَّضَهُ سـنوات الإهمال والسـجون. وحين وصلنا إلى «الكابينة» كانت زوجته السـيدة زينات قد أعـدت الغداء، وأثناء الغداء.. كان الفريق الشـاذلي يتحدَّث معي «إنسـانيًا» للمرة الأولى والأخيـرة.. ذلك أنه كان يتحدَّث كقائد وجنـرال طيلـة الوقـت.. حتى أنـه ليبـدو مقاتلًا دائمًا.. لم يترك السـلاح ولم يغادر الميدان.

***

انتهينا من كتابة المذكرات في عام 2007م وقد امتدت إلى (704) صفحة، ثم فاجأني الفريق الشاذلي بالقول: علينا أن نوقِّع الكتاب صفحة صفحة. قلت لـه: كيف؟ قال: هذه هي النسـخة الكاملة.. سـأوقِّع أنا أعلـى الصفحة وتوقِّع أنت أسـفلها. قلـت له: ألاَ تثِق فـي؟ ألاَ يكفي أن نوقِّع علـى الصفحة الأولى فقط؟ قال: أثق الآن.. لكنني لا أثق في المستقبل.. ما الذي يمكن أن يحدث؟

www.ibtesamah.com/vb

ولا الضغـوط التـي قد تتعرّض لها. لقد حدثَ معي مـن قبل أن تعاقدتُ على كتابٍ للنشر في بغداد، أخذوا منّي حقوق النشر، ولم ينشروه بإيعاز من صدام حسين!

وافقـتُ فورًا، ذلك أن الشـرفَ الذي كنت سـأحظى به فـي صفحة واحدة بات شـرفًا مضاعفًا بعدد صفحات الكتاب.. وتملك السـيدة «شـهدان سـعد الدين الشاذلي» تلك النسخة الموقعة والكاملة من المذكرات.

***

رَحَلَ الفريق الشاذلي عن الحياة قبل ساعاتٍ من رحيل الرئيس مبارك عن السلطة.

***

يقـول البعض: ولكـنَّ الفريق الشـاذلي ارتكب جريمة في عهد السـادات بنشـره كتابه (حرب أكتوبر) بدون موافقة رسـمية، وعلى ذلك فقد كان حكم حبسه عادلًا لأنه أفشى الأسرار، وقام بالإضرار بالأمن القومي المصري.

وتقديـري أن هـذا قوْل خاطئ تمامًـا.. ذلك أن الفريق الشـاذلي هو أجدر مـن الجميع بتقدير ما هو إفشـاء للأسـرار وما هو ليس إفشـاء للأسـرار.. هو المرجعيَّـة وهو الحَكَم. بل إنَّني أذهب إلى أبعد وأرى أن الفريق الشـاذلي قد خـدم المصلحة الوطنية.. حين قام مبكرًا بنشـره كتاب عـن «حرب أكتوبر».. وهو الكتاب الذي أدخله السجن بحجة إفشاء الأسرار العسكرية.

كان الشـاذلي يسـتحق الثنـاء لا الهجـوم، والتقديـر لا العقـاب.. لقد أفادَ الفريـق الشـاذلي مصـر بنشـرِه المبكّـر لحقائق الحـرب.. ذلـك أن كتابه كان المذكـرات العسـكرية الوحيدة التي نُشـرت مـن الجانب المصـري بالتوازي

www.ibtesamah.com/vb

مع الجانب الإسـرائيلي، ولو كان الشـاذلي قد تأخَّر سـنوات أو عقود.. على نحو ما تأخّر آخرون، لكانت الرواية الإسـرائيلية للحرب قد سيطرتْ وحدها على المشهد.

وفـي تقديـري فـإن جانبًا من أسـباب انتشـار الروايـة الإسـرائيلية الكاذبة للحرب هو المنع التعسُّفي لنشر مذكرات القادة المصريين في تلك الأثناء.

* * *

لقد سـألتُ الفريق الشاذلي كثيرًا عن ذلك، وقد شاهدت في وجهه الحزن والغضب.. قال لي في حسـم: أنا الذي أقرِّر ما هو صواب وما هو خطأ.. وأنا الذي أقرر ما يقع في دائرة الأسرار، وما يقع في دائرة المباح.. أنا رئيس الأركان وقائد الحرب، ولا يمكن أن أُحْسِن إدارة حرب ولا أُحْسِن نشر كتاب!

* * *

كان الفريق الشاذلي مُحبًّا للرئيس السادات، وكان لديه إعجاب بشخصيّته وقيادته للبلاد.. قال لي: «كان لديّ ولاء تامّ للسادات، وكنت مقدِّرًا لاختياره لي في رئاسة الأركان، وكنتُ مدركًا تمامًا لما يملك من ذكاء ودهاء حادّ».

كان الشـاذلي يعتقد أن تمسكه برأيه في أزمة الثغرة أثناء الحرب.. سيؤدي إلى تغيير رأي السادات.. لكنه فوجئ أن ذلك لم يحدث.

أخَذَ الشـاذلي ذلك الرَّفض على كرامتـه وهيبته.. كان يرى أنَّه الجنرال ذو التاريخ العسـكري الباهر، ونجم العسـكرية المصرية قبل سـنوات طويلة في أوغنـدا، وبعدها في البحر الأحمر وسـيناء.. ثم إنه لـم يهزم في أي حرب من 1948 إلـى 1973م.. فقـد كان في المجموعة التي سـيطرت على مواقع مهمة داخل فلسـطين في حرب 1948م، وكان قائد المجموعة التي توغلت خمسـة

www.ibtesamah.com/vb

كيلومترات داخل إســرائيل في حرب 1967م.. ولأنه كذلك، رأى الشاذلي أن رأيه العسكري هو الأحقّ بالاتّباع.. وليس رأي السادات ذو التاريخ العسكري المحدود.

***

وروى قـادة عسـكريون أن الفريق الشـاذلي لم يسـتجب لتحذيـر «الدفاع الجـوي» بشـأن الثغرة.. وأن عدم تعامله الجاد مـع رؤية قوات الدفاع الجوي وتحذيراتها كان سببًا في تدهور الوضع.

كما أن رؤية الشـاذلي بالعبور العكسي للقناة من الغرب إلى الشرق.. كان سـيؤدي إلى كارثة كبيرة لا يمكن تخيل حجمها. لكن الفريق الشـاذلي لا يقرّ بأيٍّ من أخطائه.. وهذه عادة ثابتة لدى كبار قادة الحروب على مرّ التاريخ.

***

كان خطأ الشـاذلي أنه توقَّف عند التاريخ العسـكري المحدود للسـادات، ولم ينظُر إلى التاريخ السياسي الحافل.. كما أنه لم يقدِّر أن السادات باختياره قادة حرب أكتوبـر.. أكدّ بذلك على امتلاكه رؤية قوية لإدارة الحرب.. وبأيّ الرجال يجب أن يقاتل.

كان الســادات بطلًا فـي اتخـاذه قـرار الحـرب، ووطنيًّا في اختيـاره لقادة الحـرب، ومخلصًا في تـرك الأمور العسـكرية في أيدي أبطـال الجيش. كان ذلك كافيًا لأن يثق الشـاذلي في السـادات، ولكن ثقة الشـاذلي القوية في ذاته عطّلت الثقة الأولى.. وهنا جاء الخلاف.. مَنْ يملك القرار؟

***

www.ibtesamah.com/vb

لم يفكِّر الجنرال الوطني في أن يتجاوز في حق القيادة السياسـية.. والتزم رؤية السـادات. كان الشـاذلي غاضبًا لكنه لم يتجاوز حدود الغضب، كما أن السادات لم يقرِّر على إثر الخلاف أن يطيح بالشاذلي تمامًا من الحياة العامة.. بـل كان يفكـر في أكثر مـن منصب يتولاه الجنـرال الغاضب. قـال لي الفريق الشـاذلي: «أرسـل الرئيس السـادات لي اللواء حسـني مبارك لإقناعي بالسفر إلى لندن سـفيرًا لمصر لدى بريطانيا.. قال لي مبارك: إن هناك أمورًا عسكرية لا يمكن لغيرك إنجازها.. ولذلك اختارني السادات لهذه المهام.. كنتُ جافًّا مـع مُوفد السـادات اللواء مبارك.. لكنني في النهاية قبلتُ وغـادرتُ القاهرة سفيرًا في لندن»..

* * *

فـي لنـدن.. مضـتْ الأمور بعـض الوقت، ثـم كان صدور كتـاب الرئيس السـادات «البحث عن الذات».. وكان اعتراض الشـاذلي على بعضٍ مما جاء فيه.. وهاجم الشاذلي السادات، وكانت الأزمة أكبر من أن تمرّ.

توقَّع الجميع أن يعصِف السادات بالشاذلي تمامًا.. لكن ذلك لم يحدث، قام السـادات بنقل الشـاذلي من لندن إلى منصب جديد.. سـفيرًا لمصر لدى البرتغال.. وكان ذلك أقصى عقاب بعد الأزمة اللندنية.

كان الشـاذلي - في تقديري - جريئًا وصادقًا في خلافه مع السادات بشأن روايـة بعـض جوانب الحـرب.. وقد أكـدَّ بذلك علـى أن الجنـرالات الكبار لا يمكـن كسْـر تاريخهـم.. مهما كانـت مصادر الكسـر، ومهما كانـت نتائج التحدّي.

قـال الشـاذلي كلمته في جسـارة نادرة فـي مواجهة الرئيس، ثـم غادر إلى البرتغال.. وهناك عمل بدأب.. وتعامل في لشبونة كأنه سيبقى فيها لسنوات..

www.ibtesamah.com/vb

إلى أن كان الصدام، بعد انفلات الغضب.. وأصبح الشاذلي معاديًا للسادات من عواصم متعددة.

* * *

أشار لي الفريق الشاذلي أكثر من مرة إلى وجود دسائس في القصر، وأن بعض رجال السادات كانوا يكيدون للشاذلي عند الرئيس. والأغلب أن ذلك صحيح، وأن من طبائع السلطة صراع الرجال والأدوار، وربما لو لم يوجد أولئك الوشاة.. لكانت العلاقة قد ذهبت إلى الأفضل، ولربما عاد الشاذلي نائبًا للسادات ولتغير مسار التاريخ.

* * *

سألتُ الفريق الشاذلي ذات يوم عن خطة حرب أكتوبر، وعن الذي وضعها، وهل كانت حقًّا جاهزة في زمن الرئيس عبد الناصر.. والسادات قام بتنفيذها؟

كانت إجابة الفريق الشاذلي قاطعة: لا توجد خطة في عهد عبد الناصر، خطة حرب أكتوبر تم وضعها في عهد السادات.. وما يقوله رجال عبد الناصر عن وجود خطة كاملة تم وضعها في عهد عبد الناصر ليس صحيحًا.. كانت هناك تصوّرات عامة لا ترقى أبدًا إلى مستوى خطة.. لكن خطة الحرب تم وضعها بالكامل في عهد السادات.

* * *

كان دور الفريق سعد الدين الشاذلي رئيس أركان القوات المسلحة أثناء حرب أكتوبر.. دورًا حاسمًا. إنَّ «خريطة طريق» كل جندي في كل هذه الحشود العسكرية الكبرى.. برًّا وبحرًا وجوًّا.. كانت مدروسة ومعروفة على نحو دقيق.

www.ibtesamah.com/vb

لم يكن هناك جندي واحد لا يعرف مهامّه في حرب أكتوبر، ولم يكن هناك قائد واحد.. لم يتسلّم رؤيةً محدّدةً وحاسمةً لما يجب وما لا يجب.

الأمرُ كان أشبه بوضع سيناريو لكل فردٍ من أفراد الجيش المصري.. وقد جرى حساب قدراته البدنيّة وإمكاناته العسكريّة على نحو لا يقبل الخطأ. لم توجد خطوة واحدة في كل مراحل الحرب، ولا كتيبة واحدة في كل قوى الجيش.. لم تكن محسوبة تمامًا.. ومعروفة الحركة والنتائج.

* * *

لقد أنجز الأبطال الكبار ما لم يكن في حسبان الاستراتيجيين على مستوى العالم.. نجح الرئيس السادات والمشير أحمد إسماعيل والفريق سعد الدين الشاذلي والمشير عبد الغني الجمسي والمشير محمد علي فهمي وكبار القادة في شنّ واحدة من أعظم الحروب في تاريخ الشرق الأوسط.

لقد روى لي الفريق الشاذلي القصة الكاملة.. ثم سمعتُ جوانبَ من القصة من المشير الجمسي.. وروى لي الكاتب محمود عوض جوانب أخرى مما قام بتسجيله وتوثيقه مع المشير محمد علي فهمي. ولازلت مذهولًا من الضعف الشديد لدى أدوات القوة الناعمة المصرية في إيصال عبقرية هذه الحرب المجيدة إلى الأجيال وإلى العالم بما يناسب ويليق.

* * *

في ستة أيام هزمت إسرائيل مصر عام 1967م، وفي ست ساعات هزمت مصر إسرائيل في حرب 1973م.

إن حرب أكتوبر.. هي النموذج الأعلى في «هندسة كل شيء».. في هندسة الزمان والمكان.. اليابس والماء.. البشر والحجر.

إنَّها النموذج لمَا يجب أن يكون.

www.ibtesamah.com/vb

FARES_MASRY
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر ديسمبر ٢٠١٨

www.ibtesamah.com/vb

الفصل الثاني

هندسة الحاضر

www.ibtesamah.com/vb


www.ibtesamah.com/vb

العُمَلاء الحقيقيّون

تجمّدت بلادنا لسنواتٍ طويلة.. كان عنوانها الرئيسي: لا جديد!

كل من أَمْسَكَ بشيء لا يريد لأحدٍ أن يصل إليه.. وكل من وصَلَ إلى شيء.. لا يريد لأحدٍ أن يدنو منه.

***

فجأة وجدنا وطنًا يتسع لمائة مليون إنسان في مليون كيلومتر مربع.. لا يمتلك سوى نخبةً محدودةً، وأسماءً محدودةً، ونجومًا قليلةً. وكلما فكّر المخلصون في التطوير والتحديث، وجدوا صعوبةً طائلةً في الوصول إلى فريقٍ متميز ومجموعة قادرة.

بدأ المستفيدون من «الكساد الفكري» و«الكساد البشري» في مصر.. في استثمار هذه الحالة.. وصاروا يردِّدون تلك المقولة المُريحة: نحن نريد الانطلاق.. ولكن لا نجدُ أحدًا يصلح لذلك، مِنْ أين نأتي بهم.. البلاد فارغة، إذا وجدتَ أحدًا.. قل لنا: أين هو؟!

***

الأغلبية الساحقة ممن يردِّدون هذه المقولة كاذبون وكارهون.. هم في حقيقة الأمر حاقدون لا يريدون إلا أنفسَهم.. وهم متآمرون على بلادهم.. باسم فراغ الكفاءات ونُدرة المتميزين.

إنهم ليسوا صادقين إطلاقًا في البحث عن جديد، بل إنهم يحزنون كثيرًا إذا ما تمّ الردّ عليهم: «هذه أسماءٌ متميزة وكوادر رائعة».. يمكنكَ أن ترى

www.ibtesamah.com/vb

الصّدمـة على الوجوه.. والصمت قليـلًا أو طويلًا.. ثم بدء حملة البحث عن أيّة إساءة في أيّ اتجاه.

إنهـم يعملون ليل نهار على منع أيّ متميّز مـن التقاط الأنفاس، فضلًا عن وصولِه إلى أيّ موقع.

الفاسـدون بعضُهـم أعوانُ بعـض، والجاهلون على قلـبٍ واحد، وطريقٍ واحد.. ولن يدعم الفاسدُ إلا فاسدًا، ولن يدعمَ الجاهلُ إلا جاهلًا. هي دائرة مغلقـة من الجهل والفسـاد.. الجاهلون القدامى يفسِـحون الطريق للجاهلين الجُـدد. وكلمـا وجـدوا «موهوبًـا» أو «شـريفًا» أعـدّوا لـه العُـدة.. تحجيمًا وتدميرًا.

***

وتقديـري أن الأمر ليس كله «عفويًّا».. ذلك أن «تحالف عديمي الموهبة» بقِيَ صامدًا.. رغم تحولاتٍ وتغيراتٍ عَصَفَتْ بالكثير.

وربمـا أذهبُ إلى «نظرية المؤامرة» التي هي «نظرية السياسـة» وأقول: إن تحالف عديمي الموهبة في مصر، هو «الطابور الخامس» الحقيقي.. وهو أداة تركيع هذا الوطن.

وأعـودُ هنا إلـى تلك القصة الشـهيرة حول ذلك العميل السـوفيتي، الذي اعترف في نهاية المطاف بطبيعة مهمته.. والتي كانت سهلةً وبسيطةً وصادمة.. حيـث كانت كل وظيفته كعميل لصالح جهاز الاسـتخبارات الأمريكية «سـي آي إيه».. هي اختيار الأسوأ في كل وظيفة من بين كل المرشحين.

كان العميـل السـوفيتي يتقاضَى من واشـنطن أموالًا طائلـة.. مقابل مهمةٍ خطيرة تتكوّن من كلمتيْن: «اختيار الأسوأ».

www.ibtesamah.com/vb

ولقد نجحت هذه «المهمة اللعينة» والتي قام بها عُملاء كثيرون دون الحاجة للعودة إلى واشنطن، في تفريغ قوةٍ عظمى بوزن الاتحاد السوفيتي من الموهوبين والمخلصين.. ومن ثمّ تفريغها من القوة الناعمة والقوة الصلبة.. ثم كان الانهيار.

***

وقبل سنواتٍ حكى لي وكيل جهاز المخابرات المصرية الأسبق اللواء صلاح الدين المحرزي وقائعَ متماسكة تقود إلى التحليل ذاته.

وكان تقدير اللواء المحرزي أن ما يجري في مصر – وكان ذلك في عهد الرئيس الأسبق حسني مبارك – لا يمكن أن يكون «عفويًّا».. وأن التفسير العلمي الوحيد لما يجري، هو أنه شيء «مخطط».. وأنه يجري على نحو منظم ومتّسق ومتزامن، وأن وراء ذلك المشهد من يعرف جيدًا.. ماذا يفعل؟ ولماذا يفعل؟.. وهو ما يجعل القادم صعبًا.. والخطر مؤكدًا!

مضتْ سنوات على ذلك الحديث، ومضتْ عقود على القصة السوفيتية.. وظنّي أن الحديث لايزال، والقصة لاتزال.. وأن تحالف الجهل والفساد.. لا يزال قادرًا على إرباك المشهد، وتدمير القوة الناعمة، وإنهاك الدولة والمجتمع في تفاهاتٍ.. تجري صناعتها، ووضع إطارها.. بكفاءةٍ وعنايةٍ.

ثمّة جدول زمني للتفاهة في مصر، كل قصة تافهة تأخذ المدى الزمني المحسوب، لتبدأ القصة التافهة التالية..!

السينما والدراما والإعلام شركاء فيما يجري.. بإخلاصٍ واقتدار. هناك بالطبع من يقبِضُون على الجمر.. ويواصلون الطريق الصعب، ويبذلون جهودهم لأجل قوة ناعمة قائدة.. وراسخة، ولكنَّ قدرة «العملاء الحقيقيين» أكبر كثيرًا من قدراتهم.

***

www.ibtesamah.com/vb

إن «العمـلاء الحقيقيين» أو على نحوٍ أدق «العملاء الأكثر خطورة» هم الذين يمنعون الأذكياء في بلادنا من الوصول إلى أماكنهم، وهم الذين يطردون العملة الجيدة لأجل العملة الرديئة، وهم الذين يضعون في المؤسسات والهيئات والشركات.. من يقومون بالتدمير الذاتي والإسقاط المدروس.

«العملاء الحقيقيون» هم من ينشرون ثقافة التطرف والمخدرات والدماء.. ليجد الأطفال والمراهقون فيهم نموذجًا وطريقًا. هم الذين يزعجهم «سلطان العقل».. ويُسعدهم «الدخان الأزرق».

«العمـلاء الحقيقيون» هم من يؤجلون عمل اليوم إلى غدٍ لا يجيء، وهم من يضعون العراقيل في كل طريق، وهم من يريدون لنا «الجري في المكان» دون خطوة واحدة باتجاه الأفضل.

***

قولًا واحدًا.. الجاهل إذا تولى منصبًا فهو فاسد، وحتى إذا لم يسرق ولم ينهب.. ذلك أن خسائر الجهل تفوق خسائر الفساد.

لا تهوِي الأوطان على نحو مفاجئ.. بل هناك من يقومون بالتجريف المستمر حتى يقع الانهيار!

إن الذين يشاهدون عمليات التجريف، ولا يحرِّكون ساكنًا هم مشاركون.. ومجرمون.

أقول – وبقدرٍ كبيرٍ من الثقة – سينهزم الإرهابيون ويولّون الدبر.. ولكن تحالف عديمي الموهبة هو الإرهاب الأكبر.. إنهم العملاء الحقيقيون.

www.ibtesamah.com/vb

شارع تحتمس الثالث طريق الليث بن سعد..

الجغرافيا الحضارية

ماذا يعني أن يكون أهم شارع في مصر باسم «صلاح سالم»؟ وماذا يعني وجود شارع مهم في مصر باسم «سليم الأول»؟.. وماذا يعني - أيضًا - عدم وجود شارع كبير باسم الملك «تحتمس الثالث».. أو طريق باسم الإمام «الليث بن سعد»؟

الإجابة هي: اللامعنى.. اللامنطق.. اللافكر. إنها الرؤية العبثيّة لمعالم بلادنا ومكانة رموزنا.. أو إنها «اللارؤية» للجغرافيا الحضارية في مصر!

* * *

إن أسماء الشوارع والطرق يجب ألاّ تترك للمصادفات أو المجاملات.. أو لتقدير صغار المسئولين والموظفين المحليين. وما مضَى من تسمياتٍ خاطئةٍ أو باهتةٍ.. يجب ألّا يُترك للأمر الواقع.. أو أنْ يتمّ الرضوخ لفوضَى الإشارات والدلالات.

إن إلغاء اسم «سليم الأول» من الشارع الذي يحمل اسمه في القاهرة.. هو واجب وطني وأخلاقي. لا يجب تخليد هذا المحتلّ لبلادنا.. القاتِل لشعبنا.. الناهِب لثروتنا وتاريخنا.

لقد ابتكر سليم الأول تلك الكارثة التاريخية: «الفتح الإسلامي لبلاد المسلمين».. ونجحتْ حركات التطرف الديني في «ترويج» حروب سليم

www.ibtesamah.com/vb

الأول باعتبارها إنجازات.. والتسويق لغزو مصر باعتباره «فتح مصر»، واحتلال الحجاز باعتباره «فتح مكة»!

لم يكن سليم الأول شخصًا صالحًا.. فقد قتلَ والده، وإخوته، وأبناء إخوته، وقتلَ كبار رجال الدولة.. من الصدر الأعظم.. إلى عدد لانهائي من المقربين والبعيدين.. من بينهم سبعة وزراء!

وحين غزَا سليم الأول مصر.. قتل عشرات الآلاف من المصريين، وفي مناوشات القاهرة وحدها التي أعقبت موقعة الريدانية.. قَتَلَ سليم الأول خمسين ألف شخص، وحتى حين أعطى «عهد الأمن والأمان» للمماليك وقام ثمانمائة شخص بتسليم أنفسهم.. خانَ العهد وقتلهم جميعًا.

لقد مضَى سليم الأول.. بالتوازي مع أنهار الدماء.. في عملية نهب حضارية للدولة المصرية.. وتصرّف مثل لصٍّ رخيصٍ.. لم يجد شيئًا في طريقه إلا سرقَه.. ونقله إلى قصوره في اسطنبول.

يذكر المؤرخ «ابن إياس» في كتابه الشهير «بدائع الزهور».. جانبًا من قيام السلطان العثماني بنهب مصر.. يقول: «خرج سليم الأول من مصر ومعه ألف جَمَلٍ محمَّلةً ما بين ذهب وفضة، وكان هذا خارجًا عمّا نهبه من التحف والسلاح والنحاس والخيول».. «نَقَلَ سليم الأول إلى اسطنبول أمْهر الفنانين والحرفيين هناك.. مما أدَّى إلى توقُّف وانهيار خمسين صنعة في مصر.. ونقَلَ من مصر الرخام الفاخر.. وأخذ من كل شيء أحسنه.. مما لم يفرح به آباؤه ولا أجداده من قبْله».

***

بدلًا من تجريم ذكرى «سليم الأول» تمَّ تخليد ذكراه في شارع سليم الأول في منطقة حلمية الزيتون في قلب القاهرة. ويذكر «عباس الطرابيْلي» في كتابه

www.ibtesamah.com/vb

«شـوارع لها تاريخ».. وفي فصلٍ مهم بعنوان: «غزاة في شـوارع مصر».. «إن فـي مصر مـن الغرائب ما يحيِّر العقل ولا يجد إجابـة مقنعة.. فنجد في منطقة الزيتون والحلمية شـارع السلطان سـليم الأول.. الذي غزَا مصر وقضى على استقلالها عام 1517م. وبعد أن غزَا الشام وهزم جيش مصر بالخيّانة والخديعة عام 1516م في معركة «مرج دابق» شمال حلب.. ودخل مصر بعد أن هزم آخر سـلاطينها الوطنيين طومان باي.. في معركة الريدانية عند العباسـية – وأيضًا بالخيانة – أمر بشـنق «البطل المصري طومان بـاي على باب زويلة».. «كيف نُكرِّم ونسَجل اسم حاكم قضى على دولة مصر المستقلة.. على واحدٍ من أهم شوارعنا؟»!

***

إن سـليم الأول ليس رمزًا إسلاميًّا.. بل هو رمز دنيوي للاحتلال والسلطة وبناء الإمبراطورية.. ومن المؤسـف أن أكبر رمز للفقه والعلم الإسـلامي في مصر لم ينلْ الاهتمام الكافي.. باسـتثناء شارع صغير في حيّ مصر الجديدة.. إنّه الإمام المجدِّد والعالم المُحدِّث.. فقيه مصر الأكبر: الليث بن سعد.

ولد الإمام الليث بن سـعد في قرية قرقشـنده مركز طوخ محافظة القليوبية عـام 94 هجريـة.. وقـد روى عـن «التابعين» وعاصر عـددًا كبيرًا مـن «تابعي التابعين».. ونقل عنه الإمام البخاري عددًا من الأحاديث النبوية الشريفة.

جاء في «سـيَر أعلام النبلاء» للذهبي.. أن الإمام الليث بن سـعد روى عن أكثر من خمسـين رجلًا من التابعين، وأنه أدرك أكثر من مائة وخمسـين رجلًا مـن تابعي التابعين. وجاء في كتـاب «الرحمة الغيثية في الترجمة الليثية» لابن حجر العسـقلاني.. أن روايات «الليث بن سـعد» في الحديث.. عن عطاء بن أبـي ربـاح عن عائشـة بنت أبي بكر، وعبـد الله بن أبي مليكة عـن عبد الله بن

www.ibtesamah.com/vb

عباس، وعن نافع مولى ابن عمر عن عبد الله بن عمر، وعن المقبري عن أبي هريرة.. هي من أعلى روايات الحديث الشريف إسنادًا.

الإمام الليث بن سعد هو إمام الوسطية.. وهو مؤسس المذهب الفقهي الخامس.. وكان أفقه من الإمام مالك.. ولكن تلاميذه لم يحفظوا فقهه.. ويقول الإمام الشافعي: «الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به».

وفي مجمل صفاته النبيلة.. علمًا وخُلقًا.. يوجز الإمام الشافعي حين وقف على قبره: لله درّك يا إمام.. لقد حُزْتَ أربع خِصال لم يملكهن عالم: العلم والعمل والزهد والكرم.

إنْ الإمام الليث بن سعد.. الذي ولد في القليوبية وامتلك أرضًا في بورسعيد.. وكان شيخًا للديار المصرية.. أو حسب عنوان كتاب شيخ الأزهر الإمام عبد الحليم محمود «إمام أهل مصر الليث بن سعد».. إنمّا يستحق أن يحظى بالتكريم اللائق في جغرافيا الحضارة في بلادنا.

من المناسب إطلاق اسم الإمام المصري الجليل على واحدٍ من أكبر شوارعنا.. أو على طريق رئيسي في خريطة الطرق المصرية.

لقد أصدرت دار النفائس «موسوعة فقه الليث بن سعد».. وأجازت جامعات عديدة رسائل ماجيستير ودكتوراه عن حياته ورحلته.. ومن الواجب أن يكون ذلك الاسم المصري الكبير معروفًا لعامة الشعب ولزوار مصر.. من خلال إحيائه عِلمًا وتخليده مؤسسةً ومدرسةً.. وشارعًا وطريقًا.

* * *

إذا كان من الخطأ الكبير عدم تبجيل الإمام الليث على النحو اللائق.. وإذا كان من الخطأ الفادح تبجيل اسم مجرم الحرب سليم الأول.. فإن

www.ibtesamah.com/vb

ثمة مفارقة أخرى صادمةٌ في جغرافيا الحضارة في مصر.. وهي إطلاق اسم الوزير «صلاح سالم» على أهم شوارع القاهرة.. وإغفال اسم الملك «تحتمس الثالث».. أعظم حاكم في تاريخ بلادنا.

صلاح سالم هو سياسي ضعيف المستوى، ولا يكاد يذكره أحد من النخبة أو العامة في مصر. كان عضوًا في مجلس قيادة ثورة 23 يوليو 1952م.. وقبل الثورة كان شأنه شأن العديد من المصريين الذين شاركوا.. في الأعمال الفدائية والمقاومة السرية ضد الاحتلال البريطاني.

اتَّسم صلاح سالم بالضعف والفشل.. كان يتصرَّف في مجلس قيادة الثورة كمراهق غير مسئول.. وقد اعتدى على الرئيس محمد نجيب أثناء أزمة مارس 1954م.. ويذكر محمد صلاح سالم نجل صلاح سالم في حوار أجرته مجلة الشباب الأهرامية في مارس عام 2000م أن والده «كان سريع الغضب حادّ الطباع.. وأنه حين اختير للمسئولية عن القضية السودانية كانت معلوماته لا تزيد عمّا درسه في المدرسة»!

وفي حرب السويس عام 1956م.. رأى صلاح سالم ضرورة الاستسلام أمام العدوان الثلاثي.. وطلب من عبد الناصر أنْ يسلِّم نفسه للسفارة البريطانية. ويقول عضو مجلس قيادة الثورة عبد اللطيف البغدادي في مذكراته: «إن صلاح سالم ذهبَ إلى عبد الناصر وأقنعه بالانسحاب من سيناء.. ولمّا حدثت غارة جوّية كان يصرّ على أن نُغادر مبنى القيادة.. ونختفي»!

تقتضي الجغرافيا الحضارية.. تغيير اسم شارع صلاح سالم إلى شارع تحتمس الثالث.

***

www.ibtesamah.com/vb

إن شارع صلاح سالم هو أهم شوارع العاصمة المصرية.. وهو أول ما يستقبله العائد من مطار القاهرة الدولي.. ثم إنَّه يمتد عبْر القاهرة.. يمرُّ بأهم معالمها الحديثة وبعض معالمها القديمة. وليس من المنطق أن يبقى اسم صلاح سالم لمجرد وفاته مبكرًا على هذا الشارع الرمز.

إن إطلاق اسم الملك «تحتمس الثالث» على شارع صلاح سالم.. يمثل الوضع الصحيح.. حتى يتسنَّى لزوّار مصر أرض الحضارة.. أن يبدأوا أول انطباعاتهم في مصر مع اسم هذا البطل العظيم.

إن تحتمس الثالث.. هو الفرعون الأسطورة، سادس فراعنة الأسرة الثامنة عشرة.. وأحد أقوى الأباطرة على مرّ التاريخ.

قام الفرعون العظيم بتحديث الجيش المصري.. ووضع إطار تنظيمي عملاق.. جعله مرجعًا للقادة وأيقونة في العلوم العسكرية.

امتدت الإمبراطورية المصرية من النيل إلى الفرات.. ومن اليونان إلى السودان.. وهي أول أقوى وأغنى إمبراطورية في التاريخ.

امتلك الفرعون تحتمس الثالث رؤية حضارية للدولة المصرية.. وحين انتصر على ثلاثة وعشرين جيشًا في «معركة مجدو» الشهيرة.. ضمن ست عشرة حملة عسكرية مصرية على آسيا.. لم يقُم بحروب إبادة، أو تنكيل.. بل إنه حافظ على مكانة النخبة المحلية، وقام بمعاهدتها.. وأصلح من أحوال الشعوب.. وأشاع فيها الأمن والسلام.. وأخذ أبناء الأمراء إلى مصر.. للعِلم والتأهيل من أجل قيادة إماراتهم.

إن تحتمس الثالث الذي ترتفع مسلّاته في روما ونيويورك واسطنبول، وكان ملوك الحيثيين وآسيا الصغرى وبحر إيجه وجزر البحر المتوسط..

www.ibtesamah.com/vb

يُرسلون سفراءهم إلى البلاط الفرعوني بالهدايا العظيمة في خضوعٍ تام.. كان - على الرغم من قوته ومكانته - يحمِل رسالةً حضاريةً.. تضبط المسافة بين الصدام والحوار.. وبين الانتصار والاحترام.

***

إن إلغاء اسم سليم الأول.. وتعظيم اسم الليث بن سعد.. وإطلاق اسم تحتمس الثالث على شارع صلاح سالم.. ليست بالقرارات المحلية الهامشية.. بل هي قرارات ثقافية وتأسيس لمعالم حضارية.. إنها تغيير بعض عناوين بلادنا إلى العنوان الصحيح.

أمامنا خيارٌ واضحٌ.. إمّا أن يبدأ ملايين الزائرين إلى مصر.. خطواتهم الأولى ولحظاتهم الكاشفة.. في «طريق الحضارة» أو أن تكون خطواتهم في «شارع السياسة». إمّا أن يبدأَ زوَّار مصر زيارتهم وهم يحملون خرائط تحمل اسم وزيرٍ مغمور طلبَ الاستسلام أمام الاحتلال الأجنبي لبلاده.. أوْ أنَّها تحمِل اسمَّ زعيمٍ أسطوري.. وفرعون عظيم.. أسَّس أول قوة عظمى في التاريخ.. وكان رمزًا عملاقًا للحرب والسلام!

www.ibtesamah.com/vb

ما وراء القاهرة.. إضاءة الجغرافيا

حتى الإسكندرية.. لم تعُد تحظى بما يليق. أمّا مدن الدلتا والصعيد.. فقد أصبحتْ مجرد جزء من عالم المحليّات الممتلئ بالبلادة والفساد.

انكمشتْ مصر شمالًا وجنوبًا.. شرقًا وغربًا.. لتتركَّز في العاصمة.. وأصبح كل ما وراء القاهرة في الجهات الأربع.. مجرَّد أرياف وأقاليم!

* * *

حانَ الوقت لإعادة توزيع الإضاءة في بلادنا.. إلى رؤية استراتيجية لإحياء المحافظات المصرية.. وانتشالها من الإهمال واليأس.

لماذا لا تصبح الإسماعيلية «باريس الصغرى»، والمنصورة «كليفلاند مصر»، والمحلة «مانشستر مصر»، والفيوم «مصر الصغرى»، والأقصر «عاصمة العالم»..؟

* * *

لا يعرف الكثيرون أن محافظة الإسماعيلية هي محافظة أفروآسيوية.. تقع في قارتين.. جزء المحافظة الشرقي يقع في قارة آسيا، والجزء الغربي يقع في إفريقيا.

وإذا كان ذلك على صعيد الجغرافيا فإنها عظيمة المجد على مستوى التاريخ.. فقد كانت الإسماعيلية منطقة رائعة ومتحضرة قبل خمسة آلاف

www.ibtesamah.com/vb

عام.. أيْ أنَّ عُمر الحضارة في الإسـماعيلية يساوي عُمر الدولة في الولايات المتحدة الأمريكية (25) مرة.

***

كانت مدينة الإسـماعيلية تلقَّب بـ«باريـس الصغرى» لعقود طويلة.. ذلك أن الخديوي إسـماعيل أسَّسـها من حيث التخطيط والعمارة على غرار مدينة باريس الفرنسية.

تمتاز الإسماعيلية عن العالم من عدة نواح.. فالإسماعيلية تشبه إسطنبول فـي كونهـا تقع فـي قارتيـن، حيث تقـع إسـطنبول في قارتـي آسـيا وأوروبا، وهـي ميـزة لا تحظى بها فـي العالم كله سـوى محافظة الإسـماعيلية ومدينة إسطنبول.

وتمتاز الإسـماعيلية على إسطنبول بإطلالتها على ممرٍّ ملاحي أكثر أهمية مـن الممـر الملاحـي الذي تقع عليـه إسـطنبول.. تقع إسـطنبول على مضيق البوسـفور الـذي يصل البحر الأسـود وبحـر مرمـرة.. أما الإسـماعيلية فتقع على قناة السـويس التي تصل البحر الأحمر بالبحر المتوسـط.. ومن ثمَّ فهي تصـل المحيـط الهنـدي وراء البحر الأحمـر بالمحيط الأطلنطـي وراء البحر المتوسط.

تتمتَّـع باريـس بنهر السـين الرائع الذي يعتبـر المعلَم الأشـهر في جغرافيا المدينـة الأكثر جاذبية في أوروبا.. لكن جغرافيا المياه في الإسـماعيلية تفوق باريـس جمـالًا واتسـاعًا. فـي الإسـماعيلية ضفتا القنـاة وترعة الإسـماعيلية والبحيـرات المـرة وبحيـرة التمسـاح.. وفيهـا منتجعـات فايـد وأبوسـلطان والفنارة.. إن اتساع ترعة الإسماعيلية يعادل اتساع نهر السين.

***

تصِل مساحة مدينة الإسماعيلية إلى (1300) كم2 وهي تعادل ضعف مساحة دولة سنغافورة، ويسكن المدينة نصف المليون نسمة، وتتمتع بأجواء رائعة طيلة العالم.. فهي مصيف ومشتى في آن واحد، وهي تتوسط المسافة بين السويس وبورسعيد، وتبعد عن القاهرة بنحو ساعة واحدة.

إن حجم الثراء الحضاري في الإسماعيلية يكاد لا ينتهي.. خمسة آلاف سنة حضارة.. مدينة أبوصوير الضاربة في أعماق التاريخ الفرعوني، تلّ الصحابة، وبها آثار من عهود الهكسوس واليونان والرومان، وهناك أيضًا: «تل النعايمة وتل العمدة وتل الكفرية وتل أبوصيفي وتل الحبر وتل حسن وتل الكوع وتل أبونشابة وتل البحر وتل الشيخ سليم وتل الرطابي.. والتل الصغير والتل الكبير».. إن الإسماعيلية تمتد عبر مساحة عملاقة من الزمن.. تبدأ من «عصر ما قبل التاريخ».. لتصل إلى مواقع شهدت الحرب العالمية الثانية وحرب أكتوبر.

* * *

لقد حاول آلاف من شباب الإسماعيلية أن يعيدوا مدينتهم إلى سابق مجدها.. وجعلوا شعار حملتهم: «الإسماعيلية.. باريس الصغرى». كان هؤلاء الشباب في حالة إحباط شديد من حجم الانهيار الذي أصابَ الإسماعيلية.. أصبح كل شيء سيئًا تقريبًا.. تحولت المدينة الأجمل إلى مدينة تعاني الفقر والفساد.. هبطت «باريس الصغرى» إلى مدينة بائسة.. كأنها تقع جنوب الصحراء.

يجب نقل الإسماعيلية من الحاضر المؤلم.. إلى المستقبل الذي يليقُ بالماضي. إننا إزاء محافظة ومدينة لا تحتاج إلى جهد في التسويق ولا كفاح

www.ibtesamah.com/vb

في الترويج. إن الإسماعيلية التي تمتاز على باريس وإسطنبول.. يمكنها أن تعود.. إن الماضي الساحر يمكن إعادته أكثر رونقًا وحداثة.

* * *

لقد سبقَ لي أن طرَحتُ الإطار الأشمل لفكرة «الإسماعيلية.. باريس الصغرى» متوازيًا مع طرحي «المنصورة.. كليفلاند الشرق الأوسط».. أثناء محاضرتي التي ألقيتُها أمام الجالية المصرية في دولة الإمارات العربية المتحدة.. ولقد وجدتُ استحسانًا وتأكيدًا.. بل تطويرًا لما أطرح وأتحدّث.

* * *

تقع مستشفيات «كليفلاند كلينيك» الشهيرة في ولاية أوهايو.. وتحظى بسمعة قوية داخل الولايات المتحدة وخارجها.. ويعرفها المواطنون في الدول العربية من خلال متابعة الرحلات العلاجية لكبار المسئولين والمشاهير عبْر الأطلنطي.

وقد توسَّعت المراكز الطبية في كليفلاند.. فأسست موقعًا في فلوريدا، ثم فرعًا آخر في تورنتو في كندا.. وأصبحت تدير مراكز طبية كبرى في الخليج العربي على النحو الشهير في عالم الفنادق.. حيث ملكية المباني لأصحابها وأما الإدارة العالمية فهي للاسم التجاري العالمي «كليفلاند كلينيك».

* * *

إن السؤال: لماذا لا تصبح «المنصورة كلينيك» أو «مدينة المنصورة الطبية» هي العاصمة الطبية لمنطقة الشرق الأوسط؟

إن جامعة المنصورة تقع على مساحة تعادل كبريات الجامعات في العالم، حيث تمتد منشآتها على مساحة (300) فدان.. ويدرس فيها أكثر من (120) ألف طالب، وفيها (35) مكتبة تضم ثلث المليون كتاب.

www.ibtesamah.com/vb

وتضمُّ جامعة المنصورة مركز الكلى الأول في الشرق الأوسط، وأنجز أساتذتها أكثر من (600) بحث علمي جرى نشرها في مجلات لها مكانة دولية مرموقة.. ويدرُس فيها أكثر من (700) طالب أجنبي درجتي الماجستير والدكتوراه.

كما تضمُّ الجامعة عددًا من المراكز الطبية المتميزة، وتضمُّ عددًا من المرافق والخدمات التي تعادل نظيراتها في الخارج.. من القرية الأوليمبية إلى «فندق رامادا».. الذي يسع ثمانينَ غرفة وثمانية أجنحة.

* * *

إن مدينة المنصورة التي تضم «كليفلاند الشرق الأوسط» المرتقبة هي مدينة عالمية بامتياز إذا توفَّرت لها الرؤية والإرادة.. يتوسَّطها نهر النيل، وتضم استادًا وناديًا رياضيًّا كبيرًا، كما تضم أندية اجتماعية راقية مثل «نادي الحوار» و«نادي جزيرة الورد».

وأما تاريخ المدينة فهو يفوق أضعاف تاريخ أوهايو.. فتاريخ المنصورة يعادل تاريخ الولايات المتحدة (4) مرات.. تأسَّست المنصورة عام 1219 ميلادية ويصل عمرها إلى (800) سنة.

وقد شهدت مدينة المنصورة، التي تضم نصف المليون نسمة، وتبعد عن القاهرة تسعين دقيقة.. مراحلَ حاسمة في الحروب الصليبية.. ففيها تم أسْر ملك فرنسا الشهير «لويس التاسع».. وفي سمائها شهدت المنصورة أقوى المعارك الجوية بين الجيش المصري المنتصر والجيش الإسرائيلي المهزوم.. في حرب عام 1973م.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

يمكن للمنصورة، التي أنجبت الطبيب الكبير نجيب باشا محفوظ، والعالم الأديب الدكتور أحمد مستجير، والجراح العالمي الدكتور محمد غنيم، وعالم الفضاء العربي الأشهر الدكتور فاروق الباز ـ يمكنها أن تصبح المدينة الطبية الأولى في الشرق الأوسط.

المعادلة ليست مستحيلة.. المدينة عالمية ولكن الإدارة بدائية، التاريخ عظيم والحاضر محدود.. العالم هناك ونحن هنا.

* * *

يمكن لـ«المنصورة كلينك» أن تمتدّ مثل كليفلاند لتعمل مع «مستشفى طنطا العالمي».. وإلى معهد الكبد في المنوفية، ومعهد الكبد في المحلة الكبرى.. وكلا المعهدين في المنوفية والمحلة الكبرى ذو مستوى رفيع. وأما «مستشفى طنطا العالمي» الذي يعلوه مهبط لطائرات الهليوكوبتر فهو يضم ألف سرير.. وهو الحجم نفسه للمستشفى الرئيسي في كليفلاند أوهايو.. كلاهما يضم (1000) سرير.

* * *

يمكن لمدينة طنطا – بدورها – أن تعود إلى سابق عهدها.. تاريخًا، وإلى ما يليق بها الآن.. مكانةً.. تحتاج طنطا إلى حركة ثقافية وسياحية كبرى.

* * *

في طنطا جامعة ومحطة تليفزيون وإذاعة.. وفيها أيضًا أكبر مستشفى في مصر.. وواحدة من أعرق محطات السكة الحديد في الشرق الأوسط.

وقد تأسَّست في الآونة الأخيرة مكتبات حديثة.. وأُقيم مهرجان طنطا الدولي للشعر.. ويسعى عدد كبير من المثقفين لتحويل مسرح البلدية.. الذي

www.ibtesamah.com/vb

يُعدّ واحدًا من أروع المنشآت الثقافية والتاريخية.. إلى دار «أوبرا طنطا».. ويسعى آخرون لتطوير الحركة السياحية وتأسيس فندق «هيلتون طنطا».

***

بينما تبدو طنطا مكانًا للأمل.. فإنَّ الأمل ينحسِر تدريجيًّا خارجَها. وحين يأتي العامّة لزيارة ضريح العارف بالله السيد البدوي، والصلاة في الجامع الأحمدي، يمكنكَ أن تسمعْ أوجاع البسطاء.. ودعاء المحرومين.

يعاني صغار الفلاحين من تحدياتٍ غير مسبوقة.. حيث لم تعدْ لحرفة الزراعة التي ورثوها عن أجدادهم الفراعنة.. أيّة قيمة اقتصادية. ويفكِّر ملايين الفلاحين في «خروج آمن» من الزراعة إلى غيرها.. ومن الأرض الزراعية وما عليها.

لم تعُد الزراعة نشاطًا اقتصاديًّا.. ولم تعد وزارة الزراعة تعرف شيئًا عن آليات الحلّ.. وأمّا الجمعيات الزراعية وغيرها.. فلم تعد ذات جدوى حقيقية.. وأصبح الفلاح الحلقة الأضعف في منظومة الزراعة المصرية.

قال لي بعضهم: لقد حرثنا الأرضَ وهي مزروعة بالقمح.. وزرعنا بدلًا من القمح.. البصل، لأننا حسبنا التكاليف.. ووجدنا أن زراعة القمح تعني الخسارة المؤكدة.. ومن المؤكد أننا لن نعود لزراعته مرةً أخرى!

يقول الفلاحون - إذن - إنهم قد لا يعودون لزراعة القمح، في بلدٍ يستورد الغذاء.. وفي منطقةٍ تمتلئ بالحروب والسلاح، وتتزايد فيها احتمالات الانزلاق نحو حافة الهاوية!

***

في المحلة الكبرى.. مدينة الصناعة التي تحيطها الزراعة.. ويقع «متجر كارفور طنطا» على طريقها.. تبدو الصورة معقدة هي الأخرى.

www.ibtesamah.com/vb

في المحلة الكبرى.. والتي كانت «مانشستر مصر» ذات يوم.. لم تعد عاصمة النسيج مزدهرة كما كانتْ.. فلا المصانع تطورتْ.. ولا الماكينات تبدّلتْ.. لا الاستثمارات جاءتْ ولا الأرباح تحققتْ. بينما ينشط اليسار المتطرف لإثارة المدينة ودفعها إلى الانفلات.

وإذا كانت السياسة توجِب حلولًا سريعة لوضعٍ يجري دفْعُهُ من خصوم الدولة إلى الانفجار.. فإن الاقتصاد يوجِب بحثَ رؤيةٍ جذرية.. لا لأن تهدأ المحلة لسنوات.. بل لأن تزدهر المحلة لعقود.

***

تحتاج مصر إلى الإضاءة خارج القاهرة.. إلى إلغاء تلك الرؤية الركيكة حول «مدن الأقاليم» و«المحافظات» و«الأرياف» و«الصعيد».

إن اختزال مصر في العاصمة.. هو تدمير منظَم للجسد المصري.. الاكتفاء منه بالقلب.. والإطاحة بباقي الأعضاء!

إن «دافوس» في سويسرا و«كان» في فرنسا نموذجان لصناعة المدن الكبرى من لا شيء.. وفي مصر جرى صناعة لا شيء من «المدن الكبرى».

في مصر.. جرى تجريف المدن الكبرى.. والمعالم الحضارية.. ودفعها إلى مستوى العالم الرابع.. وفي «دافوس – سويسرا» و«كان – فرنسا» جرى صناعة الأسماء الكبرى من «لا شيء».

ببساطة.. عندنا تاريخ بلا إضاءة.. وعندهم إضاءة بلا تاريخ!

www.ibtesamah.com/vb

الظُلُمات الثّلاث

لا مستقبل سياسي لبلادنا من غير الاقتصاد، ولا مستقبل اقتصادي لبلادنا من غير العلم.. ولا مستقبل علمي لبلادنا من غير التعليم.

إنه التعليم إذن.. أساس المشروع الحضاري المصري.

* * *

يواجِه التعليم في مصر محنةً كبرى.. جانبٌ من هذه المحنة يتعلق بالمدرِّس، وجانبٌ منها يتعلق بالمدرسة.. ولكن الجانب الأكبر من المحنة هو القوة الناعمة «الفاشلة» في مصر. ذلك أن أي تعليمٍ وأيّة منشآت تعليمية لا يمكنها أن تصمُد في وجه هذا المستوى من الإعلامٍ.. والسينما والدراما.

لا يمكن لأيّ ضوءٍ مهما كان وهجُه، ومهما كانت كثافتُه.. أن ينير الكثير وسط هذه الظلمات الثلاث. ما المعنى في أن تتطور المناهج، ويتأهَّل المدرس.. وترتقي المدرسة.. ثم يذهب التلاميذ والطلاب إلى السينما فيشاهدون كل هذا الكم من التدمير العقلي والأخلاقي.. أو أن يجلسوا في المنزل فتتوالى أمام أعينهم مسلسلاتٍ رخيصة.. وبرامج ركيكة.. تعمل جميعها على نسفِ العملية التعليمية برمتها.

إن ما يتعلمه طلابُنا بالنهار يأتي عليه إعلامنا بالليل.. يُصبح التلميذ في مصر على إشراقةِ الأمل.. ويُمسي على ظلام اليأس.. تَمضي الشاشة الصغيرة والكبيرة بـ«أستيكةٍ» عملاقةٍ على الفصول والمكتبات!

* * *

www.ibtesamah.com/vb

إن إصلاح التعليم يبدأ من الشاشة.. ما الذي يمكن أن يزرع الطموح.. ويؤسس القيم لدى طلابنا.. إذا كان المثل الأعلى شخصًا تافهًا، أو فنانًا رخيصًا،أو بطلًا مجرمًا؟ ما الذي يُقنِعه بالتعليم والاجتهاد ليصبح طبيبًا أو مهندسًا أو محاسبًا أو ضابطًا أو قاضيًا.. إذا كان الجهلاء يكنزون الملايين بينما هو في هذه الوظائف.. إذا تمكَّن منها.. لن يتجاوز الحد الأدنى للحياة بكثير؟!

ما هي القيمة التي تعوِّض تلاميذنا.. إذا ما سهروا الليالي مذاكرةً واطلاعًا.. وإذا ما كانت وظائفهم في المستقبل لن تكون شيئًا.. إلى جوار ملايين وشهرةٍ ونفوذٍ يمتلكها الذين لا يعلمون ولا يعملون؟!

ما الذي يُغري الموهوبين للإبداع والابتكار.. إذا كانت إبداعاتهم ستلقَى حتفَها عند جهلاء أو بؤساء.. لا علم عندهم أو لا حيلة لهم؟.. ما الذي يُغري الموهوبين الأبرياء للعمل الجاد.. في مجتمعٍ يتصدّر فيه تحالف السفهاء من الناس؟!

***

إن الأمل صناعة.. ليس الأملُ قوةً شخصية أو طاقةً نفسيّة فحسب.. بل إن «صناعة الأمل» مثل الصناعات الثقيلة.. خططٌ ومواردُ.. معرفةٌ وعزيمةٌ. وإذا فقدتْ الأجيال الجديدة الأمل.. فإننا نصبح أمام وطنٍ يتآكل.. مستقبلُهُ وراءه.. سيرتع كبار السن والمكانة بضَع سنين.. ثم تتسلم الأجيال الجديدة.. وطنًا مهزومًا من داخله.. هزَم نفسه بنفسِه.. دون حاجةٍ إلى عدوٍّ خارجي.

إذا فقدتْ الأجيال الجديدة الأمل.. فانكفأت على ضلالات التواصل الاجتماعي.. أو غابت في خيالات الدخان الأزرق.. أو ذهبَت إلى أعداء الدين والحياة.. ناقمةً ومنتقِمةً.. أو اعتكفتْ أمام أبواب السفارات بحثًا عن

www.ibtesamah.com/vb

تأشيرة خروج.. أو تجمّدتْ في أمواج البحر هربًا من المجهول إلى المجهول. إذا فقدتْ الأجيال الجديدة الأمل.. يصبح الأمن القومي كله في خطر.

* * *

أدركُ تمامًا حجم الجهود المخلصة لاستعادة الأمل في بلادنا.. بعد أن كادتْ تنزلق خارج التاريخ.. ولكن ربّما يتوجّب التكرار من جديد: إنَّ حلَّ السياسة في الاقتصاد، وحلَّ الاقتصاد في العِلم.. وحلّ العلم في التعليم.. ونكبة الجميع في الظلمات الثلاث.. السينما والدراما والإعلام. نكبة الجميع في أبطال الظلمات الثلاث.. المجرمون والمدمنون والبغايا!

* * *

إن المشروع الحضاري المصري.. لن يتمكن من المُضيّ قدمًا.. إذا استمر طغيان الشاشات على المكتبات.. والبرامج على المدارس.. وإذا ما جفّت الأحلام في عيون الصغار!

www.ibtesamah.com/vb

إهدار الذكاء العام أخطر من إهدار المال العام..

حُكم الأقليّة الذكيّة

في تقديري.. هذه هي المعادلة العملاقة والبسيطة لصناعة الحضارة المعاصرة: فيزياء + رياضيات = اقتصاد + سلاح = حضارة.

***

ما نشرتهُ الصحف عن تراجع مصر في «خريطة الذكاء في العالم».. كان صادمًا للكثيرين. تبدأ الصدمة من كتاب «آماندا ريبلي» الذي صدر حديثًا بعنوان: «أذكى الأطفال في العالم».. والذي لم يتضمن مصر ضمن الدول الثلاثين الأولى في العالم.

ثم تكررت الصدمة مع نشر الصحافة العالمية مقالٍ بعنوان: «الدول الـ(25) صاحبة القدرات العقلية الأكبر في العالم».. والذي لم يتضمّن مصر في هذه الدول.

وقد جاءت الدول الـ(25) كالتالي: 1- اليابان، 2- أمريكا، 3- الصين، 4- كوريا الجنوبية، 5- تايوان، 6-ألمانيا، 7- فرنسا، 8- ڤيتنام، 9- روسيا، 10- بريطانيا، 11- بولندا، 12- كندا، 13- إيطاليا، 14- استراليا، 15- سنغافورة، 16- تركيا، 17- هونج كونج، 18- هولندا، 19- بلجيكا، 20- أسبانيا، 21- سويسرا، 22- التشيك، 23- تايلاند، 24- نيوزيلاندا، 25- فنلندا.

***

www.ibtesamah.com/vb

إن ترتيب التعليم في العالم في عام 2015م لم يشمل – هو الآخر – مصر ضمن أفضل (70) دولة.. وقد شكّل هذا الترتيب صدمةً أكبر لبلدٍ كان منارة التعليم والبحث العلمي.. وكانت مدارسه وجامعاته تفوق مثيلاتها في بعض بلدان أوروبا.

وممّا يزيد الصدمةَ قوة وألمًا.. هو تصدر دول آسيوية المراكز الأولى في العالم.. في حين أنها حسب دراسة لجامعة بوسطن كانت بلا نظم تعليمية في زمن حكم الرئيس الأسبق حسني مبارك!

***

ثمّة اعتقاد سائد أن الطفل المصري هو أذكى طفل في العالم.. لم يعُد ذلك دقيقًا في الوقت الحالي.. ربّما كان الطفل المصري هو الأذكى في العالم حتى يدخل التعليم.. فيخرج من المستوى الرفيع في البدايات إلى المستوى الرديء في النهايات.. ذلك أن الترتيب السيئ لنظام التعليم هو بلاشك أدنى من ترتيب الذكاء الفطري للتلاميذ المصريين.. وكأننا إزاء معادلةٍ بغيضةٍ واضحةٍ: يولد الطفل المصري بالغ الذكاء حتى يدخل المدرسة!

إن ذكاء الأطفال المصريين تحوّل إلى «شقاوة» و«شغب» و«بلاغة» و«خفّة ظل» وتفوق في «وسائل التسلية الإلكترونية» على نحو مبهر.. لكن ذلك كله لا يصبُّ في صالح الدولة والمجتمع.

لم تسفر «الشقاوة» و«الذكاء الفطري» للتلاميذ المصريين عن تفوق في ترتيب الذكاء أو تميز في ترتيب مستوى التعليم.. ما حدث هو: «إهدار الذكاء العام».. وهو أخطر كثيرًا كثيرًا من «إهدار المال العام».

إن واحدًا من أفضل التفسيرات الأمريكية لبقاء أمريكا الأقوى بلا منافس – رغم تراجع ترتيبها في مستويات الذكاء والتعليم – هو أن المعيار الأهم

www.ibtesamah.com/vb

هـو: ليس فقط عدد الأذكياء ولا ترتيب الـذكاء العالمي.. بل هو: «ماذا يفعل الأذكياء في هذا البلد؟».

يقـول الأمريكيون إن أمريكا هي الأقوى.. لأن الجزء الذكي – ببسـاطة – هو الذي يدير.. وهو الذي يخطِّط ويقرِّر.

ما حدثَ في مصر عبر العقود الماضية هو تراجع مسـتوى الذكاء، وإزاحة الأذكيـاء قـدر الإمـكان مـن المؤسسـات والهيئـات والشـركات والكثير من مكونات البلاد.

إن قوة أمريكا ليسـت في «حكم الأغلبية الديمقراطية»، ولكنها في «حكم الأقلية الذكية». ومن حسـن حظ أي بلدٍ فـي العالم أن يدير الأذكياء الاقتصاد والسياسـات العامـة في بلادهم. ومن سـوء حـظ أي بلدٍ أن يتم رمـيْ الأقلية الذكية في غياهب البيروقراطية، بينما يتولّى «تحالف الجهلاء» ملء الفراغ.

***

تبذل بلادنا جهدًا واضحًا من أجل إتاحة مساحة أكبر للأذكياء.. للاضطلاع بدورهم. لكن «التمكين» الذي كان للأغبياء.. هو تمكينٌ عميقٌ وعنيفٌ.

يحتـاج الإصلاح الحضـاري الذي يمكنُه أن يطيحَ بذلـك التاريخ الرديء مـن سـطوْة الغبـاء.. وأن يفسِـح المجال فـي كافـة المؤسسـات.. إلى حكم «الأقلية الذكية».

www.ibtesamah.com/vb

عِلم الرياضيّات

حصلت العالِمة الإيرانية «مريم ميرزاخاني» على أكبر جائزة في «علم الرياضيات» في العالم «نوبل الرياضيات». وأعلنت إسرائيل «ثورة في علم الرياضيات»، وأسّست لأجل هذا الغرض «مجلس الرياضيَّات».. وقال وزير التعليم الإسرائيلي: إن «علم الرياضيات» يمثل جزءًا أساسيًّا من الأمن القومي.

وفي روسيا.. أعلن الرئيس فلاديمير بوتين ثورة مماثلة.. وقال المسئولون الروس: إن «علم الرياضيات» سيسمح لروسيا بالوصول إلى أهدافها الاستراتيجية.. واحتلال مواقع رائدة في الاقتصاد والعلوم.

* * *

يُعدّ «علم الرياضيات» علمًا رائعًا.. ويقول بيان الحكومة الروسية في هذا الصدد: «يجب الاستفادة من جَمَال الرياضيّات، وطابِعها الجذّاب».

ولكن «علم الرياضيات» ليس كذلك في مصر.. حيث يتفادى الطلاب ذلك العلم.. وأغلب طلاب العلوم يروْن في علم الرياضيات علمًا معقدًا ومزعجًا.. وخاليًا من الجاذبية، وفاقدًا لأيّ جمال.

وبينما يمثل «علم الرياضيات» في الدول المتقدمة مدخلًا لتطوير العقل، ورِفعة التفكير.. فإنه يمثل في مصر مدخلًا.. للدروس الخصوصيّة!

* * *

www.ibtesamah.com/vb

يكْره معظم التلاميذ في بلادنا «علم الرياضيات».. ولا يحظى مدرّسو الرياضيات بالشعبية الكافية.. ويتمُّ النظر إلى «مادة الرياضيات» باعتبارها عقبةً أمام العائلات.. وهم ينفقون على تعليم أبنائهم.

ولكن «مجلة علم الأعصاب» الدولية المرموقة.. تذهب إلى أن ذلك العِلم ممتلئ بالروعة والجمال.. وأن دارسي الرياضيات الأذكياء يروْن في «المعادلات الرياضيّة».. لوحة فنيّة رائعة، أو مقطوعة موسيقية ساحرة!

وتذكر المجلة.. أن دارسي الفيزياء والرياضيات يروْن في «المعادلات الجميلة» لنظرية النسبية.. رومانسية لا متناهية!

***

يجد دارسو الرياضيات متعةً فائقةً في محاولات حل المسائل الرياضية الفائقة التعقيد.. وهي مسائل قد تستغرق عشرات السنين في حلّها.

ومن المثير أن يحاول كل علماء العالم في كل السنين حلّ مسألة بعينها.. إلى أن تمكّن أحدهم من تحقيق المفاجأة.. والوصول إلى الحلّ!

ومؤخرًا.. تحدَّث الإعلام عن عالِم الرياضيّات الروسي «بيرلمان».. الذي أبهر العالم في «الهندسة ثلاثية الأبعاد».. وتمكّن من حلّ «مسألة بوانكاريه».. إحدى أصعب المسائل الرياضية التي حيّرت العالم أكثر من مائة عام!

***

تتنافس روسيا والصين والولايات المتحدة على التفوُّق في علم الرياضيات.. وتدرك الدول الكبرى.. أن ذلك العلم هو الأساس في أبحاث

www.ibtesamah.com/vb

الفضـاء والفلـك وصناعات السـلاح.. كما أنَّه الأسـاس في العلـوم الطبيعية والإنسانية المعاصرة.

أطلقت روسيا ثورتها الجديدة في المدارس الابتدائية وما بعدها.. انطلقت الثورة على صعيد: أعداد التلاميذ، ومسـتوى المدرسـين، وحداثة المناهج.. لأجل الوصول للهدف الاستراتيجي الموضوع.

وفـي إسـرائيل أعلنـت وزارة التعليم «ثورة فـي علم الرياضيـات»، وقال وزيـر التعليم: «إن اسـتيعاب التلاميـذ للرياضيّات هو أهمّ هدف استراتيجي للوزارة».

أضافـت الحكومة الإسـرائيلية سـاعاتٍ طويلـة لتدريـس الرياضيات في المرحلـة الثانويـة.. كما أنها عقدتْ لقـاءاتٍ بين تلاميذ الرياضيّات ورؤسـاء الشركات.. وقررت تحمّل كافة المصاريف لتلاميذ الرياضيات المتفوقين.

أسَّستْ الحكومـة - أيضًـا - «مجلـس الرياضيـات» مـن كبـار الخبـراء، ومؤلفي المناهج، وأحد الحائزين على جائزة نوبل في الاقتصاد.

وقال وزير التعليم الإسرائيلي: «إن عدد الطلاب المتفوقين في الرياضيّات هبـط مـن (13) ألـف طالـب إلـى (8) آلاف طالـب.. بينما يزيد عـدد طلاب الرياضيـات فـي إيـران.. ولكـن لا ينبغي الاستسـلام لهذا الواقـع».. «العجز المالي يمكن إصلاحه.. ولكن العجز التعليمي لا يمكن إصلاحه».

***

إن «حـرب الرياضيات» هي الحرب ذات الأولوية التي يجب أن تخوضُها مصر.. وهي جزءٌ من «حرب العِلم في العَالم».

www.ibtesamah.com/vb

يحـاول «الأغبيـاء والعمـلاء» دفْـع مصر إلـى معـارك تعود إلـى العصور الوسطى.. حتى لا نخوض معارك القرن الحادي والعشرين.

إنهـم يبذلـون الجهـد لكـيْ نتعثّـر فـي مخلَّفـات التطـرف والإرهـاب.. فلا ننطلِق إلى آفاق العلم والمعرفة.

هيَ معركةٌ واحدةٌ.. إن الحرب على التطرُّف لا تستهدف فحسبْ مكافحة المجرمين.. بل هي حربٌ أوسـع وأخطر.. هي حـرب الانتقال من «العصور الوسـطى» إلـى «العصور الحديثة».. هـي حرب الانتقال مـن «الفوضى» إلى «علم الرياضيات».

www.ibtesamah.com/vb

التعليم الأجنبي.. طائفة البُدون في مصر

تعرِف بعض الدول العربية «طائفة البدون» وهم أناس يعيشون في الدولة.. ولكنهم لا يحمِلون جنسيتها ولا جنسية غيرها.. إنهم «طائفة البدون جنسية».

في مصر.. لا توجد طائفة البدون على هذا النحو، ولكن طائفة البدون في بلادنا.. أعني بها أولئك الذين يملكون الجنسية ولا يملكون الانتماء.

وفي تقديري.. فإن التعليم الأجنبي هو رافد رئيسي في تعظيم طائفة البدون في مصر.

* * *

سمعتُ من الدكتور أحمد زويل مراتٍ عديدة أنه لا توجد دولة في العالم فيها كلّ هذا الكم من التعليم الأجنبي.. ولا كلّ هذا العدد من الجامعات والمدارس الأجنبية.

ولقد تأملتُ ما سبقَ أن سمعتُ من الدكتور زويل قبل أعوام.. لأجد أن عملية «أجْنَبَة مصر» تمتد من مساحةٍ إلى أخرى.. ودون توقُّف.

* * *

قابلتُ عددًا من طلاب الجامعة الأمريكية في القاهرة.. ودار بيننا حديث عن الأصول الاجتماعية لكل واحد منهم طبقًا لمستوى التعليم الأجنبي الذي

www.ibtesamah.com/vb

حصل عليه. وقال لي أحدهم: نحن لا نعتبر أنفسنا مجتمعًا تعليميًا واحدًا في الجامعة الأمريكية، ونحن نُفرق بين خريجي مدارس كذا وكذا.. وبين خريجي المدارس الأخرى، وحتى داخل المدارس الأجنبية الخمس الأعلى سعرًا.. يجرى التمييز بين كل مستوى!

لا يقوم هذا التمييز على أساس التميّز.. بل على أساس ما أنفقه الآباء في المدارس.. التي باتت تحصل على مصروفات تعادل مصاريف الدراسة في جامعة هارفارد!

* * *

أصبحت العائلات المصرية تتباهى بالتعليم الأجنبي، وأصبح الطلاب في كل مؤسسة تعليم أجنبي ينغلقون على أنفسهم في «جيتو» خاص بهم.. وبعيدًا عن الآفاق الرحبة المفتوحة للوطن الكبير.

لم يعد للتعليم المكانة الأهم.. بل للرفاهة والمستوى المترف الذي يتمتع به الطلاب!

أصبحت المدارس الأجنبية تبالغ في قواعد القبول المالي والاجتماعي.. وأصبحت مقابلات أولياء الأمور قائمة على الاستعراض غير الجاد.. من أجل تبرير الحصول على الكثير من الأموال.

* * *

أخذ التيار الإسلامي المتشدد عددًا كبيرًا من المدارس الخاصة والأجنبية، وأخذ التيار المتأمرك عددًا كبيرًا هو الآخر.. ليصبح عشرات الآلاف من التلاميذ أسرى «التطرُّف» أو «الأمركة».. على مدار سنوات النشوء والارتقاء.

www.ibtesamah.com/vb

ومـع الوقـت لـم تعُـد القيـم المصريـة، ولا الهويـة العربيـة حاكمـة لهذا التعليـم.. كمـا لم تعُد قيم الإسـلام المعتدل والمبـادئ الوطنية.. حاضرة في تكوين الخريجين.

* * *

إن مـن يتابـع ذلك الكـم الهائل من «الـكلام الفارغ» الـذي يلوكه خريجو التعليم الأجنبي على «الفيس بوك» سيُصاب بالذهول.

سوف يتسـاءل العقلاء ذات يوم: هل هذا ما فعله التعليم الأجنبي بأبنائنا؟ هـل دفعنـا كل هـذا المـال من أجل هـذه النتائـج؟ هل هـذه «اللغـة الهابطة» والتعليقات الرخيصة.. هي ما دفعنا لأجله؟!

إنَّ بعـض العائلات يُسـعدها أن تدفـع أبناءها خارج تقاليدهـا.. كيْ تفخر بأنهـم مـع زملائهم يمثلـون روح العصر.. كمـا أن بعض الأسـر التي تمتلك المال باتت مسـتعدة لدفع أي ثمن.. في سـبيل أن تتباهى بـأن أبناءها خريجو مـدارس وجامعـات أجنبيـة، وأنهـم زمـلاء لأبناء فـلان وفلان من المشـاهير والشخصيات المهمة!

ثـم إنهم يتفاخـرون كثيرًا بأن أبناءهـم لا يجيدون الكتابة باللغـة العربية.. وكثيرًا ما تسمع جملة.. «إنَّهُ يتحدث اللغة العربية جيدًا ويفهم معظم الكلام.. لكنَّه لا يستطيع الكتابة».

* * *

انكسَـر المجتمـع.. وتفتَّتَتْ الكُتلـة العامة الحاكمة لـه.. وحَكَمَ الأجانب بلادَنا.. ذلك أنهم حكَموا عقولَنا.

فـي العالـم كلـه.. يأخـذ الناس أفضل مـا فـي الأجانب.. وفـي الولايات المتحدة يأخذون صفوة عقول العالم عندهم.

www.ibtesamah.com/vb

إن التعليم الأجنبي له دور مهم في تقدم العديد من الدول.. ولكن أغلبه في مصر.. يأخذ بعض المظاهر غير الجادة من الغرب.. دون أن يأخذ ما ينبغي من المنهج العلمي.. والانضباط المؤسسي.. والطموح الجاد.. والإنجاز الحقيقي.

أصبحَ التعليم الأجنبي في مصر.. جزءًا من التسويق للمستوى الاجتماعي، والترويج لما أصبحت عليه العائلات من غنى وثراء.. لتصبح بلادُنا منكوبة مرتيْن.. مرةً لأن الأجانب باتوا يحكمون مصر عبْر التعليم والإعلام.. ومرةً لأننا لم نأخذ من الأجانب أُسُس حضارتهم.

لم نأخذ سيَر العلماء في الاجتهاد والإبداع.. بل أخذنا طرائق السفهاء في احتقار الهوية وكسْر الانتماء.. والنظر إلى كل ما هو «وطني» باعتباره «بلدي».. وكل ما هو «أجنبي» باعتباره «عصري».

التعليم الأجنبي - على النحو القائم في بلادنا - يمكن أن يكون خطرًا على الأمن القومي المصري.

إنَّ إعادة النظر في حجم ودور التعليم الأجنبي.. وإعادة توظيفه علميًا ووطنيًا.. هو ضرورة أساسية في المشروع الحضاري المصري.

www.ibtesamah.com/vb

تقسيـم جـامعة القــاهرة

لماذا يصل عدد الجامعات الحكومية إلى نحو (20) جامعة فقط؟ لماذا لا تصبح مائة جامعة حكومية أو أكثر؟ لماذا هذه الإمبراطوريات الشاسعة؟ وهذه الأعداد الهائلة من الطلاب؟

إن تضخُّم الجامعة في مصر جعل منها منشأة إدارية مترهلة.. أكثر منها مؤسسة علمية منضبطة. وليس من الحكمة أن يكون «مجمع التحرير» هو النموذج المؤسَّسي في البلاد.. وأن تنتقل «الجماهير الغفيرة» من الميادين والشوارع إلى المدرجات والقاعات.

حانَ الوقت لإعادة النظر في التعليم العالي المصري.. ولوضع «خريطة طريق» لإعادة الجامعات الحكومية إلى سابِق مجدها.

* * *

تخرَّجتُ في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة.. وأشعر بفخرٍ دائم أنني قد حظيتُ بالتعليم في هذه الجامعة العظيمة.

تلقيتُ مع زملائي في قسم العلوم السياسية والأقسام الأخرى تعليمًا رائعًا.. ولم نشعر لحظة أن خريجي العلوم السياسية في أكبر جامعات العالم يمتازون علينا في شيء، وحين دَرَسَ بعض زملائي في جامعات الصفوة في

www.ibtesamah.com/vb

الولايات المتحدة وأوروبا.. لم يشعروا قطّ أنهم قادمون من «أدنى» إلى «أعلى».

مضتْ سنوات على تخرجنا وزادتْ الأعداد، وتقاوم الكلية المرموقة التي طالما اشتهرت بلقب «هارفارد مصر».. من أجل خفض الأعداد دون جدوى.

أرادتْ الحكومة تحويل «كلية النخبة» في مصر.. إلى «كلية» من بين الكليات التي عليها أن تشارك في اقتسام الزحام.

لم تدركْ الحكومات المتعاقبة.. أن ذلك من شأنه إضعاف المكانة الساميّة لإحدى أفضل كليات الاقتصاد والعلوم السياسية في العالم الثالث.. ذلك لأنها ببساطة لم تملك أيّة رؤية للتعليم العالي.. ولا أيّة استراتيجية لمنظومة الجامعات.

* * *

كان كل ما يهم الوزراء والمسئولين المتعاقبين هو كيف يمكن «تسكين» خريجي الثانوية العامة في الجامعات المصرية.. وكيف يمكن «حشْر» الآلاف المتزايدة في «مليونيّة» القاعات والمدرجات البائسة.

لم تعمل الحكومات ووزارات التعليم العالي والمجالس العليا للجامعات في أغلب الأحوال إلا لأجل هذا «الهدف البدائي».. «توزيع الطلاب على الفصول»!

كانت الاجتماعات الأكثر أهمية على مدار العام.. تلك المتعلقة بعملية تنسيق الجامعات.. وترتيب المراحل طبقًا للأعداد، وتحديد حجم الإطاحة ببعض الطلاب من الجامعات إلى المعاهد.

www.ibtesamah.com/vb

وعلى الرغم من أن كلمة «معهد» تشير في العالم المتقدم إلى كبريات الجامعات العلمية.. وفي ترتيب حديث للجامعات - مؤشر التايمز - كان من بين أفضل عشر جامعات في العالم.. ثلاثة معاهد.. حيث احتل معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا (CIT) والذي كان يعمل فيه الدكتور أحمد زويل المرتبة الأولى في العالم.. كما احتل معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (TIM)، ومعهد زيورخ للتكنولوجيا موقعهما في العشر الأوائل.

على الرغم من ذلك فإن كلمة «معهد» تشير في مصر إلى الذين لم يتمكّنوا من اللحاق بالجامعات!

* * *

تحتاج الجامعات الحكومية في مصر إلى ثورة حقيقية.. يكون هدف الجزء الأول منها العودة إلى الوراء.. أي العودة إلى المستويات السابقة «المتميزة».. وهدف الجزء الثاني منها.. الانتقال إلى الأمام.. واللحاق بركب الجامعات الكبرى في العالم.

هي إذن خطوة إلى الخلف «الرائع» ثم خطوة إلى المستقبل «الضرورة».

إن أولى خطوات «الخطوتيْن» هو خفض الأعداد المفزعة في الجامعات.. والحل ببساطة هو تقسيم الجامعات.. كلٌّ جامعة كبيرة تصبح جامعتيْن أو ثلاث أو أربع.. ومن المقبول أن تكون الجامعات بمستويات مختلفة وليست بذات المستوى.

فالجامعات في العالم أجمع متدرجة وليست متساوية.. ومن الطبيعي أن يتم تقسيم جامعة حكومية كبيرة إلى جامعة رئيسية تحمل اسمها الحالي تكون

www.ibtesamah.com/vb

في مرتبة متقدمة، وتحصل على «درجات» أعلى ومعايير أقوى، ثم جامعة أو جامعات أقل.

* * *

إن جامعة القاهرة التي تجاوز عدد طلابها ربع المليون طالب لا يمكنها أن تُواجه المستقبل بكلّ هذه الأعداد.. وإذا ما استمرت الزيادة السكانية والطلابية على هذا النحو، ستصل جامعة القاهرة إلى «مليون طالب» قريبًا!

إن الحل الوحيد والذي ينبغي أن يبدأ من الآن هو تقسيم جامعة القاهرة إلى جامعات.. تحمِل الجامعة الأم اسم جامعة القاهرة، وتحمِل الجامعات الجديدة أسماء أخرى.. وتتوزَّع على مناطق القاهرة الكبرى.

تحتاج جامعة القاهرة إلى تثبيت أعدادها عند ثمانين ألف طالب. لا يمكن لكلية التجارة – مثلًا – أن تمضي إلى المستقبل بخمسين ألف طالب في تجارة القاهرة وحدها!

ومن الحتمي أن تنقسم إلى ثلاث كليات أو أكثر.. تبقى واحدة في جامعة القاهرة.. وتخرُج الأخريات إلى الجامعات الجديدة.

* * *

إن جامعة عين شمس والإسكندرية والمنصورة وأسيوط.. شأن جامعات أخرى تحتاج إلى التقسيم.. من أجل الحفاظ على هذه الأسماء الكبيرة من آفة الزحام.. والاحتفاظ بمكانةٍ ساميةٍ لها.. وإعادة توزيع الأعداد الكبيرة على جامعات حكومية جديدة.

لن يَدْفَع «تقسيم الجامعات» وحده بجامعاتنا إلى صفوفِ الجامعات الأخرى.. ولكنه الخطوة التي لابدَّ منها.. قبل الانتقال إلى أي حديثٍ جاد..

www.ibtesamah.com/vb

عن النشر العلمي.. أو المستوى الأكاديمي أو الجوائز الكبرى.. أو جودة التعليم الجامعي.

***

إن الاستسلام للأمر الواقع هو سمةُ الفاشلين وغير المخلصين.. وإن تغيير الواقع الرديء إلى واقع أفضل.. هو سِمة القادة والمبدعين.

www.ibtesamah.com/vb

كلية الهندسة تطلِق قمرًا صناعيًا..
وكلية العلوم تنشِئ مفاعلًا نوويًا

قبل سنوات التقيتُ عددًا من خريجي قسم هندسة الطيران في جامعة القاهرة، يطلبون دعمهم في الحصول على فرصة عمل، قال لي أحدهم: «لقد درسنا هندسة الطيران وعلوم الفضاء ولكننا تعبنا من البحث عن عمل.. وبدلًا من العرق في المصانع، يتصبب العرق منّا في الشوارع»!

إن كلية الهندسة جامعة القاهرة، التي تأسَّست قبل قرنين من الزمان في عام 1820م، لم يتم استثمارها ولا استثمار غيرها على النحو الطبيعي لبناء المشروع الحضاري المصري. واليوم ألتقي باستمرار مئات الطلاب من جامعة القاهرة.. كل جدول أعمالهم يتعلق بالصراع السياسي في مصر.

ومن المؤسف، أن تكون عناوين الصحف القادمة من الجامعة.. دائرة في مجملها حول مشكلاتٍ رديئةٍ.. بينما عناوين جامعة في إسرائيل مثل «معهد التخنيون»، تدور حول إطلاق كلية الهندسة لثلاثة أقمار صناعية.

***

إن كلية الطب في جامعة القاهرة، تأسست عام 1827م وبعدها تأسَّست كليات العلوم والصيدلة.. ولكن بلادنا لاتزال مستهلكًا أساسيًّا للدواء..

www.ibtesamah.com/vb

ونسبة براءات الاختراع المصرية في وطن يعاني نصف سكانه من أمراض متنوعة هي نسبة لا تذكر.

بينما معهد «التخنيون» في إسرائيل أطلق اختراعات متعددة في مجال الدواء.. وتحتل شركة «تيفا» الإسرائيلية لصناعة الأدوية مركزًا مهمًّا بين شركات الأدوية في العالم، ولديها سلسلة أدوية مكونة من أكثر من ألف مركب، ووصلت مبيعاتها عام 2017م إلى نحو 22 مليار دولار!

إن الجامعات في كل العالم هي قاطرة النهضة وقائدة التنمية، وفي كل العالم المتحضر لا تعمل الجامعات في السياسة بل تعمل في العلم والمعرفة.. ويعمل بعض خريجيها في السياسة، ولا يكون النشاط السياسي لطلابها نشاطًا احترافيًّا.. بل مجرد ثقافة سياسية ومشاركة مسئولة وتعبير منضبط.. ولا يطغى ذلك كله على الوظيفة الأساسية للطالب والجامعة.

ولقد سبق أن كتبت وتحدثت عن ضرورة أن تطلق كلية الهندسة جامعة القاهرة قمرًا صناعيًّا، وأن تُنشئ كلية العلوم مفاعلًا نوويًّا.. وأن تواصل باقي الكليات رفع مستوى الجامعة إلى مستوى الماضي.. ثم رفعها إلى مستوى المستقبل.

* * *

إنه لمن المحزن، أن تغرِق الجامعات المصرية في أوحال «الفيس بوك».. وفي فوضى التعليقات والاشتباكات والنِّكات.. في الوقت الذي تتوالى فيه إنجازات الجامعات حول العالم.. وكان بعضُها ينظرُ إلى جامعاتنا من أسفل.. وقد صار الآن ينظر إليها من أعالي الجبال!

ففي جنوب إفريقيا قام طلاب الدراسات العليا بجامعة شبه جزيرة كيب التقنية (CPUT) في كيب تاون ببناء قمرٍ صناعي مصغر لأغراض الطقس.

www.ibtesamah.com/vb

وفي الهند نجح طلاب جامعة (ANNA) في إطلاق القمر (ANNASAT) وهو أول قمر صناعي يتم إنشاؤه وتصميمه في جامعة هندية بواسطة الطلاب.

***

إن استرجاع صفحات التاريخ المعاصر يزيد من الألم الوطني إزاء حالة التراجع الحضاري في بلادنا. لقد بدأت مصر مشروعًا طموحًا قبل أكثر من نصف قرن لأجل تصنيع الطائرات والصواريخ وإطلاق أول قمر صناعي في منطقتنا.

وفي كتابي «مصر الكبرى» أوردتُ شهادة الدكتور «بهي الدين عرجون» في كتابه «الفضاء الخارجي واستخداماته السلمية».. وهي الشهادة التي جاء فيها أن مصر بدأت بالتعاون مع الخبراء الألمان في تطوير الصواريخ.. ولقد كان من الممكن تطوير الصاروخ المصري «الرائد» ليصل إلى حد خرق نظام الجاذبية الأرضية وحمل قمر صناعي إلى مدار حول الأرض، ولم تكن إسرائيل وقتها تملك صناعة صواريخ على الإطلاق.. وانطلقت على إثر ذلك حملة إرهاب العلماء الألمان في مصر.. ثم كان عدوان 5 يونيو 1967م.

وفي الثاني من أكتوبر عام 1967م تحدث العالمان الألمانيان «ولفجانج بيلز» و«فيرنر فون براون» إلى مجلة «شتيرن» الألمانية وقالا: «كانت إسرائيل تخشى إطلاق قمر صناعي مصري في ذلك الوقت حتى لا يحدث دوي هائل في العالم بأسره.. ويجتمع العالم العربي خلف مصر».

***

لقد حانَ الوقت لنزع سلاح التردُّد في مصر.. حان الوقت لتدمير أسلحة السخرية من كل شيء والضحك على كل شيء.. وهي الأسلحة التي حولت

www.ibtesamah.com/vb

كافة الأفكار والرؤى إلى «إفيهات» و«نكات» على صفحات فيس بوك وحسابات تويتر.

لقد سبقتْ محاولات مجيدة في تجربة «القمر المصري» - «إيجيبت سات» غير أن انقطاع الاتصال بالقمر ذات يوم.. جعل من ألسنة الساخرين خنجرًا مسمومًا في قلوب العلماء والمهندسين الذين وجدوا أنفسهم في مرمى سلاح «التبكيت» و«التنكيت».

ولكن أحدًا في دولة غانا لم يصوب نيران السخرية والازدراء تجاه الجامعة التي أطلقت القمر الصناعي الأول.. رغم سرقة كافة أوراقه ورسومه من الأرض، وخطف القمر نفسه من الهواء! وإنما أيّد مواطنو غانا البسطاء تجربة جامعتهم، وإعلانها إطلاق قمرها المتطور بعد عامين.

ثمّة أخبار جيدة في بلادنا.. ولكنها تحتاج إلى ثِقة ودعم، حيث يشارك باحثون من كلية الهندسة جامعة القاهرة وباحثون من «الهيئة القومية للاستشعار عن بعد» في الإعداد لإطلاق أول قمر صناعي مصري مائة في المائة من فئة «النانو».. ولقد فاز طلابٌ من كلية الهندسة جامعة الإسكندرية في مسابقة دولية لإنتاج طائرة بدون طيار.

* * *

إن استهلاك طاقة المستقبل في إعادة تدوير مخلفات الماضي لن يخدم إلا أعداءنا.. ذلك لأن الهتافات والشعارات والأكُفّ المرتفعة بالتحريض والكراهية إنَّما تغذِّي «الأخبار» وتحرق «الأحلام».. إنها تحقِّق الفائض في «السياسة» والعجز في «الاقتصاد».

www.ibtesamah.com/vb

حين تكون عناوين الصحف المصرية: كلية الهندسة تطلق قمرًا صناعيًّا، وكلية العلوم تنشئ مفاعلًا نوويًّا.. ستكون أحلامنا الكبرى.. قريبًا عند مرمى النظر.

***

لقد كان صادِمًا للغاية ما قرره رئيس سابق لجامعة القاهرة من إغلاق المراكز البحثية في الجامعة بحجة عدم تحقيقها أرباحًا.. وهو ما يعني إغلاق (18) مركزًا علميًّا من بين (19) مركزًا بالجامعة بدعوى الخسائر المالية.. ويقع مركز الدراسات النووية في جامعة القاهرة ضمن المراكز الواقعة تحت طائلة الإغلاق.

لم يدرك رئيس الجامعة أن المراكز العلمية ليست مطاعم وجبات سريعة.. وأن العلم في كل العالم يقوم على دعم الدولة ورعاية المؤسسات الحكومية وتبرعات المجتمع، وأن احتلال الجامعات للمراكز اللائقة في لائحة الجامعات الدولية إنما يتوقف - وبشكل كبير - على مستوى المراكز العلمية والقدرات البحثية بالجامعة.

إنه لمن المؤسف للغاية.. تقديم البديهيات باعتبارها نظريات، وشرح الأبجديات باعتبارها أطروحات. تحتاج جامعة القاهرة إلى إصلاحٍ شامل في الكم والكيف.. في الأعداد الهائلة والموارد المحدودة.. وفي المراكز البحثية التي تصارع الحياة.. وحيدةً بلا عونٍ أو سند.

www.ibtesamah.com/vb

مدينة زويل.. القاعدة العلمية في مصر

يـروي الدكتـور أحمـد زويل: قـال لي أحـد أسـاتذة الفلسـفة المصريين مازحًـا: كيف تفوّقت فـي أمريكا رغم جيناتك المتخلّفـة؟.. قلت له: جيناتي هـي الجينات العظيمة التـي كانت عند أجدادي من الفراعنـة. أمريكا أعطتني الفرصة.. وفي أمريكا الفرصة مضمونة للمجتهد.

* * *

تحتاج مصر إلى العودة إلى الوراء.. إلى تجاوز «الحاضر» إلى «الماضي».. حيث كانت مصر قوة علميّة عظمى.

وقد كان الدكتور أحمد زويل دقيقًا حين قال في كلمته الرسمية أثناء تسلُّمِه جائـزة نوبل في الكيمياء عـام 1991م: «لوْ أنَّ جائزة نوبل كانت قد عُرفت منذ ستة آلاف سـنة.. حينما بزغتْ حضارة مصر القديمة.. أو حتّى قبل ألفيْ عام حين أنشـئت مكتبة وجامعة الإسـكندرية القديمـة.. لكانتْ مصر قد حصلت على جوائز نوبل في العديد من المجالات».

* * *

كنـتُ قريبًـا من الدكتـور أحمد زويل عشـرين عامًـا.. صديقًا ومستشـارًا ومحررًا لكتابه الأشـهر «عصر العلم». وكان الدكتور زويل يحدِّثني باستمرار عن ضرورة استعادة الماضي في الحاضر.. كان يتحدث عن ضرورة أن يكون

www.ibtesamah.com/vb

المستقبل امتدادًا للتاريخ ومتجاوزًا للواقع.. ذلك التاريخ الذي قادَ حركة العلم في العالم.. وعلّم الإنسان حضارةَ الزمان والمكان.

وقد سمعتُ الدكتور زويل على مدى سنوات.. قبل حصوله على جائزة نوبل.. يتحدَّث عن حلم إنشاء مدينة علمية في مصر.. على أنْ تكون المدينة هي المركز الذي يضبط الأطراف، والقاطرة التي تجرُّ المؤسسات.. والقيادة التي تصيغ الحركة، وتضع خريطة الطريق.

كان الدكتور زويل مأخوذًا بتجربة المراكز المضيئة في آسيا.. تلك التي حقّقت المعادلة المستحيلة.. في كيفية التقدم العلمي رغم الفقر، والإبداع التكنولوجي رغم التخلّف.. والمشاركة في قيادة المعرفة في العالم.. رغم ضعف البنية الأساسية، وتدهور بيئة التنمية.

كانت رؤيتُه.. أن يتمّ بناء «سور».. يكون ما في داخل السور جزءًا من العالم الحديث بمعايير القوى الكبرى، على أن يلحقَ ما في خارج السور بما في داخل السور.. لا أن يزحف ما في خارج السور إلى ما في داخل السور.. ليتشاركا معًا في جغرافيا التخلُّف.

بعبارةٍ أخرى.. أن تنتقل عدوى التقدم من الداخل إلى الخارج.. لا أنْ تنتقِل أحقاد التخلف من الخارج إلى الداخل.. حتى يتسنّى للقاطرة أن تجرّ العربات إلى الأمام.. لا أنْ تأخذ العربات القاطرة إلى الخلف.

لقد عرضَ الدكتور زويل رؤيته في كتابه «عصر العلم» والذي قمتُ بتحريره، وكتابة مقدمته.. كما أن هذه الرؤية كانت أساس ما طرحه العالم المصري الأشهر على الرئيس الأسبق حسني مبارك.. في ديسمبر عام 2000م.. في وثيقتِه المسمّاة «مشروع مبادرة من أجل العلم والتكنولوجيا في مصر».

***

www.ibtesamah.com/vb

تتشكَّل «السياسة العلميّة» عند الدكتور أحمد زويل من «القواعد العشر» للنهضة المصرية:

أولا: الدور المركزي للعلم في بناء العالم.. إذْ إنَّ حركة التاريخ المعاصر هي في الواقع حركة العلم.. وتطوّر المجتمع الدولي هو في الواقع تطوّر العلم العالمي.

ثانيًا: الجهاد العلمي فريضة وطنية.. ذلك أن راية الجهاد الحقيقي التي يجب أن يرفعها العالم العربي والإسلامي هي راية «الجهاد العلمي».

ثالثًا: مثلث النهضة العلمية في أي مجتمع يتكون من أضلاع ثلاث: العلماء المؤمنون بدورهم، والسلطة المؤمنة بالعلم والعلماء، والمجتمع المسانِد لقيم العلم والعقل.

رابعًا: الشروط الاجتماعية للعلم.. هي شروط أساسية.. حيث لا يمكن للعلم أن يتفاعل وأن ينتج بدون بيئة مواتية وأجواء صالحة.. وينهض المجتمع العلمي على ركائز ثلاث: العلم، والتكنولوجيا، والمجتمع. فالعلم يخلق التكنولوجيا، والتكنولوجيا تدفع العلم للتطوير، وكلاهما لن يوجد على نحو مكتمِل إلا في مجتمع علمي.

خامسًا: العقيدة الوطنية.. حيث يجب أن يكون الاعتزاز القومي والفخر الوطني حاضرًا في أيّة نهضة علمية. وهو الاعتزاز الذي يدفع إلى الثقة في قدرة العقول في المجتمع على الخلق والإبداع.. وهذا يبعث روح التحدي والانطلاق في نفوس الشباب.. الذين يمثّلون البنية المتواصِلة لحضارة الشعوب.

إنّه لا يمكن الانطلاق في طريق العلم.. من دون الإيمان بالوطن والثقة في التاريخ، والاعتقاد الراسخ في التقاليد الحضارية المصرية.

www.ibtesamah.com/vb

سادسًا: الطريق ليس طويلًا والفرصة لم تَفُتْ. إنك لا تحتاج إلى عشرات السنين لكي تنتقل من التخلف إلى التقدم. كما أن الفرصة لاتزال سانحة. لقد فعلتها اليابان والصين في سنوات، وفعلتها النمور الآسيوية في سنوات. لا بد من إعادة النظر في الفكر السياسي والاجتماعي السائد.. وتجاوز تلك المقولة الرائجة حول الإصلاح التدريجي والتطور البطيء. إذْ إن المعنى الوحيد لذلك هو «عدم الإصلاح» و«عدم التطور».

الأمر يجب أن يأخذ شكل القفزة الواحدة.. لابد من نقلة كبرى. ذلك أن البطء في الحركة يدع الفرصة لعوامل الاحتكاك والإيقاف لكيْ تعمل بقوة.. وحينئذٍ يزداد البطء.. وهو ما يعني التراجع والفشل في ظل الحركة السريعة لعالم اليوم.

سابعًا: يمكن كسب احترام العالم وتحسين الموقع في مواجهة القوى العظمى. لقد نجحت اليابان والصين في ذلك.. كان اليابانيون يعاملون في أمريكا بدرجة عالية من الإهمال وعدم التقدير. قرّر اليابانيون ألا يحاربوا أمريكا بالكلام.. ولا أن يواجهوها بهجوم الإعلام.. بل كان الردّ هو التجربة اليابانية في التنمية. كما كان الصينيون يُسمَّون في أمريكا «الصينيين الحُمر».. على غرار «الهنود الحُمر».. وبعد سنوات.. أصبحت دوائر الفكر السياسي الأمريكي تتحدث عن الصين باعتبارها القوة العظمى القادمة.

ثامنًا: المراكز المضيئة هي الحل. إنَّ بعض المجتمعات قد تأخذ وقتًا طويلًا لتحقيق البيئة العلميّة. قد لا يكون من الحكمة الانتظار حتى يتشكَّل «المجتمع العلمي» تلقاء ذاته.. ثم يكون العلم والتكنولوجيا. يجب القفز على ذلك بإنشاء مدينة علمية مرموقة ورفيعة المستوى.. بالمعايير العالمية.. تعمل هذه «المدينة» والتي تجذب أفضل العقول المصرية في الداخل

www.ibtesamah.com/vb

والخارج.. على أن تصِل بالعلم والتكنولوجيا في المجالات التي تخصّصت فيهـا إلى المسـتوى العالمي.. برغم تحديـات الفقر والجهل فـي محيط هذه المدن الاستثنائية.

تاسـعًا: النظر إلى أعلى.. حيث يجب أن ينظر المصريون إلى أعلى.. وأن يثِقـوا في أنهم عائدون. وحين سُـئل الزعيم الماليـزي مهاتير محمد عن السرّ فـي النهضة التي حقَّقها في سـنواتٍ.. قـال: «أن تجعل الشـعب كلّه يفكر في المستقبل».

عاشرًا: صناعة الأمل.. إن التفاؤل هو الذي يدفعنا للثقة. إن شعار المدينة العلمية على ذلك هو «مصر تستطيع».. «Egypt Can».

* * *

إن «مدينـة زويل» هي التطبيق لهذه القواعد العشـر.. ضمّت في تأسيسـها سبعةً من الحائزين على جائزة نوبل، ونخبةً من العلماء المصريين العالميين.. ونخبةً ثالثةً من كبار الاقتصاديين والتنفيذيين.

هي ليسـت مجرد مدينة.. هي نموذجٌ للقاطرةِ التـي قادت النهضة العلمية فـي آسـيا.. وهي القاطرة التي أرادَها الدكتور زويـل لقيادة النهضة العلمية في مصر.

إن مدينة زويل ترتقي لمسـتوى أنْ تكـون «العاصمة العلمية لمصر». وإذا مـا تمَّ النظر إليها على هذا النحو.. يصبـح بالإمكان.. تحديد جغرافيا البحث العلمي في مصر انطلاقًا من العاصمة.. وعودةً إليها.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

ما أروع ذلك النصَّ الباهِر الذي يوجِز رسالة الدكتور زويل.. عالمًا وجامعةً ومدينةً: «إن مصر التي أهدتْ العالم (العلم) و(الحكمة).. وأنارتْ بالتاريخ ظلمات الجغرافيا.. لقادرة على استكمال الدور، والعودة إلى سابق العهد.. عظيمةً.. مجيدةً.. بلا حدودٍ».

www.ibtesamah.com/vb

المؤرخون الجُدُد.. النظرية العامة

لماذا يقف الناصريون ضد الرئيس السادات باستمرار.. وفي كلّ شيء؟

ولماذا يقف الساداتيون ضد الرئيس عبد الناصر باستمرار.. وفي كلّ شيء؟

لقد أدّت هذه «المباراة الفقيرة» بين الفريقين على امتداد العقود الماضية، إلى إضْعاف الفكر السياسي المصري. كما أدَّت إلى ضعف المنابر الفكرية والسياسية.. التي لم تزِد على كونها نشرات إعلامية بائسة تروِّج لهذا المشروع أو ذاك.. ولقد أتتْ أجيالٌ سياسيةٌ على هذه المباراة فأخذتْ تنحاز يمينًا ويسارًا.

وجاء ذلك الانحياز مريحًا لهذه الأجيال، إذْ لا يتطلب الأمر لأن تكون ناصريًّا أو ساداتيًّا.. بل أنْ تكون مثقفًا بما يكفي. إذْ يكفيك أن تردِّد عباراتٍ محدودةٍ في مديح من تحب، ونقد من تكره لتكون من ذوي الرأي والرؤية.

لقد أدَّت تلك المعادلة البسيطة إلى خلق حالة من «توازن الضعف».

ناصريون لا يستطيعون الدفاع عن المشروع الوطني للرئيس عبد الناصر، وساداتيون لا يستطيعون الدفاع عن المشروع الوطني للرئيس السادات،

www.ibtesamah.com/vb

وأصبح أغلب الأعضاء في الجبهتين.. أقرب إلى مشجعين رياضيين منهم إلى مؤيدين سياسيين!

***

الأمر نفسه ينسحب على ذلك الاستقطاب الحادّ بين أنصار ثورة 1952م.. وأنصار ما قبلها..

بين أولئك الذين يعتبرون ثورة يوليو مجرد انقلاب عسكري قام به ضباط مغامرون.. قطعوا طريق مصر إلى النهضة، وبين أولئك الذين يعتبرون الثورة ميلادًا لشعبٍ كان قبلها من الحفاة العراة!

وقد تجدّد الصراع في أعقاب ثورة 25 يناير 2011م.. وثار الصِّدام بين من يروْنها ثورةً ومن يروْنها مؤامرةً.. وبين من يروْنها انقلابًا عسكريًّا قادةُ المشير طنطاوي والمجلس العسكري. ثم تجدّد الصراع مرة أخرى.. عقب ثورة 30 يونيو 2013م.. وباتَ بعضُ أنصار ثورة يناير يروْن ثورة يونيو انقلابًا، وبعض أنصار ثورة يونيو يرون ثورة يناير مؤامرةً خارجيةً!

يرى أنصار «مبارك» أنَّهُ أول رئيسٍ منتخب بعد فوزه على منافسيه في انتخابات 2005م، ويرى أنصار «مرسي» أنَّهُ أول رئيسٍ منتخب بعد فوزه على منافسيه عام 2012م.. يقول خصوم «مبارك»: إن الحزب الوطني قام بتزوير الانتخابات لصالح «مبارك»، ويقول خصوم «مرسي»: إن جماعة الإخوان المسلمين - بالتواطؤ مع المجلس العسكري وضغوط واشنطن - قامت بتزوير الانتخابات لصالح «مرسي».

يقول أنصار الملكيَّة: إن الشرعية يجب أن تعود إلى «أحمد فؤاد»، ويقول أنصار «مبارك»: إنَّه الرئيس الشرعي، وإنَّ ما جرى هو انقلاب، ويقول أنصار «مرسي»: إن الشرعية يجب أن تعود، وما جرى هو انقلاب!

www.ibtesamah.com/vb

ولايزال كثير من الفقهاء الشيعة يتحدثون عن ولاية الخليفة الراشد أبو بكر الصديق باعتباره أولَّ انقلابٍ في التاريخ.. ويسمّونه: انقلاب سقيفة بني ساعدة!

* * *

إن أفضل ما يمكن أن تقدمه «حركة المؤرخين الجدد» لبلادنا هو تجاوز هذه البساطة السياسية في التفكير.. وإعادة الكثافة والاتساع للعقل السياسي المصري.. وإنهاء حقبة التفسير الكَروي للتاريخ. تلك الحقبة التي تعاملت مع الاجتهادات الوطنية بمنطق الأندية الرياضية!

* * *

تحتاج مصر إلى تأسيس «حركة المؤرخين الجُدد» كمدرسةٍ فكريّةٍ جديدة.. تقودُ إعادة القراءة في التاريخ المصري.. على أُسسٍ عقلانية ووطنيّة.

لا ينبغي أن يكون التاريخ دافعًا للارتباك والاشتباك.. كما لا ينبغي أن يمتازَ الذين لا تاريخَ لهم بسهولة الحركة، والقدرة على المرونة والإبداع.. بينما يشكِّل التاريخ عبئًا على كاهِلنا.. وضغطًا على حاضرنا.. وحاجزًا مع مستقبلِنا.

* * *

إن «إعادة القراءة» هذه.. تتطلب قدراتٍ علميّةٍ وفكريّةٍ رفيعة.. ذلك أن «الإيديولوجيا» يمكنها أن تغطّي على الضعف الفكري.. أمّا الموضوعية، والعقلانية، والوسطيّة.. فهي كلها تحتاج إلى جهدٍ حقيقي.. وعملٍ جادّ.

www.ibtesamah.com/vb

ما أسهل أن ينحاز المرءُ إلى فريق دون آخر، وفكرةٍ دون أخرى.. وما أصعب أن يرى الصورة بأبعادها الطبيعية.. فيرى «ما يجب».. لا «ما يريد».

* * *

الانحياز ارتياح.. والوسطية مشقّة. أن تكونَ واحدًا من جمهورٍ يعرف متى يصفِّق ولمن يصفِّق، ومتى يعادي ومنْ يعادي.. فأنت محظوظٌ بالولاء.. لا جهد ولا اجتهاد.

أما إنْ اخترت أن تكون متأمِّلًا ومتعمقًا.. أن تكون وسطيًّا في الرأي والرؤية.. أن تنظر إلى الساسة والسياسة عبر ميكروسكوب رباعي الأبعاد.. فأنت واحدٌ ممن أصابهم عناء الاعتدال. وتقديري أن ثمة أبعادٌ عشرة تمثل بؤس الوسطية.. وصعوبات البحث البارد لحركة المؤرخين الجدد.

* * *

الوسطية لا وسَط لها، فهي تنزاح مع حركة التاريخ وانحناءات الزمن.. ومن بؤس الوسطية أنها لا تملك إطارًا حادًّا ولا سورًا واقيًا، ويصعب تحديدها على نحو جامع مانع.. على قول أهل المنطق.

ومن بؤسها أيضًا أنها تميل إلى تغليب المصالح، وحيث إن المصالح صائبة وخاطئة.. فإن الوسطية تزداد ترهلًا.. حتى أن أطرافها قد تنال من المثاليّة والفساد سواء بسواء.

ومن بؤسها – ثالثًا – أنها تميل للاعتدال الأخلاقي، فإذا هي غير كافية للذين يريدون للأخلاق أن تكون عذابًا وعقابًا، وهي غير جذابة للذين يقدمون متعة الحياة ورغد السلوك.

www.ibtesamah.com/vb

ومن بؤسها - رابعًا - أنها تقيم صلحًا رقيقًا مع الروح، فإذا هي موضع تسفيه من غلاة العقل، وموضع تكفير من غلاة الدين.

ومن بؤسها - خامسًا - أنها تفسِح مجالًا متوازنًا لمقولاتٍ من الماضي وأفكارٍ من المستقبل.. فإذا هي رجعيَّة للذين تمتزج تطلعاتهم بالأحلام، وهي ابتداعٌ للذين يجدون في السلف زادًا لا يحتاج إلى مزيد.

ومن بؤسها - سادسًا - أنها تقبل التفاوض والتراجع بمثل ما تقبل الإقدام والثبات، وهي في ذلك تصطدم مع رؤى الذين يظنون أنهم يملكون عيْن اليقين.

ومن بؤسها - سابعًا - أنها تقول الشيء وبعضًا من نقيضه، فكل سياسي له وعليه، وكل سياسةٍ فيها ما يتطلب الاتّباع.. وفيها ما يوجب الإقلاع.

وهنا تصطدم مع الذين يرون مشهدًا وحيدًا من الصورة.. أو جانبًا واحدًا من الحَال.

ومن بؤسها - ثامنًا - أنها تستهدف التطوير لا التثوير، وتمشي بين الجميع سعيًا وراء ما يمكن أن يكون جيدًا وباقيًا، وهي في ذلك غير مقبولة للذين يمسكون بزمام الأمور.. ولا للذين يجوبون الطرقات عسى أن يمسكوا بطرف من الزمام.

ومن بؤسها - تاسعًا - أنها واقعية في شئون الخارج، وتعتمد «الممكن» أساسًا وهي تتابع يوميات العالم.. وهنا تصطدِم مع الذين يريدون تحويل «الممكن» إلى التبعية الكاملة، ومع الذين يدفعون بـ«الممكن» إلى حتميَّة القتال.

www.ibtesamah.com/vb

ومن بؤسها - عاشرًا - أنها تقوم في عمادها على فكرة «التوازن»، وهي أكثر الأفكار صعوبة وارتباكًا، وهي في التطبيق عملٌ شاق بين أطراف ليس بينها لقاء.

* * *

هنا جوانب من بؤس الوسطية.. وهنا صعوبة الطريق الذي ينتظر حركة المؤرخين الجدد.

لا يجب لهذه التحديّات أن تكون عونًا لـ«الإيديولوجيا» وهزيمةً لـ«العقل».. أو أن تكون دافعًا للانفعال وهزيمةً للاعتدال.

يمكن لحركة «المؤرخين الجدد».. أن تنقل الماضي من «العبء» إلى «الإضافة».. وأن تنقل التاريخ من فوضى المعادلات الصفريّة.. إلى طاقةٍ أسطورية في بناء المستقبل.

www.ibtesamah.com/vb

الفلاسفة الجُدد

قامت معادلة «الحداثة والسياسة» في مصر على التعاون بين «الحاكم والمفكر».. وعلى تحالف «السلطة والفلسفة».. ولقد كانت ثنائية «القوة» و«المعرفة».. هي المنهج في تأسيس الدولة المصرية.. وكان المهندس «إيمحتب» أحد أعظم المهندسين على مرِّ التاريخ.. إلى جوار الملك «زوسر» أحد أعظم الملوك في تاريخ العالم.

وقد سمعتُ من الأديب «بهاء طاهر» تطبيقًا لهذه النظرية في العصر الحديث، وبعد آلاف السنين من الثنائي «زوسر – إيمحتب».. قال لي الأديب الكبير: كان «رفاعة الطهطاوي» هو فيلسوف عصر محمد علي.. ولولا «الطهطاوي» لكان الزعيم محمد علي باشا «مجرد ديكتاتور».. وعلى ذلك فإن تميّز «التجربة السياسية» لـ«محمد علي» أساسُها تميُّز «التجربة الفكرية» لـ«رفاعة الطهطاوي». كان «رفاعة الطهطاوي» هو العقل السياسي الحاكم.. الذي جعل من النهضة الشاملة مشروعًا للدولة المصرية. وقد استمر هذا الوضع الخلّاق فيما بعد عقودًا طويلة.

كان الإمام «محمد عبده» مستشارًا للزعيم «أحمد عرابي».. وكان الأستاذ «عباس محمود العقاد» هو فيلسوف عصر «سعد زغلول».. كما كان «الدكتور طه حسين» هو فيلسوف عصر «مصطفى النحاس».

www.ibtesamah.com/vb

هكـذا صاغت هـذه الثنائيات العملاقـة عصر النهضة المصـري: «محمد علي + رفاعة الطهطاوي».. «أحمد عرابي + محمد عبده».. «سـعد زغلول + عباس العقاد».. «مصطفى النحاس + طه حسين».

* * *

لـم يعد مناسـبًا في الوقـت الراهن أن يكون هـذا التحالف الثنائي أساسًـا للحداثـة والسياسـة في مصـر.. بل من الأنسـب أن يتم إطـلاق موجة فكرية، ومدرسـة عقليـة كاملة.. تكـون «الظهيـر الفكـري» للدولة المصريـة. يمكن للمفكريـن الجُـدد في مصر أن يسـاهموا في ترميم الفكـر المصري، وصياغة العقل العربي.. والإسهام في الأطروحات السائدة في عالم اليوم.

* * *

لقد سـبق لي أن أطلقتُ مبادرة «الفلاسفة الجُدد» ضمن المبادرة الأشمل «تجديـد النخبـة».. وطرحتُ تأسـيس «منتدى الفلاسـفة الجُـدد» في مصر.. لأجلِ لمّ شمل الفلاسفة والمناطقة.. وأركان العقل المصري.

التقيـتُ فـي إطار المبـادرة عددًا مـن الباحثين الشـباب البارزين في حقل الفلسـفة والمنطـق في الجامعـات المصرية.. وقلـت: «إنّ المجـال العام في بلادنـا يحتـاج إلى رفـع المسـتوى الفكـري، وإعـادة الاعتبار لسـلطة العقل وسيادة المنطق».

تمثَّل الهدف الرئيسي من المنتدى.. في أن يتمَّ دفع العقول الفلسفية الرفيعة إلى صدَارة المشـهد الفكري في البلاد.. ووصْل ما انقطَع مع الفكر الإنسـاني والمدارس الفلسفية في العالـم.. ذلك أن غياب الفكر النظري والأفكار الكليّة لسنواتٍ طويلةٍ.. قد أدّى إلى إغراق الفكر المصري في الجزئيات والتفاصيل.

www.ibtesamah.com/vb

ثم بفِعل الدور المتصاعد للإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي.. أصبح معظم الفكر الوطني محاصرًا بالسطحيَّة وقشورِ المعرفة.

***

إنها مسافةٌ شاسعةٌ بين المستوى الفكري السائد.. والمستوى الفكري السابق. كما أنها مسافةٌ شاسعةٌ بين المستوى الفكري السائد.. والمستوى الفكري في العالم. إنها مسافةٌ في الجغرافيا وفي التاريخ معًا. ويحتاج هذا الفراغ بين العصر الذهبي للفكر المصري إلى حركة من «الفلاسفة الجُدد» تملأ ذلك الفراغ.. وتستعيد ذلك العقل الفائت.. ليكون حاضرًا وموازيًا للفكر العالمي.

وإنّه لمن المؤسف للغاية ألّا تصدُر في القاهرة الدوريات الفلسفية الرصينة، والحوليّات الفكرية الرفيعة.. وألّا تنطلق من القاهرة.. الأطروحات والأفكار الكبرى.. وألّا تتردَّد في جنباتِ بلادنا.. أفكار وفلسفات العالم الجادّة.

إنّه لمن المؤسف أيضًا.. أن ينخفِض الطلبُ على الفِكر إلى هذا الحدِّ الخطير، وأن يرتفع الطلب إلى مستويات قياسية على ثقافة الثرثرة.. وإيديولوجيا اللاشيء.

***

إنَّ كسْر حالة الخُمول الفكري والكسَاد الثقافي في بلادنا يحتاجُ إلى دعم حركة الفلاسفة الجُدد.. سواء أولئك الذين يمكنهم - في المستقبل - أن يمتلكوا مشروعات فلسفية.. أو أولئك الذين يمكنهم أن يمتلكوا «مواقف فلسفية».

لقد حفِلت المدرسة الفلسفية المصرية بقاماتٍ رفيعةٍ.. من أصحاب «مواقف فلسفية» ذات وزن.. مثل: فؤاد زكريا وعاطف العراقي ومراد وهبة وحمدي زقزوق.. أو من أصحاب «مشروعات فلسفية» ذات مكانة.. مثل: عبد الرحمن بدوي وحسن حنفي وسمير أمين وعبد الوهاب المسيري وزكي نجيب محمود.

إن قائمة كبار المفكرين المصريين لتطولُ إلى ما لا نهاية.. من أسماءٍ جادةٍ.. بذلتْ جهودًا مخلصَة في التأليف والترجمة.. وفي الإبداع والشرح.. وفي الصّناعة والصّياغة. وقد حانَ الوقت لإعادة «تجديد العقل المصري».. عبْر إعادة «تقديم العقل المصري».

إن انتقال مفهوم «الفلاسفة الجُدد في مصر» من الفكرة إلى الحركة.. هو واجبٌ وطني ومعرفي.. في آن.

في قولةٍ واحدةٍ: إن «عودة الحضارة» تبدأ من «عودة العقل».

www.ibtesamah.com/vb

القادة الجدد.. الفكرة والحركة

تحتاج مصر إلى أن تكون «بلد المليون قيادة».. ذلك أن مائة مليون نسمة يحتاجون بالضرورة إلى أن يصل حجم النخبة العامة فيها إلى واحد بالمائة من السكان.. أي ما يعادل مليون شخصية ذات مستوى قيادي.

إذا كانت مصر قد قدَّمت للعالم كله نموذجها العظيم في الديمقراطية المباشرة: «المليونيات»، فإنها تحتاج اليوم إلى أن تقدم لنفسها «مليونية جديدة».

لقد قامت المليونيات السياسية على أساس «الكم» وتحتاج المليونية الحضارية الانطلاق على أساس «الكيف».. إنها عملية العبور من حقبة «النشطاء» إلى حقبة «الخبراء».. من «المخلصين» الذين صنعوا الحاضر إلى «المتميزين» الذين يصنعون المستقبل.

***

إنَّ حجم النخبة المصرية باتَ ضئيلًا ونحيلًا، وباتَ الرأي العام يشير إلى عشرات الشخصيات ممن يتصدَّرون شاشات الفضائيات وأروقة الندوات والمؤتمرات على اعتبارهم - حصريًّا- الحجم الإجمالي للنخبة المصرية.

إن ضمور النخبة المصرية على هذا النحو بات مُخجِلًا في الشكل ومُفزِعًا في المضمون.. وأضحَى الأمر بكامله يحتاج إلى إعادة النظر.

www.ibtesamah.com/vb

سيقولُ البعض إن هناك الآلاف من المتميزين في كل المجالات لكنهم لا يتصدَّرون المشهد، وإن الإعلام ساهم في إعادة تدوير «نخبة المائة ضيف» حاجبًا ومانعًا لنخبة المليون قيادة.. وأنه لو أتيحت الفرصة للكفاءات المصرية لانتهت محنة الجفاف والانحسار.

وأعترف، ثانيةً، أن هذا القول صحيح تمامًا.. ولكن الصعود بهذا «القول» إلى صعيد السياسة يحتاج إلى مبادرة وآلية وخريطة طريق. ولقد حاولت بعد ثورة 25 يناير المجيدة.. أن أكون واحدًا ممن يدفعون في هذا الطريق.. لأجل توسيع وتمديد مساحة النخبة المصرية.

وقد أسَّستُ «مركز القاهرة للدراسات الاستراتيجية» لهذا الغرض، وحاول بعض الشباب الذين عملوا معي أن يضعوا إطارًا لـ«نادي النخبة» بهدف تعبئة الموارد البشرية الوطنية رفيعة المستوى لهذا الهدف.. لكن الأحداث التي تلاحقت وتجربة حكم الرئيس السابق محمد مرسي لم تترك الفرصة الكافية لذلك. ولما قامت ثورة 30 يونيو 2013م، قمتُ بطرح الهدف ذاته عبر مبادرة «القادة الجدد».

***

كانت أول دعوة لي بهذا الشأن في حفل تكريم أوائل الجمهورية في الثانوية العامة في 22 يوليو 2013م، وكانت أول دعوة «سياسية» لي بالشأن ذاته في لقائي مع رئيس ورموز حزب التجمع في أول سبتمبر 2013م.

ولقد كان لمبادرة «القادة الجدد» بعد أن طرحتها أمام الرأي العام في حزب التجمع صدًى واسعًا.. لدى أوساط الشباب الذين التقيت وفديْن منهم في رئاسة الجمهورية، وقد ضمّ الوفدان شبابًا من أحزاب وحركات وقوى

www.ibtesamah.com/vb

سياسية ومجتمعية متعددة، وتشرَّفت باستقبالهم في قصر الاتحادية في يومي 17 و22 سبتمبر 2013م.

ولقد تواصلَ معي منذ حديثي الأول مع أوائل الثانوية العامة عددٌ متميزٌ من ذوي التعليم المرموق وذوي العقليات والمهارات الرفيعة.. وقد أبلغني بعضهم مؤخرًا بشروعهم في تأسيس وتبني مبادرة «القادة الجدد» عبر منتدى غير حكومي يجري تأسيسه لهذا الغرض.

* * *

إن فكرة «القادة الجدد» هي فكرة المستقبل.. كيف يمكن بناء الجمهورية الجديدة؟ كيف تتجاوز مصر حالة «الانتظار» إلى وضع «الانطلاق»؟ وكيف نصيغ خريطة نهضة حقيقية لمصر على نحو ما يخطط العالم المتقدم؟

* * *

تحتاج مصر إلى مثل هذه المؤسسة لأجل تجديد وتعظيم النخبة المصرية. إن النخبة الجديدة ينبغي أن تكون جاهزة للسلطة والنهضة معًا.. وليس مفيدًا أن يكون الهدف هو مجرد التحصُّل على منصب أو الصراع على السلطة.. بل الهدف الأعظم والأنبل هو بناء الوطن وإنجاز المشروع الحضاري المصري.

تحتاج مصر إلى نخبةٍ تكفي لمناصب: «الرئيس والرئاسة.. الحكومة والوزارت.. المحافظون والمحليات.. الشركات والمؤسسات.. الأحزاب والنقابات». تحتاج مصر إلى ما يقرب من ثلاثين وزيرًا وستين نائبًا ومائة وعشرين مساعدًا، كما تحتاج إلى العدد نفسه من المحافظين.. وتحتاج بلادنا إلى قيادات لعدد (183) مركزًا و(216) مدينة و(76) حيًّا و(1179) وحدة محلية و(4641) قرية و(26757) كفرًا ونجعًا وعزبة.

www.ibtesamah.com/vb

تحتاج المنطقة الجنوبية في القاهرة وحدها إلى قادة لعدد (8) أحياء و(9) أقسام.. وتحتاج المنطقة الشمالية إلى قادة لعدد (7) أحياء و(12) قسمًا.. وتحتاج المنطقة الشرقية إلى قادة لعدد (8) أحياء و(13) قسمًا.

تحتاج مصر إلى قادة في المجالس المحلية في خمسة مستويات: المحافظة والمركز والمدينة والحي والقرية. لدينا إذن ثلاثون ألف قرية وكفر ونجع وعزبة.. يحتاجون إلى مائة ألف ترشيح ليتم اختيار الثُّلث.

***

بعملية حسابية بسيطة تحتاج مصر إلى مليون شخص مؤهل للمشاركة في الإدارة والقيادة والعمل العام.. ليصل منهم عشرة بالمائة إلى القائمة القصيرة للترشيحات ليتم اختيار ثلثهم في مجمل الوظائف من «العِزبة».. إلى «الاتحادية».. أي: «ثلاثون ألفًا.. من مائة ألف.. من مليون.. من مائة مليون نسمة».

***

لنبدأ الآن - أو قبل الآن، لأجل تقديم «مصر الحضارية» التي غابت ملامحها وسط «مصر السياسية».. لأجل تقديم الذين يعلمون ويعملون، والإطاحة بتحالف الجهلاء الذي يتصور خطأ أنها اللحظة السانحة لكي ينمو ويتمدَّد.. بل إنها اللحظة السانحة لإنهائه تمامًا، والدفع به إلى خارج التاريخ!

www.ibtesamah.com/vb

مراكز الدراسات.. الهندسة الفكريّة في مصر

حين تخرجتُ في قسم العلوم السياسية في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة.. كانت الكلية تحوي عددًا من مراكز الدراسات المتميزة.. أحدها كان مركزًا عامًّا باسم «مركز البحوث والدراسات السياسية».. وقد كان بمثابة «المركز القائد.. الذي سطعت من حوله مراكز «الدراسات الآسيوية» و«الدول النامية».. وبرامج «الدراسات الأمريكية» و«الدراسات الأوروبية»... وغيرها.

كان مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام يوازي مراكز الكلية المرموقة.. ويحظى بمكانةٍ إقليمية ودولية كبرى.

وكان المركزان الكبيران «مركز الدراسات بالأهرام» و«مركز الدراسات في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية» يديران مشهدًا رفيعًا.. يحمل الكثير من التنافس والتكامل.

في تلك الأثناء كان هناك ما يمكن تسميته «مجتمع العلوم السياسية».. و«طبقة الباحثين السياسيين».. و«اقتصاديات مراكز الدراسات».. في مصر.

* * *

لقد تراجع ذلك كثيرًا.. تراجع كل المشهد الخاص بالدراسات السياسية.. وبدلًا من أن تشهد مصر المزيد من المراكز.. تراجع القليل إلى الأقل.. وتدهور مجتمع العلوم السياسية وتفككت طبقة الباحثين والخبراء.

www.ibtesamah.com/vb

حلّت العملة الرديئة محل العملة الجيّدة.. وحل النشطاء محلّ الخبراء.. تصدّر «الهاشتاج» وتراجع علم السياسة.

***

تحتاج مصر إلى شبكة واسعة وقوية من مراكز الدراسات السياسية والاستراتيجية.. تحتاج إلى نخبة من المراكز القائدة التي تحظى بمكانة إقليمية واحترام عالمي.. كما تحتاج إلى عددٍ من المراكز المتخصصة.. والمتخصصة للغاية. لتشكل المراكز جميعها «العقل السياسي» لمصر.

وحين عملت بالرئاسة المصرية.. التقيت نخبة من الباحثين السياسيين في مقر الرئاسة المصرية.. ووضعتُ تصورًا لتأسيس شبكة من المراكز الجديدة.. وقد نشرت الصحف أنباءً عن إعلاني بحث تأسيس مركز الدراسات الروسية ومركز الدراسات الإثيوبية ومركز الدراسات التركية ومركز الدراسات الإيرانية ومركز الدراسات الإسرائيلية. وكان تقديري أنه يمكن تأسيس خمسين مركزًا للدراسات السياسية يشكل إنتاجُها رؤية العقل المصري للمنطقة والعالم.

***

لا يمكن للسياسة أن تمضي بلا فكر.. ولا يمكن للإعلام أن يمضي بلا عقل. لقد أصبحت السياسة الإقليمية والدولية معقدة للغاية.. كما أصبحت السياسة الداخلية كثيفة ومتشعّبة.. ومن غير الممكن إدراك حقائق السياسة والاقتصاد، والاقتصاد والاجتماع.. في مجتمع المائة مليون مصري.. كما لا يمكن إدراك حقائق الإقليم المحيط والأقاليم المجاورة والعالم الذي يتغير على مدار الساعة.. دون تجديد العقل المصري.. ودون تحديث المدارس السياسية المصرية.. وهو ما لن يتأتّى دون تأسيس وتطوير مرفق الدراسات السياسية والاستراتيجية.

www.ibtesamah.com/vb

لقد أصبحت مراكز التفكير سلاحًا استراتيجيًا لا غنى عنه.. في إدارة السياسة المعاصرة. تأتي الفكرة بما لا تأتي به الحركة.. ويأتي العقل بما لا تأتي به الحزب.

FARES_MASRY
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر ديسمبر ٢٠١٨

www.ibtesamah.com/vb

مبادرة هارفارد.. قصة تجديد النخبة المصرية

حين عملتُ مستشارًا للرئيس السابق عدلي منصور.. أطلقتُ مبادرة «تجديد النخبة».. واستخدمتُ في بعض التصريحات تعبيرات حاسِمة وصادِمة من نوع «النخبة البديلة».

ولقد وجدتُ الكثير من الدعم، والكثير من النقد.. في هذه المبادرة.. التي شملتْ خريجي الجامعات العالمية الكبرى.

* * *

التقيتُ في مقر رئاسة الجمهورية في اجتماعات مطولة.. نخبةً من خريجي جامعات: هارفارد، وستانفورد، وكولومبيا، وMIT، وكامبريدج، ولندن، والسوربون.. وجامعات روسيا واليابان.. وجامعة «بتروناس» في ماليزيا، و«إنسياد» في فرنسا.

فوجئت بأن خريجي هذه الجامعات لا يعرفون بعضهم بالشكل الكافي.. وأنه لا توجد رابطة جادّة تجمع أولئك الذين تعلّموا في أفضل جامعات العالم.. وكانت سعادتي غامرة لأن عدد هذه النخبة قد تزايد فيما بعد.. وحين التقيتُ خريجي جامعة السوربون قلتُ لهم: «إن مجموعة خريجي هارفارد قد تضاعفتْ خمسَ مرات.. منذ لقائي بهم في الرئاسة قبل شهريْن».

www.ibtesamah.com/vb

لقد وجدتُ أنه من المناسب نشر سطورٍ عمّا جرى.. عمّا قلتُ وقالوا.. وعمّا تصوّرنا ورأَيْنا.

***

كانت الفلسفة الحاكمة لمبادرة «تجديد النخبة».. هي سدّ احتياجات مصر من الصَّفوة.. وتشكيل «طبقة فكرية» رفيعة المستوى.. تكون بمثابة «الظهير العقلي» للدولة.

وقد قلتُ في اجتماع خريجي هارفارد: «إذا لم تكن الجامعات المصرية موجودة من بين أفضل الجامعات في العالم.. فإن المصريين موجودون في أفضل جامعات العالم.. وقد حَانَ الوقت لاستعادة المبعوثين المصريين من الخارج.. في عملية عكسية لما كان يحدث قديمًا في عهد الزعيم محمد علي باشا.. الذي كان عليه أن يبدأ وأن يُرسِل.. ثم ينتظر».

وقلتُ في اجتماع خريجي كامبريدج: «إن التصور الاستراتيجي لمبادرة تجديد النخبة.. هو أن يتعرّف المجتمع العلمي على نفسِه وعلى الدولة.. ثم وضع تصوُّر للإطار الفكري للنخبة الجديدة.. وبعد ذلك صياغة رؤية تفصيلية لمَا يمكن للنخبة الجديدة عمله». ودعوتُ في لقاء خريجي جامعة إنسياد إلى العمل خلافَ القاعدة الاقتصادية الشهيرة.. «طرد العملة الرديئة للعملة الجيدة».. وقلت: «نريد أن نعمل عكس هذه القاعدة.. أن تطرد العملة الجيّدة العملة الرديئة».

***

لقد كان من الفلسفة الحاكمة لمبادرة «تجديد النخبة» أيضًا.. الحرب على اليأس.. كانت سيناريوهات الفشل والنهايات تطرحُ نفسها على وسائل

www.ibtesamah.com/vb

التواصل الاجتماعي على مدار الساعة.. مدفوعةً بآلة إعلامية جبارة.. وراءها عواصمُ ومصالح.

وقد كنت واضحًا في لقاء جامعة لندن: «لابد أن نتخذّ قرارًا نفسيًّا بـ(الأمل).. وهذه هي القاعدة الصلبة لهذه المبادرة».. وكنتُ أوضحَ في لقاء الجامعات اليابانية: «إن مصر تحتاج إلى العائدين من جغرافيا المعرفة.. وليس العائدون من جغرافيا الإرهاب.. تحتاج بلادنا إلى العائدين من هارفارد.. لا العائدين من أفغانستان».

***

اشتهرتْ مبادرة تجديد النخبة في وسائل الإعلام باسم «مبادرة هارفارد».. وذلك لأن أول اجتماعات النخبة كانت مع خريجي جامعة هارفارد.. وكذلك للمكانة المرموقة التي تتمتع بها الجامعة الأمريكية الأشهر.

لكن المبادرة لم تكن لتتوقّف عند الجامعات الكبرى.. من اليابان إلى الولايات المتحدة.. وبينهما روسيا وأوروبا.. بل اتسعتْ لتضم نخبة خريجي الجامعات الخمس الأولى في مصر.. والتي تصدّرت ترتيب أفضل (15) جامعة في الشرق الأوسط.. والتقيتُ نخبة أولى من خريجي جامعات القاهرة والإسكندرية وعين شمس والمنصورة وأسيوط.. واستقر الرأي على أن يكون أساسُ الاختيار.. أفضلَ رسائل الماجيستير والدكتوراه، والحاصلين على جوائز كبرى مصرية أو إقليمية أو دولية.

***

انتقدَ ساسةٌ وقادةُ أحزابِ المبادرة.. واعتبروها اعتداءً على مكانتِهم.. وإحلالًا قسريًّا من وجوهٍ جديدةٍ للإطاحة بوجوهٍ قائمةٍ.

www.ibtesamah.com/vb

لم يكنْ ذلك صحيحًا.. فلم تكنْ المعركة جزءًا من صراعٍ على هذا النحو.. وقلتُ في لقاء الجامعات الروسية: «إن المبادرة ليست مبادرةً جيليّة.. تنسِفُ جيلًا لحساب جيلٍ آخر.. بل هي مبادرةٌ عقليةٌ تنسف تفكيرًا لصالح تفكيرٍ آخر».

***

كانت الأجواءُ الموازية للمبادرة صعبةً للغاية.. كان الانقسام شديدًا، وقد قلتُ وقتها: «إن صعود منحنى الكراهية في مصر باتَ يهدِّد الأمن القومي».. وأشرتُ في لقاء خريجي ستانفورد إلى قول أحد أساتذتها: «إن الاستقطاب السياسي في أيِّ بلدٍ قد يؤثر على الاقتصاد.. بل وعلى الدولة ذاتها».. وبينما يجب وضع حدٍّ لمنحنى الكراهية.. فإن المصالحة المجتمعيَّة لا تكفي للانطلاق.. وقلت في لقاء خريجي كولومبيا: «إن المصالحة الحقيقية التي تريدها مصر هي المصالحة بين الشعارات والوقائع.. بين الموازنة العامة والفقراء.. بين العِلم والاقتصاد». وشرحت في لقاء جامعة لندن: «إن مطالب العدالة الاجتماعية تحتاج إلى تمويلها.. وإن المعضلة ليست في «العدالة الاجتماعية» وإنّما في «ما قبل العدالة الاجتماعية».. في عملية التّنمية اللازمة لتمويل العدالة».

***

لقد كانتْ مبادرة تجديد النخبة – إذن – هي محاولةٌ إحيائيةٌ في مواجهة عقودٍ من طَمْر الكفاءات، والخوف من الأقوياء، وحماية المقاعد عبْر تحالفٍ راسخٍ من عديمي الموهبة: ضعفاء يحمون ضعفاء.. في عمليةٍ مستمرةٍ من «تجديد الجهل».. و«إعادة إنتاج الفشل».

www.ibtesamah.com/vb

وإذا كان ذلك يمكن احتمالُهُ في السابق.. فإنه لم يعد ممكنًا احتماله الآن.. ذلك أن موجةَ الثوراتِ العربيةِ قد جرفتْ ضمن ما جرفتْ مئات المليارات من الدولارات.. وقد قلتُ في لقاء خريجي هارفارد: «إن الربيع العربي قد رفع الطلب على الحرية والديمقراطية.. ولكنّه أيضًا رفع الطلب على البنك والصندوق».

* * *

إن السياسة لم تخلق لجائع.. ولا يمكن أن يمضي المشروع الحضاري العربي بكثيرٍ من الكلام وقليلٍ من الاقتصاد.. ولا يمكنُه أن يمضي مدعومًا بحشودٍ غفيرة في مخيمات اللاجئين.

الأحرار الحقيقيون لا يبنون وطنًا من خيام.. ولا منازل من قماش!

* * *

كان التعبير الذي استخدمه بعض خريجي هارفارد في وصْف ما يجب.. موفّقًا للغاية: «الحضارة الجديدة».. قال أحدهم: «نحتاجُ إلى رؤية إبداعية لحضارةٍ جديدةٍ.. مثلما حدث في مصر منذ عشرة آلاف عام حين تغيّر المناخ.. فأبدعَ المصريون في «التكنيك» الزراعي.. وأقاموا الدولة.. إنّه التفكير في المستقبل، وليس تعديل الماضي».

يحتاج بناء حضارة جديدة إلى مجتمع جديد.. والمجتمع الجديد هو المجتمع القائم مع إضافة فكرٍ جديد. وكان أحد عناوين كتب الفيلسوف المصري زكي نجيب محمود: «مجتمع جديد أو الكارثة».

والمجتمع الجديد يحتاج إلى رؤية علمية تضَعُ نظريةً شاملةً لـ«تجديد المجتمع».. الذي لابد أن يواكب «تجديد النخبة». وقد أحسن خريجو

www.ibtesamah.com/vb

جامعة ستانفورد حين قالوا: «يجب الاستعانة بعِلم الاجتماع في بناء المجتمع الجديد».. ذلك أَنَّهُ بدون الفلاسفة وعلماء الاجتماع وأساتذة علم النفس.. يصعُب تطوير مجتمعٍ ضخمٍ وعريقٍ.. يحتاج تجديده إلى فهمٍ عميقٍ وحذرٍ شديدٍ.

***

ثمّة معضلة تقف في مواجهة «تجديد النخبة» و«تجديد المجتمع».. ذلك أن «النخب القادمة» باتَ قطاعٌ واسعٌ منها منفصلًا عن المجتمع.. وربما أنّه لا يريده.. وهي قطاعات تنظر إلى المجتمع من أعلى.. وتتنافس فيما بينها على أسسٍ طبقيّةٍ تتعلق بأسعار التعليم ومستوى الإنفاق.. إنها «نخبٌ» تتلقى تعليمًا أجنبيًّا.. خلقَ لديهم انفصالًا عن المجتمع وثقافتِه، وانتماءً إلى مجتمع الغرب وثقافتِه.

وبدلًا من أن يكونوا نواةً لتحديث مجتمعهم، ذهب الكثيرون منهم إلى «توبيخ» مجتمعاتهم، والحطّ من قدرِ شعبِهِم.. والنظر إلى الدولة والمجتمع باعتبارها في درجةٍ أقل.. لا يملكون إزاءها إلّا السخرية وإطلاق النكات في جلساتِهم المتعالية.. أو في وسائل التواصل الصاخبة.

ولقد عبّر عن هذا المأزق خريجو جامعة كولومبيا.. الذين رأوْا أن «أغلب أطفال المدارس الدولية الذين يمثّلون النخبة القادمة.. هم منفصِلون تمامًا عن المجتمع المصري وتاريخه وحضارته. هذه المدارس هي دولة داخل الدولة.. الأمر الذي أدّى إلى عدم التجانس داخل المجتمع المصري، وعدم التفاهم بين أفراد المجتمع».

***

www.ibtesamah.com/vb

إن مثلّث التعليم في مصر يحتاج إلى إعادة نظر: المدرس والتلميذ والمنهج.. كما أن المدارس الأجنبية والحكومية تحتاج إلى رؤية أفضل لِلمنظومة بكاملها.. وقد اقترح خريجو جامعة كولومبيا الأخذ من التجارب الناجحة في عملية «التدريس» مثل فنلندا.. التي أخذت منها الولايات المتحدة.. وحيث إن كليات التربية هي المنوط بها إعداد المعلمين.. يجب إذن إعادة النظر في كليات التربية في مصر.

وأما الجامعات فهي تحتاج إلى أمريْن أساسيين: التمويل والبحث العلمي. وقد ذهب خريجو جامعة كامبريدج إلى أن «الفارق الرئيسي بين الجامعات العالمية والجامعة المصرية هو البحث العلمي.. حيث يقتصر البحث في مصر على مجرد ترقيات أعضاء هيئة التدريس». لكن البحث يحتاج إلى تمويل.. وحسب خريجي ستانفورد.. فإن «مصادر التمويل في الجامعات العالمية أربعة: الحكومة، والوقْف، والتبرعات، ومصاريف الدراسة.. ولكن مصر تعتمد على مصدرٍ واحدٍ هو التمويل الحكومي.. وهو ما لا يكفي لبناء نهضة بحثية حقيقية».

اقترح خريجو جامعة موسكو وضعَ قانونٍ للبحث العلمي على غرار الهند عام 1958م.. وهو القانون الذي قادَها إلى ما هي فيه الآن من تقدم علمي كبير. واشتكى الخريجون من إهدار الموارد العلمية.. ذلك أن معظم الذين تلقوا تعليمًا عالميًّا لا يشاركون في السياسة البحثية أو العلمية في مصر.. وفيما يخص جامعات الاتحاد السوفيتي السابق وروسيا الاتحادية وآسيا الوسطى.. فإن هناك أكثر من ثلاثين ألف مصري ممن درسُوا وتخرّجوا في هذه الجامعات.. ولكنّهم «مجتمع مجهول» بالنسبة للدولة والمؤسسات

www.ibtesamah.com/vb

الحاكمة.. على الرغم من أن من بينهم آلاف العلماء والمهندسين، وفيهم نخبة من علماء الهندسة والفيزياء النووية.

* * *

اقترح خريجو ماساتشوستس «MIT» وضع «أطلس اقتصادي» لمصر.. بحيث تكون هناك خريطة اقتصادية كاملة للدولة.. ولنْ يكون ذلك من فراغ، ذلك أن هناك العديد من الدراسات والمشروعات التي تمّت بالفعل، والتي من شأنها أنْ تساعد على وضع هذا «الأطلس الوطني».

وقد أحصَى خريجو الجامعات اليابانية عددَ الدراسات الجاهزة، والتي تتعلَّق بالأطلس الاقتصادي لمنطقة واحدة هي «سيناء» بأكثر من (400) رسالة دكتوراه وماجيستير في جامعة قناة السويس وحدها.. غير أنّه لم تتم الاستفادة منها. يضاف إلى ذلك وجود خريطة «هيدروجيولوجية» لسيناء.. فيها تحديد للمياه الجوفية اللازمة للتنمية والتي تكفي سيناء لمدة (200) عام من التنمية.. غير أن الخريطة قد جرى اختزالها في مجرد الحصول على رسوم بسيطة مقابل تحديد أماكن حفر هذه الآبار.

هناك - أيضًا - دراسات ألمانية وفرنسية جادة جرى تقديمها بشأن تطوير السكة الحديد في مصر.. واقتراحات بإعادة النظر في مرفق سكك حديد مصر.. بما يتوافق مع احتياجات المجتمع والاقتصاد.. من تأسيس شبكة جديدة موازية، وفصل البضائع عن الركاب.. وتقسيم الشركة الجديدة إلى شركات إقليمية على أساس جغرافي.. وتأسيس «مركز أبحاث السكة الحديد» طبقًا للمعايير الدولية.. غيْر أنّ ذلك كلّه - أيضًا - لايزال يسكُن الأدراج!

* * *

www.ibtesamah.com/vb

يجب جذب الاستثمار الأجنبي لأجل بناء قوي للاقتصاد المصري.. ولكن بناء الاقتصاد يجب أن يكون بالاستثمار المصري أولًا.. والذي من شأنه أن يعزِّز الثقة لدى المستثمر الأجنبي.

وقد أجمع خريجو جامعتي هارفارد وستانفورد.. على أنَّ المستثمر الأجنبي لن يأتيَ إلّا إذا كان المستثمر المصري موجودًا بالفعل، وأنه يجب جذب المستثمر المحلي.. لأنَّه الطريق الوحيد لجذب المستثمر الأجنبي.

يتوازى مع ذلك.. وجوب عدم مساعدة الدولة لأيّ نشاط صناعي لا يرقى إلى المواصفات العالمية والقدرة على المنافسة.. وحتى فيما يخص المهن والحرف.. لا ينبغي تركها دون معايير وشروط حاسِمة.. حيث يجب وضع معايير جودة لكافة الحِرَف.. واشتراط حصول من يزاولها على رخصة مزاولة.

وإذا كان الاستثمار الأجنبي في مصر هو أساسي من أجل دفع عملية التنمية، فإن خريجي كامبريدج يرون.. أن الاستثمار المصري في الخارج، لاسيما في دول الخليج والذي يكاد يقارب الصفر.. هو أساسي في رفع موارد الدولة من العملة الصعبة.. ومن ثمّ يجب إقامة مشروعات مصرية في دول الخليج بدعم سياسي من السلطات المصرية.

إن «الأطلس الاقتصادي لمصر».. من شأنه أن يضع كل محافظات الدولة المصرية على خريطة الاستثمار والتنمية.. وحسب خريجي جامعة كامبريدج.. فإنَّهُ لا يمكن أن تتطوّر دولة.. بتطوّر عاصمتها فقط.. دون المناطق الأخرى. ومن غير المناسب أن تتمحور الدولة المصرية حول القاهرة.. بينما تزداد المحافظات سوءًا.. وتحتاج مصر إلى خلق «تمييز إيجابي» لصالح المحافظات.. من أجل تحقيق التوازن الجغرافي في عملية التنمية.

* * *

إن حلّ مشكلة الطاقة يجب أن يسبق أيّة نهضة صناعية.. وهنا يتوجَّب البحث في كل مصادر الطاقة.. لحل مشكلات «ما قبل الصناعة». ولكن أيّة طاقة هي الأنسب؟.. هنا المعضلة البنيوية في علم الاقتصاد.. حيث إن كلَّ قرارٍ تقريبًا يمكن اعتباره خطأً.. ذلك أن أغلب القرارات الاقتصادية لها آثار جانبية.. ويمكن للجانب المعارض أن يمدِّد ويعظِّم من الآثار الجانبية من أجل وقف القرار.

ولقد ثار نقاش مهم في لقاء خريجي ستانفورد وMIT.. بشأن الطاقة النووية.. ودافع طرفَا الجدل عن وجهة نظرهِما بوضوحٍ ودلائل. حيث اعترضَ البعض على الشروع في بناء مفاعلات الطاقة النووية في مصر باعتبارها إهدارًا للمال العام.. حيث إنها تتكلف أموالًا باهظة.. ثم إنها لن تستطيع توليد كهرباء إلا بعد سنواتٍ طويلةٍ.. ولكن الجانب الآخر كان وجيهًا في طرحِه.. حيث رأى أن الطاقة النووية في مصر هي خيار استراتيجي.. مثل صناعة الحديد في أمريكا.. حيث تعتبر الولايات المتحدة أهم مُنتِج للحديد في العالم.. على الرغم من الخسائر التي تتكبّدها بسبب تلك الصناعة.

إن واشنطن تعتبر صناعة الحديد هي صناعة استراتيجية.. وهنا تكون دراسة الجدوى هي أحد أبعاد المشروع النووي للطاقة.. وليست البعد الوحيد.. ثم إن هناك فوائد أخرى مهمّة للغاية سوف تترتب على بناء المفاعلات النووية في مصر.. مثل تحلية مياه البحر.

***

هل يمكن تأسيس شركة نفط وطنية عملاقة في مصر؟.. لقد طرح هذا السؤال خريجو جامعة بتروناس الماليزية.. وأجابوا عليه بكلمتين: نعم.. ويجب.

www.ibtesamah.com/vb

رأى الخريجون أَنَّهُ يجب الحد من الشراكة مع شركات النفط الأجنبية، حيث توجد شركات مصرية وكوادر مصرية رفيعة.. وأنّه يمكن الاستعانة بالمقاولين الأجانب في صيانة وإصلاح المعدات على أن تكون الصيانة داخل مصر، وأن تجري الاستعانة بالخبراء الأجانب لمدّةٍ معينةٍ، ثم يغادرون بعدها تاركينَ المشروع.. لتديرُه العمالة المصرية التي قاموا بتدريبها.

ثم إِنَّهُ يجب امتلاك حقول نفط في مصر على غرار شركة بتروناس عملاق النفط الماليزية.. والحلّ الاستراتيجي لذلك كله.. هو تأسيس شركة نفط وطنيّة عملاقة لاستخراج الغاز والنفط.. حيث إن معظم الشركات الموجودة في مصر هي شِراكات أجنبية.. الحصَّة غير المصرية فيها مرتفعة.

لقد أصبحت شركة بتروناس الماليزية من الشركات السبع الكبرى في العالم.. وأصبحت تساهم بجزء رئيسي من الدخل القومي الماليزي، وتعمل في (35) دولة.. على الرغم من أنَّ إنتاج ماليزيا من النفط محدود.

إن المجتمع البترولي المصري قوي وذو مهاراتٍ عالميّةٍ.. والمصريون يحتلون مواقع كبرى في شركات النفط العالمية.. وتأسيس شركة وطنية عملاقة للنفط.. هو أمرٌ ممكنٌ.. وواجِب.

* * *

كيف يمكن وضع ذلك كله.. من التعليم إلى الطاقة.. في إطارٍ واحدٍ؟

إِنَّه «الفريق الاستراتيجي».. وقد اقترح خريجو مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية وخريجو مدرسة لندن للإدارة.. أن يكون هناك مبنى يضم كفاءات من كل التخصُّصات.. تضعُ خطوطًا مستقبليّة للدولة.. خلال عامٍ

www.ibtesamah.com/vb

وعامين وثلاثة وعشرة أعوام.. ووضع خطة لكل قطاع. يوجد هذا المبنى في بكين.. ويمكن أن يكون هذا المبنى في القاهرة.

* * *

لقد كانت هذه سطور من لقاءاتي مع المصريين خريجي الجامعات العالمية الكبرى. يعمل عددٌ من الذين شاركوا في المبادرة في مؤسسات الدولة الآن.. وقد نشر بعضهم مقالاتٍ وكتبًا في أعقاب المبادرة.. كما تحدّث بعضهم في برامج وندوات.. وفي عام 2015م.. أسّس الخريجون جمعية خريجي الجامعات العالمية.. لحماية الفكرة.. والحركة.

www.ibtesamah.com/vb

اللوبي المصري العالمي.. حتميّة وطنيّة

في أغسطس 2013م قام ملك السويد «كارل جوستاف» وزوجته الملكة «سيلفيا» بزيارة إلى أحد المتاحف. تقدَّم مواطن فلسطيني وزوجته واستأذنَا أفراد الحرس الملكي في أن يهديَا الملك والملكة «الشال الفلسطيني».. وبعد السماح لهما.. تقدَّم المواطن وزوجته – حسب الصحيفة المراكشية – ووضعا «الشال» على كتف الملك والملكة.

استغرق بقاء «الشال» على كتف ملك السويد (33) ثانية.. وفور بثّ صور الملك والملكة وهما يرتديَان الرمز الفلسطيني بدأ اللوبي الصهيوني في نقد الصورة.. وتوالت التساؤلات: «هل تغيّر موقف السويد؟.. وتوالت سلسلة تحليلات لمكونات «الشال» ودلالاته.. من صورة «القبة العمريّة» إلى العبارة المكتوبة: «أقصانا وليس هيكلهم».

* * *

إنّ المواطن الفلسطيني «بسام سعيد» وزوجته «عفاف» يمثِّلان أصغر لوبي في العالم استطاعَ أن يحقق هدفًا كبيرًا.. عبْر صورة تاريخية استغرقتْ نصف دقيقة!

لقد باتَ إقناع العالم بحقوقنا ومصالحنا.. حتميّة أساسية، فبعد أن أصبح الخارج جزءًا من الداخل.. لم يعُد رأي العالم أو رؤية الخارج أمرًا يدخل في عداد «الاطلاع» و«المتابعة».. بل أضحَى جزءًا من صميم الشئون المحلية.

www.ibtesamah.com/vb

في هذا السياق أود أن أطرح المعالم العشرة التالية:

أولا: لا تزال الولايات المتحدة الأمريكية هي القوة الأهم في عالم اليوم.. وقد تحولَّت العديد من دول العالم من معادلة «الصراع مع أمريكا» إلى معادلة «الصراع على أمريكا».

ثانيًا: إن العالم العربي والإسلامي وفي القلب منه مصر.. لا يمكنه أن يغفَل الحواجز الثقافية والسياسية مع الولايات المتحدة، ولا يمكنه أن يتجاهل عدم توازن الموقف الأمريكي إزاء الصراع العربي الإسرائيلي، وإزاء جماعات الإسلام السياسي.. وعددًا من الملفات والقضايا الأخرى.

ثالثًا: إن صناعة القرار السياسي في الولايات المتحدة تشارك فيه دوائر مختلفة ومصالح متعددة وجماعات ضغط متصارعة.. ليس من بينها «اللوبي المصري» وليس من أقواها «اللوبي العربي».

رابعًا: إن بعض الجماعات والقوى في مصر قد حاولت التأثير في صناعة القرار الأمريكي.. ولكنها لم تفعل ذلك في إطار المصلحة الوطنية، وإنما في إطار المصلحة السياسية للجماعة والتنظيم، والتي جاءت مناقضة ومناهضة للمصلحة الوطنية.. وبدلًا من أن تكون إضافة للدولة المصرية.. أصبحت خطرًا على الأمن القومي لبلادنا.

خامسًا: إن الولايات المتحدة الأمريكية وإنْ كانت القوة الأهم في العالم إلا أنها ليست القوة الأوحد في العالم.. ذلك أن قوة الصين وروسيا ونفوذ ألمانيا ومكانة الهند.. حقائق لا تغفلها عيْن.

سادسًا: إن مصر كانت حاضرة دومًا في القرارات السياسية لعواصم العالم الكبرى.. ولكنها اليوم أكثر حضورًا وإلحاحًا.. وقد أدت الثورتان المصريتان

www.ibtesamah.com/vb

في يناير 2011م ويونيو 2013م إلى «عولمة» السياسة المصرية أكثر من أي وقت مضى.. وربما أكثر من أيّة دولة أخرى.

سابعًا: إن الهدف الرئيسي لشعبنا على مدى التاريخ.. كان «تأسيس» أو «استعادة» الحضارة المصرية.. ولم يكن شاغل مصر في معظم تاريخها هو الطعام والشراب.. فحسب.. بل كان شاغلها هو «المشروع الحضاري».. أي المكانة المادية والمعنوية للدولة المصرية.. وهي المكانة التي تحمِل رسالةً «فوق بيولوجية».. تتجاوز المرافق والسياسات العامة ومستوى المعيشة.

ثامنًا: يشعر المصريون بالأَسَى الشديد على ما أصاب بلادهم على مدى عقود من تراجع المكانة وانكسار الحضارة.. وينظُر الشعب بحالة من الحزن على «ما كان» وعلى «ما أصبح».. على الصراع الذي هـزَمَ الاقتصاد، وعلى «السياسة» التي هزمت «الحضارة».

تاسعًا: يدرك المصريون أن «الخارج» كان دومًا في حالة عداء مع بلادهم إذا ما اقتربوا من الانطلاق الحضاري.. ويعلمون جيدًا أن إدراكهم ذلك ليس من باب «المؤامرة» أو «الشعور بالاضطهاد» أو «الهوس بالأجانب» بل يعلمون أن هذه الحقيقة هي خلاصة تاريخهم مع القوى الدوليّة.. حدث ذلك مع كل من حاول.. من «محمد علي» إلى «أنور السادات».

عاشرًا: إذا كانت الأغلبية الساحقة من الشعب قادرة على تصحيح الداخل.. وضبط المسار الوطني نحو الأهداف «ما بعد الاقتصادية».. فإن الخطر الأكبر يتأتّى من الخارج.. ولمّا ثبت تواطؤ الإعلام الدولي، وتدهور المعايير الأكاديمية لدى مراكز البحث والتفكير الغربي لأجل أغراض سياسية.. ولما ثبتَ أيضًا جهل العديد من الساسة حول العالم بأبسط الحقائق

www.ibtesamah.com/vb

في بلادنا.. لذا لزم أن نخرج إليهم.. أن نذهب إلى هناك.. لا لنشْرح ونوضِّح.. بل لنحمِي ونذود عن أحلام بلادنا.

* * *

الأمر قريب جدًّا مما كان يفعله أجدادنا العظام الذين كانوا يذهبون بجيوشهم خارج الحدود للقاء العدو بعيدًا.. يجب علينا أيضًا أن نذهب إلى «البعيد» لنحمي «القريب».. أن يحمي رجالنا وحلفاؤنا في عواصم الغرب مصالحنا في القاهرة. إنَّنا لن نذهب هذه المرة لكي نهاجم أو نحارب.. أو أن نثير الفتنة أو نطلق الاشتباك.. بل نذهب حاملين القيم الإنسانية العالمية في التعاون والسلام والرخاء.

لن نكون «منافقين» لأنَّنا فشلنا في أن نكون «محاربين».. بل نحن نحمِل رسالتنا الأخلاقية الحقيقية التي طالما حملناها.. والتي صاغها ديننا العظيم، وقامت على تشكيلها وحمايتها القيم المصرية والعربية الرفيعة.

لقد سبقَ لي أن دعوتُ مرارًا إلى تأسيس «اللوبي المصري العالمي».. وقد نشرت الصحف ما قلته لوفد اتحاد المصريين بالخارج والذي التقيته في سبتمبر 2013م: «إن الوجود المصري العالمي قوي.. ولكن النَّاتج الإجمالي ضعيف.. وهو ما يفرِض علينا بحث آليات تأسيس لوبي مصري عالمي.. لا يخضع للإيدولوجيا أو الحزبية.. بل يعمل في إطار المصلحة الوطنية والدولة المصرية».

«حاول نظام الرئيس الأسبق (حسني مبارك) أن يمتلك نفوذًا في الولايات المتحدة وحاول الرئيس السابق (محمد مرسي) الأمر نفسه.. لكن (مبارك) كان يبحث عن الحماية لمشروع السلطة، وكان (مرسي) يبحث عن الحماية لمشروع الجماعة».

* * *

www.ibtesamah.com/vb

لقد حانَ الوقت لتأسيس «اللوبي المصري العالمي» ليس لأجل رئيسٍ أو نظامٍ.. بل لأجل المصلحة الاقتصادية والسياسية والعسكرية.. ومن أجل حماية بلادنا ودورنا ومشروعنا.

ولقد تأمَّلتُ صعود اللوبي الياباني في الولايات المتحدة وإنفاق اليابان بنهاية الثمانينيات (100) مليون دولار سنويًّا لتمويل اللوبي، بالإضافة إلى (300) مليون دولار سنويًّا لتشكيل الرأي العام الأمريكي، وقد نجحتْ اليابان في اجتذاب أقوى رجال واشنطن للعمل لصالحها.

كما تأمَّلتُ صعود اللوبي الصيني.. عبر دعم مراكز البحث والجامعات وعبر رجال الأعمال الصينيين الحاصلين على الجنسية الأمريكية.. وهم من دعموا حملة «كلينتون» مقابل تطوير العلاقات مع الصين، ثم واصلوا في عهدي «بوش» و«أوباما» و«ترامب». ويعرف القراء الكثير جدًّا عن اللوبي الصهيوني ودوره في صنع بعض السياسات الأمريكية.

هناك ما يلفت الانتباه في هذا السياق.. إنه صعود عدد من اللوبيهات الإقليمية التي لم يكن لها ذكر من قبل. هناك اللوبي التركي الذي تم إطلاقه على نحو أوسع في عام 2010م باسم «تجمع الاتحادات الأمريكية التركية» وهناك اللوبي الإيراني الذي يمثله «المجلس الوطني الإيراني الأمريكي» والذي ساهم كثيرًا في التقارب الإيراني الأمريكي في عهد «روحاني» و«أوباما».. وقد روَّج له موظف الاستخبارات الأمريكية السابق «روبرت بير» في كتابه «الشيطان الذي نعرفه».

ويتحدَّث الإعلام الغربي عن اللوبي الكردي العراقي الذي تأسَّس بقيادة نجل الرئيس العراقي «قباد جلال طالباني» والذي قدم عرضًا مباغتًا للجنرال

www.ibtesamah.com/vb

«ديفيد بترايوس» ليكون مستشارًا أول لـ«مسعود برزاني».. إضافة إلى مستشارين سابقين مثل «زلماي خليل زادة» و«جون أبي زيد».

***

إذن لم يعد اللوبي الإسرائيلي وحده هناك، بل لوبيهات شرق أوسطية.. تتصارع على عقل واشنطن.. دون هوادة.

هناك ما يلفِت الانتباه أيضًا.. أنَّ هناك لوبي سعودي وآخر إماراتي وثالث فلسطيني.. هم الأقوى بين اللوبيهات العربية.. وقد أظهرت ثورة يونيو أهمية تحالف اللوبيهات العربية، وأهمية إعادة تأسيس لوبي عربي كبير.

إنَّها الحاجة إذن إلى تأسيس لوبي مصري عالمي.. وتأسيس شبكة للتنسيق بين اللوبيهات العربية في أمريكا والعالم. ولا يتأسَّس ذلك لأجل أهدافٍ محدودةٍ أو سياساتٍ قصيرة المدى.. بل لأجل أهدافٍ دائمةٍ واستراتيجياتٍ مستمرةٍ.

وإنني واحدٌ ممن يروْن أن ذلك ممكنٌ للغاية.. وأن سوء الحظ الذي لازمنا بوجود اللوبي العكسي.. أي انخراط بعض الأكاديميين والباحثين والإعلاميين المصريين في الولايات المتحدة في العمل.. بمثابة لوبي أمريكي في مصر بدلًا من أن يكون لوبي مصري في أمريكا.. يمكن لسوء الحظ هذا أن ينتهي.

ذلك أنَّ حفنة الأسماء من المصريين الأمريكيين الذين لمعوا في الإعلام المصري والغربي لانبهارهم بالخارج وانتمائهم لـ«الآخر».. يمكن إغراقهم.. وسط فيْضٍ غزيرٍ.. من كفاءاتٍ مصريةٍ رفيعةٍ تعيش بنجاح في الخارج.. وتعيش بوفاء وإخلاص للداخل.

إنَّ تأسيس «اللوبي المصري» ليس بالأمر الصَّعب أو بعيد المنال.. ببساطة شديدة: لقد نجح كثيرون.. ويمكننا أن ننجح أيضًا.

www.ibtesamah.com/vb

وكالة المعونة المصرية

زرتُ جنوب السودان.. سافرتُ مع وزير الخارجية سامح شكري بصحبة الصديقيْن: السفير بدر عبد العاطي والمستشار أحمد أبوزيد.. وثلاثتُنا: عبدالعاطي وأبوزيد وأنا.. من مدرسة علمية واحدة.. فقد تخرَّجنا في قسم العلوم السياسية في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.. جامعة القاهرة.

* * *

مرّت الطائرة التي استغرقت أربع ساعات، على نهر النيل وقناة جونجلي.. وشاهدنا أمطارًا وأشجارًا بلا حدود.

استمعتُ من الوزير سامح شكري إلى رؤيته للسياسة الخارجية المصرية، وسمعتُ من السفير بدر عبدالعاطي تفاصيل ما أَجْمَلَهُ الوزير، وأما المستشار أحمد أبوزيد والذي يعرف إفريقيا جيدًا.. فقد تحدَّثنا طويلًا عن السودان وعمّا حوله.

* * *

تمتّد جنوب السودان على مساحة تزيد عن (600) ألف كيلومتر مربع، ويقطنها أكثر من عشرة ملايين نسمة.. وفيها (85٪) من نفط السودان الكبير (شمالًا وجنوبًا).

www.ibtesamah.com/vb

لكن الغرب الذي دعَّم انفصال جنوب السودان، وقدّم وعودًا لا تنتهي عن الثّراء والرّخاء.. وعن التقدم والازدهار الذي ينتظر البلاد والعباد.. قد ترك الدولة الجديدة ترتع في الرصاص والدماء!

أصبحت الحرب الأهلية في جنوب السودان مروّعة.. قتلى بلا عدد، وأكثر من (2) مليون مواطن تركوا منازلهم نازحين ولاجئين!

حين نظرتُ من شرفة فندق كراون بلازا في جوبا.. وجدتُ طائرة ملقاة على الأرض.. كانت قد أصيبت في الاشتباكات وسقطت أمام الفندق.

***

تعمل الصين بلا انقطاع من أجل تعزيز استثماراتها في البلاد، وتعمل الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا لأجل مصالحها هناك. وَحْدَهَا مصر التي تعمل لصالح الشعب السوداني الجنوبي دون غرض أو هوى.

مصر هي التي أضاءت جوبا، أول إضاءة كهربائية كانت من محطة مصرية ضِمن محطات ثلاث قامت مصر ببنائها.

مصر - أيضًا - هي الدولة الوحيدة التي أسَّست مركزًا طبيًّا مجانيًّا.. حيث تتزاحم طوابير المرضى من جنوب السودان أمامه.. كشفًا وعلاجًا دون تحمل أيّة تكلفة.

ومصر هي - كذلك - التي أسَّست فرع جامعة الإسكندرية في جوبا.. إيمانًا بدور العلم في بناء المستقبل.

***

في جنوب السودان يعشقون الفنان الكبير عادل إمام.. وقال لي أحدهم: لو جاء عادل إمام إلى هنا.. لقامتْ مليونيَّة سودانيَّة لاستقباله. لكن السينما

www.ibtesamah.com/vb

والدراما المصرية غائبة عن جنوب السودان وعن كل إفريقيا، وأذكر أنني حين زرتُ غينيا الاستوائية مع رئيس الوزراء السابق إبراهيم محلب.. طلب منّا رئيس غينيا أن نهدي التليفزيون الغيني الدراما والأفلام والبرامج المصرية.. وترجمتها لإذاعتها.

لم يحدث أي شيء من ذلك.. وما شاهدتُه من قبل في غرب إفريقيا شاهدتُه مرة أخرى في شرق إفريقيا.. حيث توجد قناة الجزيرة وحدها دون منافس. وقد اندهشتُ حين رأيتُ نزلاء الفندق في جوبا يجلسون وأمامهم شاشة القناة القطريّة!

***

تحتاج مصر وهي تبني الجمهورية الجديدة.. إلى إعادة رسم القوة الناعمة المصرية. تحتاج بلادنا إلى تخطيط مُحْكَمْ للصادرات المعنوية.. أن تتواجد أفلامنا ومسلسلاتنا وأغانينا ومؤلفاتنا.. بلغات العالم.. ولا سيَّما في العالم الثالث.

كما تحتاج مصر إلى تأسيس «الوكالة المصرية للتنمية الدولية» على غرار ما فعله الرئيس الأمريكي جون كينيدي عام 1961م بتأسيس «الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية».. وعلى غرار الوكالة اليابانية الشهيرة «الجايكا» ووكالات دولية عديدة.

***

سيقول البعض إن مصر دولة تتلَّقى المعونات من أمريكا، فكيف لها أن تطْلِق «وكالة المعونة المصرية»؟!

www.ibtesamah.com/vb

لا أتحدَّث إلى اليائسين ولا الكارهين.. لكنّي أتحدث إلى الذين يريدون أن نعيد رسم بلادنا.

ببساطة.. لدينا جهود إنسانية عملاقة في إفريقيا ودول أخرى، ولدى الأزهر أيادٍ بيضاء حول العالم.. ولدى منظمات الإغاثة المصرية جهود مهمة في مناطق مختلفة.

ببساطة أيضًا.. نحن ندعم دولًا عديدة، ولا يمنع هذا أن نتلقى الدعم نحن أيضًا من دول أخرى، نحنُ نساعد العديد من الدول.. ونتلقى المساعدات والقروض من دول أخرى.. الحقيقة أننا نساعد.. وليس في هذا تناقض.. هذه طبيعة الاقتصاد والسياسة في العالم.

لقد قرأت مؤخرًا عن دعم من وكالة المعونة اليابانية لوكالة الأونروا للاجئين الفلسطينيين بخمسة ملايين دولار.. وهو رقم أقل من مشاركة جمعية خيرية مصرية واحدة لصالح فلسطين.

لقد سبق لي أن شاركتُ في «قافلة حزب الوفد» إلى غزة قبل ثورة يناير، وكان حجم المعونات لهذه القافلة وحدها يفوق الدعم الياباني لوكالة الأونروا.

* * *

حانَ الوقت لجمْع كل الجهود المصرية.. الحكومية وغير الحكومية تحت عنوان واحد.. يكون له جهاز إعلامي قوي.. يشرح للعالم رسالتنا الحضارية، وما الذي نفعله من أجل الآخرين.

حان الوقت لتأسيس «الوكالة المصرية للتعاون الدولي».. «وكالة المعونة المصرية».

www.ibtesamah.com/vb

أقول بوضوح: إن فكرة وكالة المعونة المصرية لن تقوم على الدعم المالي بالأساس، نظرًا لطبيعة اقتصادنا، والحقبة التي تمر بها بلادنا.. وإنما تقوم في جوهرها على الدعم الفني والثقافي، والذي نملك منه الكثير.. أطباء ومهندسين وخبراء ري وزراعة وطاقة.. وقوة ناعمة.. هي وكالة فنية للمعونات تجمع المتفرقات الهائمة من المساعدات المصرية، لأجل المشاركة في صياغة صورة قوية وسامية لبلادنا.

إن لديْنا رسالة حضارية.. ولكنّها مُبعثرة، كما أنَّها مجهولة.. ومن الواجب توحيد رسالتنا.. ثم نقلها من السرِّ إلى العلن.

إنَّ المساعدات الخارجية للدول ليست «صَدَقَات عائلية» لا تعرف يمينُنا ما أنفقَتْ يسارُنا.. بل هي سياسة خارجية وصورة ذهنية، كما أنها حسابات وتكتلات.. يجب صياغتها بما يناسب وما يليق.

www.ibtesamah.com/vb

منظمة التعاون لدول البحر الأحمر..
ورقة مبادرة

جاءتني فكرة هذه المبادرة من زيارتي إلى شواطئ البحر الأسود.. ثم متابعتي للسياسة والاقتصاد في محيط هذا البحر المهم. وقد أُعجبتُ بالتسوية الاقتصادية التي توصَّلتْ إليها الدول المُطِلَّة.. من معاهدة جرى توقيعها أوائل التسعينيات، ثم منظمة جرى تأسيسها في أواخر التسعينيات.

إن منظمة التعاون لدول البحر الأسود، والتي تضم (12) دولة، هي منظمة ملهمة لنا لتأسيس «منظمة التعاون لدول البحر الأحمر»، والتي يمكنها أن تضم (8) دول في عضويتها.

***

يمثِّل البحر الأحمر قيمة اقتصادية واستراتيجية مهمة، ثم إنه يمثِّل مجالًا تاريخيًّا وحضاريًّا بارزًا.. إنه البحر الأكثر ملوحة، والتي تصل مساحته إلى نحو نصف مساحة مصر، يحمل الكثير من تراث الماضي والأكثر من آفاق المستقبل.

كان البحر الأحمر الصلة بين الجزيرة العربية وما وراءها، وشرق إفريقيا وما حولها لقرونٍ طويلة.. وكانت الهجرات من الساحل العربي إلى الساحل الإفريقي لا تتوقَّف.. كما كانت الهجرات الإفريقية هي الأخرى قائمة

www.ibtesamah.com/vb

ومتكـررة.. ويقـول الأكاديمـي السـعودي الدكتـور عبد الرحمـن الأنصاري والذي دعا مصر في السـابق إلى تأسـيس «مركز حضاري» للبحر الأحمر: إن هنـاك إثيوبيين يعتقـدون أنهم من الجزيرة العربية.. كما أن ملك الحبشـة كان يضـم في لقبه «ملك اليمن».. بعد أن غزَا الأحباش اليمن.. فكان ملك إثيوبيا و«حميَر وسبأ».

إن «أبرهة الحبشـي» هو أحد ملوك الأحباش الغزاة في اليمن.. وهو الذي خـرج إلى مكة المكرمة قاصدًا هـدم الكعبة.. فكان العقاب الإلهي الذي جاء ذكره في القرآن الكريم في «سـورة الفيل».. كان ذلك بعد أن أسقط الأحباش «مملكـة حميَر» عـام 521 ميلادية.. بعد أن تحالفوا مـع البيزنطيين ثم تمكنوا من حُكم اليمن.

وكانـت قريـش بدورهـا تعـرف إثيوبيـا جيـدًا.. وحيـن ازداد أذى قريش للمسـلمين الأوائل.. أمرهـم الرسول (ﷺ) بالهجرة إلى الحبشة نظرًا للعدالة المعروفـة عـن مَلِكِهـا.. كمـا أوفـدت قريش وفـدًا لاسـترجاعهم.. مـا يدل – بحسـب الأنصاري – على عمق العلاقة بين قريش والبلاط الحبشـي في تلك الأثناء.

***

يذكر بعض المؤرخين أن «بلاد بونت» لم تكن تشير إلى الصومال وبعض أجـزاء شـرق إفريقيـا وحدها، بـل كانت تضـمُّ أيضًا الجزيـرة العربيـة.. وأن مصـر حيـن كانت تتبـادل التجارة مع بلاد بونـت.. إنما كان ذلـك عبْر التمدُّد الاقتصـادي والتجاري لمصـر.. من خلال البحـر الأحمر في الضفـة الغربية والشرقية على السواء.

***

www.ibtesamah.com/vb

إن مصـر هـي موجـز تاريخ البحـر الأحمـر.. بمثل مـا إنها موجـز تاريخ الحضارة.. وإن قيامها بتأسيس هذه المنظمة.. لا يدعم الحوار والاحترام بين دول البحـر الأحمر فحسـب.. بل يفتح الطريق لأن تنطلـق اقتصاديات البحر الأحمر.. إلى حقبة حديثة من التعاون تعيد التاريخ بإمكانات الحاضر.

إن مصر غربًا والسـعودية شـرقًا.. يمكن أن يكونـا ركيزتي هذه المنظمة.. كمـا أن وجود أرتيريا وجيبوتي واليمن يعـزِّز من ضمانات حماية مضيق باب المنـدب ومـن ثمّ قناة السـويس، كما أن وجود الأردن وفلسـطين والسـودان يعزِّز من «التعاون العربي الأفرو آسيوي» على نحو غير مسبوق.

***

ثمّة مؤسسات لابد منها قبل الانطلاق.. تأسيس «جامعة الغردقة».. ولولا أن السـودان قد سبق وأسَّـس جامعة البحر الأحمر في بورسودان في أواسط التسـعينيات.. لكان الأنسـب أن يكون اسـمها جامعة البحـر الأحمر.. ولكن اسـم الغردقة على أيٍّ حال اسـم عالمي كبير. وسـتحظى جامعتها بالشـهرة الكافيـة قبـل أن تبـدأ. كمـا تحتاج مصـر إلى تأسـيس «منتدى البحـر الأحمر الاقتصادي»، وكذلك تأسيس «منتدى البحر الأحمر لحوار الحضارات».

تحتاج مصر كذلك إلى تطوير «ريفييرا البحر الأحمر الشمالية» في جنوب سيناء، ثم «ريفييرا البحر الأحمر الجنوبية» من الجونة إلى حلايب.

***

إن مدينة الغردقة مناسبة تمامًا لتكون مقرًّا للأمانة العامة للمنظمة.. كما أن انعقاد «مؤتمر الغردقة للدول المطلة على البحر الأحمر».. ثم إصدار «إعلان الغردقة» التأسيسـي لـ«معاهدة» ثـم «منظمة» التعاون لـدول البحر الأحمر..

www.ibtesamah.com/vb

هــي خريطة الطريق لهذا التجمُّع الــذي يمكنه أن يتجاوز في الفرص والبدائل ما هو متاحٌ لمنظمة التعاون لدول البحر الأسود.

إن تأسـيس «منظمة التعاون لدول البحــر الأحمر» ضرورة وطنيّة لبلادنا.. ومصلحة إقليميّة لمحيطِنا.

www.ibtesamah.com/vb

الاتفاق النووي المصري.. نموذج لصناعة

أزمة ثم إدارتها

تحتاج الأوطان إلى حلم كبير.. إلى عنوان كبير.. إلى كلام كبير.. إن بعض القادة الأتراك أجابوا عن سؤال: لماذا أوروبا.. وأنتم لم تدخلوا الاتحاد؟.. بقولهم: إن أوروبا هي العنوان الذي نجمع الشعب عليه ونقودهم إليه.. إننا لا نحتاج أوروبا قدر احتياجنا للحلم الأوروبي!

كان مهاتير محمد غير مقتنع بالحلم الأوروبي ولا الحلم الأمريكي، فكان اختراعه الفكري والسياسي الكبير بشأن الحلم الياباني.. وكان كل جهد مهاتير في بدايات النهضة: كيف يصحو الماليزيون من النوم فلا ينظرون إلى ثقافة القصدير والمطاط البدائية.. بل ينظرون إلى مجمل الحلم الياباني.. كيف لا تنظر قومية المالايو إلى القومية الصينية وإلى القومية الهندية.. بل تنظر القوميات الثلاث التي تشكل ماليزيا.. إلى قِبلة حضارية واحدة هي.. اليابان!

نحتاج إلى أن ينسى العالم صورة البلد الفقير، الذي يتعثر في إشباع مواطنيه.. إلى بلد أكثر جرأةً وحضورًا. ويبدو لي أن فكرة تخصيب اليورانيوم.. ربما تكون العنوان الأفضل لمصر القادمة.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

إن تخصيـب اليورانيـوم لا يكون إلا في إطار منظومـة علمية وتكنولوجية متميـزة. من أجـل تخصيـب اليورانيوم.. سـنقوم بخطوات وإجراءات تشـبه تهيئـة البـلاد لاسـتضافة كأس العالم.. وبمثـل ما يجري من إعـداد الملاعب والفنادق والمواصلات.. سـتجري عملية واسـعة من إصلاح كليات العلوم، إلـى اجتذاب العلماء المصرييـن من الخارج، إلى وضـع قوانين صارمة، إلى بناء مرافق علمية ذات مقاييس عالمية.

إن تخصيب اليورانيوم في مصر عمل لا يخالف معاهدة الانتشـار النووي ولا قوانين الوكالة، وحين سـألت الدكتور محمـد البرادعي عن ذلك، وكنت فـي مكتبه في فيينا حين كان المدير العام للوكالـة الدولية للطاقة الذرية.. قال لـي: إن العالم بصدد تشـريعات جديدة لوضع قيود علـى تخصيب اليورانيوم داخل الدول.. ولكن الوضع الحالي يسمح، بشرط إبلاغ الوكالة ورقابتها.

***

إذا مـا نجحتْ مصر في تخصيب اليورانيوم سـيكون ذلـك إنجازًا تاريخيًا كبيرًا، وستوضَع مصر في مصاف الدول الجادة في العالـم.. سيكون ذلك كله في إطار الشرعية الدولية..

سـيقول البعـض: إننـا ندفع بذلـك بلادنا إلـى صِدام مـع العالم.. ثـم إننا لـن نسـتطيع.. لا تخصيب اليورانيـوم، ولا هذا اللعب الخشِـن في العلاقات الدولية.

لا يخلـو هذا القـول من وجاهةٍ ومنطقٍ. ولكن عـدم دفع الأمور إلى حافة الهاوية هو أمر ممكن.. وإدارة الصراع دون الصدام هو أساس عمل السياسة.. كما أن التصعيد من أجل التفاوض والمكتسـبات.. هو أسلوب راسخ في بناء الاستراتيجيات.

www.ibtesamah.com/vb

لن يتجاوز الأمر مبادئ القانون الدولي ولا قواعد اللعبة.. ويمكن التسوية بسهولة قبل الوصول إلى منطقة العقوبات أو الحِصار.. أو الاندفاع في أتون حربٍ أو قتال.

إن الاستراتيجية ببساطة هي: احتلال كل المساحة المتاحة في القانون الدولي بشأن الملف النووي.. ويقع «تخصيب اليورانيوم» ضمن هذه المساحة.

***

لا يعني مفاعل أنشاص الكثير، ولم يمثّل للبرنامج النووي المصري في السابق القيمة الكافية.. وكل ما تم إنجازه نوويًا في السابق.. لا يزيد على الوضع النووي المناسب لجامعة إقليمية.. ذلك أن كبريات الجامعات في العالم لديها مفاعلات أبحاث متقدمة. وكان يجدر بجامعة القاهرة أن يكون لديها مفاعل نووي.. وكان يجدر أيضًا أن يكون هناك مفاعلان آخران في جامعة الإسكندرية وفي جامعة أسيوط. ومن الكوادر العلمية والفنية والإدارية لهذه المفاعلات الثلاثة تتشكل الطبقة العلمية النووية في مصر.

والمدهش أن مصر لها ميزة نسبية في ذلك الملف دون ملفات أخرى أسهل وأبسط.. إن إمكانات الكوادر المصرية في المجال النووي أعلى منها في مجالات استصلاح الأراضي أو صناعة السيارات أو صناعة النسيج، والمدهش أيضًا أن الدولة المصرية قد استسلمت بسهولة شديدة للتحديات الإسرائيلية في إنجاز البرنامج النووي المصري.

***

لقد بدتْ مصر - في الستينيات - عاجزة عجزًا مهينًا عن حماية علمائها من الاغتيال، أو حماية العلماء الأجانب من الطرود المتفجرة التي كانت

www.ibtesamah.com/vb

تأتيهم على عناوينهم.. إن حماية هؤلاء وهؤلاء عمل سهل، وقد أنجزت الأجهزة المصرية ما هو أخطر بكثير.. ولكنها الإرادة السياسية التي لم تأخذ الملف النووي على محمل الجد.

إن ما توفّر لبعض الفنانين والمشاهير من أشكال الحماية كان أعلى كثيرًا مما توفر لجموع العلماء النوويين في مصر، بل إن السينما والدراما تنافستا في إظهار العلماء النوويين مثل الكهنة في مصر القديمة.. ممن يتَّسمون بالغموض والخلل والأهمية الساذجة.

لقد صوّرت الصحافة العلوم النووية، وكأنها علوم الآخرين، وأن الوصول إليها أمر مستحيل، بل تم الترويج لأفكار أسطورية من نحو قلّة عدد الذين يفهمون نظرية النسبية في العالم، ومحدوديّة عدد الذين يعرفون أسرار الذرة.. وعدد الذين يعرفون عنصر اليورانيوم.

يتأكد لنا الآن أننا أخطأنا.. وأن الهند وباكستان وبعدها كوريا الشمالية وإيران.. فعلت وتفعل.

***

إن العلم النووي المصري.. هو حلم النصف الأول من القرن العشرين قبل أن يكون رؤية القرن الحادي والعشرين.. هو حلم أجيال من العلماء والساسة والمفكرين.. ولا يزال.

***

كان عالم الفيزياء النووية المصري الأشهر الدكتور مصطفى مشرفة أوّل من طالبَ في فترة ما بين الحربيْن العالميتين من القرن الماضي.. أن تدخل

www.ibtesamah.com/vb

مصر إلى العصر الذري.. وقال وقتها: إن الذرة هي عنوان الزمن القادم، وهي سِمة النصف الثاني من القرن العشرين وما بعده.

وقد مضتْ عقود على رؤية الدكتور مشرفة.. إلى أن تبنّى الرئيس جمال عبد الناصر تأسيس البرنامج النووي المصري.. وافتتاح المفاعل الذري في أنشاص.

لكن طموحات الوطن لم تتحقق على النحو المرجوّ.. وبعد قليلٍ كانت نكسة 1967م.. وكان بعدَها انشغال بلادنا بإزالة آثار العدوان.

ثم تجدّدت الطموحات في عهد الرئيس الأسبق حسني مبارك، وجرت محاولات استئناف البرنامج النووي، وبعد أن كان الاختيار قد وقع على منطقة «سيدي كرير» لإنشاء المفاعلات النووية المصرية.. وقع الاختيار الجديد على منطقة «الضبعة».

لكن ضغوط الخارج وبلادة الداخل.. ثم أزمة المفاعل النووي السوفيتي تشيرنوبل.. قد أدت جميعها إلى تجميد الحلم من جديد.

* * *

أعادت مصر الحلم بعد طول انقطاع.. ومضَتْ به إلى أبعد مسافة.. حيث تمّ الاتفاق بين القاهرة وموسكو على إنشاء المفاعلات النووية المصرية في الضبعة.

وبينما كان المصريون يتطلّعون بأملٍ إلى البرنامج النووي المصري.. جاءت هديّة السماء لتُزيد الأمل وترفع الطموحات بشأن غدٍ أفضل.. ففي أثناء الخطوات الأخيرة في الاتفاق النووي المصري الروسي.. كانت شركة «إيني» عملاق الطاقة الإيطالي تعلن عن اكتشاف حقل غاز مصري هو الأكبر في العالم.. وهو ما يعطي الفرصة الكبرى لانطلاق صناعتِنا ونهضتِنا إلى آفاقٍ

www.ibtesamah.com/vb

بعيدة.. ويُلقي بالطمأنينة في قلبِ الدولة التي تواجه تحديّاتٍ غير مسبوقة.. وفي مساحاتٍ غير محدودة.

* * *

عادت الروح إلى علماء الطاقة النووية في مصر.. وإلى الباحثين والدارسين في حقل الطبيعة النووية، الذين طالما انتظروا هذا الحلم.. وطالما تمنّوا العملَ في منشآته.

كان قسم الهندسة النووية المرموق.. في كلية الهندسة جامعة الإسكندرية قد أصابه اليأس.. ذلك أن أول قسمٍ تأسس في الهندسة والفيزياء النووية في كل دول الشرق الأوسط.. كان علىَ وشك الاندثار.

غرفة صغيرة ومكتبة قديمة، وأحلام ضائعة.. وخريجون تتراوح مصائرهم بين اليأس والغرب.. حيث غادر معظمهم دون عودة.. وعانى من بقيَ منهم من ضياع الحلم.

* * *

اليوم.. يعود البرنامج النووي المصري.. وتعود معه الروح إلى خريجي البحوث النووية.. الذين سيمكنهم أن يعملوا في مفاعلات بلادهم.. اليوم يشعر أكثر من مائتي عالم نووي مصري يحتلون مواقع مهمة حول العالم، بالإضافة إلى مئات الخريجين المتميزين.. أن الحلم المستحيل قد صار بالإمكان.

لقد عادت الروح أيضًا إلى الأقسام العلمية في جامعات مصر الحكومية والخاصة.. وأعلنت الجامعة الروسية عن إعداد جيل من المهندسين النوويين.. بالتعاون مع كبريات الجامعات في روسيا.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

إن «تخصيب اليورانيوم في مصر».. يمكن أن يكون الخطوةَ التاليّة.. وعند الضرورة يمكن الحصول على مزايا وامتيازات مقابل تجميد البرنامج النووي المصري عند مستوى مرتفع.. ضِمن ما سيجرى تسميته.. «الاتفاق النووي المصري».

وإذا لم يكن ذلك كله مناسبًا.. فهذا نموذج لكيفية.. صناعة أزمة.. ثم إدارتها.. وتحصيل المكاسب ما بين الصناعة والإدارة.

يمثِّل الطريق إلى «الاتفاق النووي المصري».. خلق أوراق جديدة، وركائز قوة جديدة.. لم تكن موجودة من قبل.. ستكسب مصر تطوُّر البنية النووية.. وتمدّد الطبقة العلميّة.. ووضع ركائز قوة جديدة على الطاولة الدولية.

أمّا إذا أدت تطورات النظام الدولي إلى ما يسمح بالانطلاق.. سيكون ذلك أمرًا عظيمًا. وقتئذٍ يمكن للأجيال المعاصرة أن تجد الفرصة.. الانتقال من الهدف التكتيكي: صناعة أزمة ثم إدارتها.. إلى الهدف الاستراتيجي: صناعة قوة ثم إدارتها.

www.ibtesamah.com/vb

جاليليو وأحمد زويل..

درس من كوكب المشترى

كنتُ مع الدكتور أحمد زويل في مدريد، وكان الدكتور زويل يلقي محاضرة علمية في أكاديمية العلوم.. بحضور نخبة من علماء أوروبا.

في مدخل المبنى التاريخي الذي شهِد المحاضرة.. كان بعض الحضور يلتقطون صورًا تذكارية مع كتاب مفتوح.. تم وضعه باحترامٍ كبير في إطار زجاجي مرتفع يمنحُه مهابةً ومكانة.

كان ذلك الكتاب نسخةً أصلية من عملٍ علمي مهم للعالم الإيطالي الشهير «جاليليو».

أخذتُ صورةً تذكارية مع الكتاب بعد أن فشلتُ في فهم الصفحتيْن الظاهرتيْن من الكتاب. لكنني لاحظتُ – فيما بعد – أن بعض العلماء الأوروبيين يقارنون بين الدكتور زويل الذي توصّل إلى الميكروسكوب رباعي الأبعاد.. وعن أبحاثه في «الأشياء متناهية الصِّغر» عبر «الزمان متناهي القِصَر».. وهو الفمتوثانية «واحد على مليون على بليون من الثانية»، وبين «جاليليو» الذي توصل إلى التلسكوب.. وعن اكتشافاته في «الأشياء متناهية الكِبر».

www.ibtesamah.com/vb

يعمل «جاليليو» من التلسكوب الذي توصّل إليه، ويعمل «زويل» من الميكروسكوب الذي توصَّل إليه.. يبحث الأول في الفضاء الفسيح داخل الكون، ويعمل الثاني في الفضاء الفسيح داخل الذرة.. وداخل الخليّة.

* * *

منذُ شاهدتُ كتاب جاليليو «الأصلي» في مدريد، وأنا أتطّلع لقراءة ما يقع تحت يدي عن «أبو العلم الحديث» كما وصفه «ألبرت أينشتاين». ولقد قرأتُ عن صراعه مع الكنيسة بعد أن قام بتأييد نظرية «كوبرنيقوس» من أن «الأرض تدور حول الشمس».

كانت هذه واحدة من أكبر معارك العلم التي ساهمت في انطلاق العصر الحديث.. كان «كوبرنيقوس» ثم «جاليليو» ومعهما عدد قليل يروْن أن الأرض تتحرك، وليست ساكنة، وأنها جُرم يدور حول الشمس.. وليست هي محور الكون.

وكان تقدير رجال الدين وقتها أن هذا «كُفر» وأنه يناقِض ما جاء في «الكتاب المقدس».. وهو ما قادَ إلى التضييق على جاليليو، ثم محاكمته، ثم إدانته.. وحبسه.. ثم تحديد إقامته حتى وفاتِه.

لقد اعتذرتْ الكنيسة فيما بعد.. واليوم يوجد تمثال لجاليليو في الفاتيكان، وقد امتدحه عددٌ من البابوات الكبار.. اعتزازًا وتقديرًا.

* * *

لقد صُدِمت حين قرأت مؤخرًا.. عن اضطرار «جاليليو» لِنفاق السلطة.. وعن تجاوزِه العلمَ من أجل إرضاء الملِك.

www.ibtesamah.com/vb

وتبدأ القصة من اكتشاف «جاليليو» لأقمار كوكب المشترى. يقول مؤرخون: كان «جاليليو» قد باتَ مستاءً للغاية من طريقة حصوله على الهبات والعطايا من النبلاء، كما كان يفعل كل علماء عصر النهضة.

كان علماء عصر النهضة يقومون بإهداء اكتشافاتهم للرعاة من أصحاب السلطة والمال.. وكان ذلك محرجًا للعلماء.. فقرر «جاليليو» أن يلجأ إلى صاحب سلطةٍ واحد ينافِقُه ويؤيده.. من أجل استمرار الدعم المالي لأبحاثه.

كان «الملك كوزمو الثاني» ابن «الملك كوزمو الأول» يحكُم إيطاليا في ذلك الوقت.. وكان «الملك كوزمو الأول» قد أسّس حكم «آل مديتشي» عام 1540 واتّخذ كوكب المشترى رمزًا لسطوته.

حوّل جاليليو اكتشافهُ لأقمار المشترى إلى نفاق الملك.. كان للملك «كوزمو الأول» أربعة أبناء: «الملك كوزمو الثاني» وثلاثة إخوة.. قال جاليليو: «هذه الأقمار الأربعة التي تدور في فلك المشترى كما يدور الإخوة الأربعة حول كوزمو الأول.. إن السماء نفسها تعلن تصاعد مجد كوزمو الأول والأبناء الأربعة.. إنها ليست مصادفة»!

قام الملك كوزمو الثاني بتعيينه فيلسوفًا ورياضيًّا رسميًّا للبلاط الملكي براتبٍ كبيرٍ.. ومن وقتها لم يعد «جاليليو» يحتاج إلى استجداء النبلاء والرعاة.

* * *

قصة «جاليليو» هي قصة العلم والأدب والثقافة في كل عصر.. إذا لم تؤمن الدولة بالقوة الناعمة كالقوة الصلبة.. فإن الرّعاة والمُمولين في الداخل والخارج.. يسيطرون ويتاجرون.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

لقد حلّت «السفارات» و«وكالات الإعلان» ومكاتب «رجال الأعمال» و«أقسام العلاقات العامة في الشركات».. محلّ النبلاء والرعاة.

القوة الناعمة هي مسئولية الدولة.. إذا ما أرادتْ أن تطلق مشروعًا حضاريًّا حقيقيًّا.

الرُّعاة لا يبنون الأوطان!

www.ibtesamah.com/vb

حرب رقائق البطاطس.. تهافت المعرفة

باتتْ إعلانات «شرائح البطاطس» تقودُ القوة الناعمة في مصر، فالثقافة والإعلام والفنون أصبحتْ ترضخُ تحت وطأة شركات البطاطس والاتصالات والمياه الغازية.. وحفنة من مساحيق الغسيل!

* * *

انطلقَ الإعلام المصري في الآونة الأخيرة يهدم كل ما هو جادّ ومحترم ورصين.. وباتَ يركض وراء كل ما هو هزلي ومثير وغريب.

وأصبحت المقولة السائدة، هذا هو ما يحقِّق المشاهدة، هذا هو ما يأتي بالإعلان!

* * *

إن دولًا عديدة في أوروبا تمنع الإعلانات التجارية في التليفزيون الحكومي.. وهي دول يتمتع فيها التليفزيون الحكومي بمكانة كبيرة.. وسواء كانت الحكومة تمتلك بشكل مباشر، أو أنها تمتلك عبر البرلمان أو وزارة الخارجية أو مجلس للإعلام.. الحقيقة في النهاية أن الدولة هي التي تملك وأن الحكومة هي التي توجِّه.

تدرك هذه الدول تمامًا أنه لا يمكن أن تترك أمور التنشئة والتربية والثقافة في أيدي مندوبي مبيعات، ومندوبي إعلانات.. لا يهمهم إلا نصيبهم في كل عقد، وحصتهم من كل اتفاق.

www.ibtesamah.com/vb

ثمَّـة مسـاحات بالضرورة للإعـلام التجاري، والإعـلام الرخيص.. وثمَّة مسـاحات للإعـلام المنفلـت والإعـلام الأصفـر. لكنَّ مـا يحكـم المجتمع الحديث هو العقل الحديث.

* * *

إن القوى الناعمة المصرية قد تراجعتْ.. واحدة تلو الأخرى، من السينما إلى المسـرح.. ومـن الصحف إلـى التليفزيـون. كل ركائز القـوة الناعمة في خطر.

لم يعد نجوم مصر الشباب هم نجوم العالم العربي.. كما كان نجوم مصر القدامى. لم تعد اللهجة المصرية بالسطْوة التي كانت عليها فيما سبق.

وحيـن أجوبُ العواصـم العربية.. ألاحـظ ذلك الفرق الهائـل بين معرفة الشارع العربي بنجوم مصر الكبار، وعدم معرفتهم بنجومها الجُدد.

كمـا أن المثقفيـن والأخلاقييـن العـرب.. باتـوا يرون فـي القـوة الناعمة المصرية مصدر قلق وخطر على مجتمعاتهم.. ذلك أن معظم الناتج الإجمالي للسينما والدراما في مصر أصبح يتشكَّل من الجنس والدماء.. كما أنه لا تكاد تمرّ دقائق من أي عمل فني.. دون مشهد للتدخين أو آخر للمخدرات.

مـا الذي يمكن أن نقدمه للعالـم العربي الذي نتطلّع لقيادته نحو الأفضل، إذا ما كان هذا هو ما نقدمه لأنفسنا ولبلادنا؟!

* * *

إننـا أمام دائرة سـوداء مُفرغة.. تُغذِّي بعضُها بعضًـا.. قوى ناعمة تحولَّت إلى قوى سـفيهة من أجل الإعلان، وإعلانًا سـفيهًا باتَ حليفًا للقوى السفيهة ضد القوى الناعمة!

www.ibtesamah.com/vb

إثارة تجتذب الإعلان، وإعلان يبحث عن الإثارة.. ودولة تائهة بين تحالفاتٍ رخيصةٍ.

* * *

إن إعلانات كل وسائل الإعلام في مصر لا تزيد عن ثمن طائرة واحدة من طراز «35F».. وأقل من رُبع ثمن غواصة واحدة من طراز دولفين!

ويخطئ الذين يتصوَّرون أن حماية الأمن القومي إنما تنصرِف إلى حماية سماء مصر من قصف العدو.. ذلك أن قصف العدو الداخلي أقوى وأشد.

إن القصف الإعلاني والإعلامي للقوى الناعمة.. هو خطر جسيم على الأمن القومي.. وإن خطره ليمتدّ من مصر إلى المحيط العربي.. ومن الذين لم يولدوا بعد إلى الذين سيحلّون مواطنين في شعبنا.. ليجدوا مستقبلًا ركيكًا وثقافة بليدة.

إن سيطرة شرائح البطاطس ومساحيق الغسيل على خريطة القوة الناعمة في مصر.. لهو أمرٌ مروّع.. ومن البؤس الشديد.. أن يتراجع الساسة والمفكرون، وأن يتوارى الأدباء والعلماء، وأن ينتهي الفلاسفة والمبدعون.. أمام «رنّات الهاتف» وفوران المياه الغازية!

تحتاج مصر أن تنقِذَ «الإعلام» من «الإعلان».. وأن تفصِل بين وظائف «المؤسسات التي تهدف إلى الربح».. ووظائف «المؤسسات التي تهدف إلى الفكِر».

تحتاج بلادنا أن تدرك.. أن الثقافة ليستْ ترفًا أو ملأً للفراغ.. وأن المعرفة ليست إهدارًا للموارد والميزانيات.. ذلك أن المستقبل لن يبنيه أولئك الواثقون من أفكارهم وهم غارقون في الخِفَّةِ والبلادة.. ولا أولئك المتسكعون أمام برامج الحمقى وأحاديث السفهاء!

إنَّ حرب البطاطس.. هي الوجه الآخر للحرب على الإرهاب!

www.ibtesamah.com/vb

هندسة الشهرة.. لا تجْعَل من التّافِه شخصًا مشهورًا

تحتاج خريطة الشهرة في مصر إلى مراجعة شاملة.. لم يعد المفكرون والأدباء والفلاسفة أشخاصًا معروفين، ولم يعد كبار الأكاديميين والعلماء الجادّون أشخاصًا مشهورين.

كل الشعراء، وكل الرسامين.. باستثناء نخبةٍ محدودة صاروا خارج دائرة الضوء.

لم يعد الديوان ولا اللوحة ولا الكتاب.. كما لم تعد الأفكار والأطروحات هي ما تحدِّد المكان والمكانة، بل صارت العلاقات العامة، واختراق دوائر الإعلام والإعلان.. هي ما يحدِّد ويقرِّر.

* * *

كان الجمهور والنقّاد هم من يرسمون خريطة الشهرة في الماضي، أما اليوم.. فقد صارَ «لوبي المُعدّين» هو الأقوى والأهم.. حيث أصبح مُعدّو البرامج التليفزيونية هم من يقرّرون بشكل أساسي مَنْ الذي يظهر.. ومَنْ الذي يختفي.

ثم أصبح عددٌ من المعدّين مسئولين إعلاميين لمصادرهم. فأصبح العمل على شهرتهم وانتشارهم هو جزء من نشاطهم العلني أو من وظائفهم السرّية..

www.ibtesamah.com/vb

تمّ إغلاق دائرة الشهرة بإحكام، ولم يعد هناك مشهورون جُدد.. بالعدد الذي يناسب التطور السياسي والاجتماعي في مصر.

****

إن عددًا ممن اشتهر في السنوات الأخيرة، وممّن قدمهم «لوبي الإعداد التليفزيوني» يستحق الشهرة والاحترام. لكن عددًا آخر لا يستحق أن يكون من بين المشاهدين، بمثل ما إنّ عددًا من كُتّاب الصحف لا يستحق أن يكون من بين القُراء.

إن جزءًا كبيرًا من الصَّدمة لا يتعلَّق فقط بضيوف البرامج أو كُتّاب الصحف.. بل يتعلَّق أيضًا بالمستوى الذي وصل إليه عدد من الإعلاميين الذين اشتهروا في غفلةٍ من التاريخ.. ثم إنهم واصلوا في غفلةٍ من الدولة.

من الطبيعي أن يرى هؤلاء البعض الأشياء بمرايا مضطربة.. تارةً بمرايا محدّبة تقوم بتصغير أحجام الكبار.. وتارة بمرايا مقعرة.. تقوم بتكبير أحجام الصغار!

****

لقد جاءت من بعد ذلك «محنة» وسائل التواصل الاجتماعي.. ليصبح عددٌ وفير من ضعاف العقول في مصافّ المشهورين. وأصبح بإمكان أي شخص بهلواني رخيص.. أن يكون لديه من المتابعين ما يفوق متابعي جميع أساتذة الجامعات المصرية مجتمعين.

ثم أصبح هؤلاء ضيوفًا على الشاشات، وأصبحت أخبارهم في الصحف والمجلات.. وانتعشتْ صناعة الجهل.. وإعادة إنتاج السُّخْف على نحوٍ غير مسبوق.

www.ibtesamah.com/vb

هـزَمَ الأغبياءُ الأذكياء.. ولم يعد لمجمع اللغة العربية مكانًا وسط جموع «اللمبي» وحشود «حزلئوم».. وفي قولةٍ واحدة: لقد انهار المجلس الأعلى للثقافة أمام المجلس الأعلى للتفاهة!

***

لقد قرأت مؤخرًا في إحدى الصحف خبرًا مثيرًا.. يتحدث عن لوحاتٍ تحذيرية انتشرت مؤخرًا في الولايات المتحدة وأوروبا.. تحاول مواجهة التفاهة المتصاعدة في العالم.

تحمل اللوحات التحذيرية التي باتت منتشرة هناك هذه العبارة: «Stop making stupid people famous» ومعناها «توقّف عن جعل الناس الأغبياء.. مشهورين».

كمْ تمنّيت أن نعلّق هذه اللوحات في بلادنا.. لتكون أساس السياسة الإعلامية. وكمْ تمنيت أن تقوم الدولة بإعادة توزيع الشهرة، ورسم خريطة طريق لمن يستحقون أن يكونوا في موقع القدوة، ومن يستحقون البقاء في بيوتهم حتى يغادروا إلى مقابرهم!

***

لستُ واحدًا ممن يؤمنون بأن الإعلام والثقافة في بلادنا، أو في أيّ بلد يمكن أن تقوما أو تزدهرا بواسطة السوق الحر، ودون تدبير أو تخطيط. ولستُ واحدًا ممن يؤمنون بأن الذوق هو الذي يصيغ القوة الناعمة.. فإذا ارتفع ارتفعت وإذا تردّى تردّت.

إنني واحدٌ ممن يؤمنون بالعكس تمامًا.. بوضع استراتيجية ثقافية وإعلامية.. تتضمن رؤية للإعلام وتخطيطًا للثقافة.

www.ibtesamah.com/vb

الدولة هي المسئولة عن تردّي الذوق، والدولة هي المسئولة عن رفعته، القوة الناعمة هي التي تصيغ العقل والقلب لأي شعب.. ولا يجب أن تخضع لتحالف الجهلاء والعملاء.

وحتى ذلك الحين.. أرجوك عزيزي القارئ.. ابدأ بنفسك:

لا تبتسم في وجه أي مشهور تافه، لا تذهب إليه وتلتقط معه الصور، لا تُشْعِره أنه ناجح ومحبوب.. قدْر الإمكان شارك في تجاهله وإهماله.. قُم بعقابه بطريقة سهلة وكريمة: أنتَ لا تراه، وهو لا يوجد.. لا تجعل من التّافِه شخصًا مشهورًا.

* * *

إن هيكل الشهرة في مصر يحتاج إلى إعادة ضبط.. ولا يمكن بناء القوة الناعمة من غير «هندسة الشهرة» وإعادة ترتيب جدول «الشخصيات المهمة».. و«الشخصيات المهمة جدًّا».. في بلادنا.

www.ibtesamah.com/vb

الأهرام تايمز

لماذا لا نفكِّر على هذا النحو: «الهيئة العامة للاستعلامات» تصبح «وكالة الإعلام الخارجي».. و«وكالة أنباء الشرق الأوسط» تصبح «وكالة الأنباء المصرية».. و«الأهرام ويكلي» تصبح «الأهرام تايمز».

* * *

إن الاسم يدل على المسمى، والاسم في الإبداع ليس مجرّد تعريف أو وصْف.. بل هو إبداعٌ آخر.. وإنجازٌ موازٍ. وكان الأستاذ إحسان عبد القدوس يستغرق أحيانًا في اختيار عنوان رواياته الوقت الذي يستغرقه في نصّ الرواية ذاتها. وكذلك المبدعون على وجه العموم.. يعطون وزنًا كبيرًا للاسم والعنوان.. ومع الحقبة الرأسمالية ثم حقبة العولمة.. واعتماد الاقتصاد العالمي على مفهوم التسويق والتصدير.. أصبح اختيار الاسم التجاري والعلامة التجارية.. وطريقة تصميمها وكتابتها.. فنًّا بذاته.

والأوْلى بالطبع أن يكون ذلك حاصلًا في أسماء المؤسسات والهيئات الإبداعية.. ذلك أن الاسم جزء من المسمَّى.. والعنوان جزء من المحتوى.

* * *

إن الاسم ليس مجرد إشارة.. ولكنه بذاته يحدِّد هوية المكان ومساحة الدور.. ولا يمكن لأحدٍ أن يتوقَّع أن اسمًا بيروقراطيًّا ركيكًا وخاليًا من أي روح مثل «الهيئة العامة للاستعلامات» يمكنه التعبير عن الغاية أو الرسالة.

www.ibtesamah.com/vb

إن ذلك ليس بالطبع هو مشكلة الهيئة، ذلك أن مشاكلها بلا حصْر.. ولكن «من العنوان» نفسه يمكن أن تعرف ما الذي يوجد ويجري. إن الاسم البيروقراطي الخالي من أي إبداع لا يمكن أن يكون طريقًا لشيء آخر.. فأصبحت الهيئة اسمًا على مسمّى.

وإذ تحتاج الدولة المصرية إلى إعلام خارجي قوي.. فإن إعادة هيكلة الهيئة وإعادة تأسيس كيان جديد على أنقاض الكيان الحالي.. باسم «وكالة الإعلام الخارجي».. هو البداية لوضع الاستراتيجية والخطط التنفيذية.

***

إن اسم «وكالة أنباء الشرق الأوسط» هو الآخر.. لم تعد له دلالة.. فهو لا يدل على أنها وكالة مصرية.. ومفهوم الشرق الأوسط يتطرق في أذهان الغرب إلى الدول المحيطة بالعالم العربي.. وفي أفضل الأحوال فإن المشرق العربي هو جزء من الشرق الأوسط.. الذي يحمل مكونًا أعجميًّا أكثر مما يحمل من معالم العرب.

وإذا كانت الوكالة في الماضي قد شقّت طريقها.. فإن الطريق بات أصعب كثيرًا في زمن الإنترنت ومجتمع الفيس بوك.. وجبال الأخبار التي تتمدَّد على شاشة الهاتف. ولم يكن من السهل معرفة أن «وكالة أنباء الشرق الأوسط» هي الوكالة الرسمية المصرية.. ذلك أن «طيران الشرق الأوسط» هو الطيران اللبناني.. ومعظم مؤسسات الشرق الأوسط ما بين إيرانية وتركية وباكستانية وإسرائيلية. والأنسب على ذلك.. أن يتحوَّل اسم الوكالة إلى «وكالة الأنباء المصرية».

وقد أحسنتْ تركيا حين أسْمت وكالتها للأنباء «وكالة أنباء الأناضول».. وتسمي ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وكالاتها باسم الدولة.. وإذا كانت بعض

www.ibtesamah.com/vb

الوكالات العالمية الكبرى لا تحمل اسم بلادها.. فذلك أنها الأقدم والأشهر في العالم.. ولم تعد تحتاج إلى تعريف أو تقديم.

إن ذلك بالطبع ليس المشكلة الوحيدة في الوكالة.. ذلك أنها تحتاج إلى رفع الكفاءة.. كما أنها تحتاج إلى دعم الدولة بأن تخصَّها بأخبارها الكبرى.. التي تصنع لها مكانتها بين الوكالات وتعزز «النقل عنها» في وسائل الإعلام الدولية.

* * *

إن اسم «الأهرام» هو أكبر «براند» صحفي مصري على مستوى العالم.. ولكن الأهرام باتتْ محلية أكثر مما ينبغي.. وبعد أن كانت تحتل المركز السابع على مستوى العالم طبقًا لتصنيف جامعة ميريلاند.. أصبحت في مركز آخر.. بعد ضغوط المنافسة والاقتصاد.. والتحديات التي باتت تواجه المؤسسة الأولى في العالم العربي.

إن الخدمة الإنجليزية والفرنسية للأهرام.. يجب ألا يتم النظر لها باعتبارها مجرد إصدارات صحفية للمؤسسة.. بل هي سفارات عالمية أو وزارات خارجية ووكالات إعلام خارجي داعمة.

من المناسب أن تتحول صحيفة الأهرام ويكلي إلى صحيفة يومية حتى لو طبعتْ ألف نسخة يوميًا، وأن يتحول اسمها على ذلك إلى «الأهرام تايمز».. وأن يجرى دعم موقع الأهرام تايمز.. ماديًا ورسميًا.. ليكون أداة أساسية في إيصال رسالة مصر إلى العالم.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

إن التوسع الجاري في الإعلام المصري كله.. لا يزال في الإطار المحلّي.. مخاطبة المصريين للمصريين عن المصريين. والأنسب أن يكون هناك جزء أساسي يخاطب العالم عن مصر.

إذا بدأنا بالاسم.. ثم انطلقنا في المسمَّى.. يمكننا فعل شيء.. ولتكن هذه هي البداية: وكالة الإعلام الخارجي.. وكالة الأنباء المصرية.. صحيفة الأهرام تايمز.

هذا رأيٌّ في الشكل.. ذلك أنَّهُ إذا كان الشكلُ مرتبكًا.. فلا جدوى للحديث عن المضمون.

المؤسسات تظهَر من عنوانِها.. وأن تأتي متأخرًا خيرٌ من ألَّا تأتي أبدًا.

www.ibtesamah.com/vb

موليوود.. نحو سينما مصرية عالمية

هوليـوود فـي الولايـات المتحـدة، وبوليـوود فـي الهنـد، ونوليـوود في نيجيريا.. ومو ليوود في مصر.

لا ينبغـي أن نترك أفكارنا وأحلامنا، ولا أن نتـرك أبناءنا وأحفادنا لأولئك الذيـن جـاءوا مـن قبل بقـوة «البارود» أو جـاءوا من بعـد بقـوة «هوليوود».. يجـب أن نطلق القـوة الناعمة لبلادنا.. وأن نكون طرفًا فاعلًا في الصراع على العقول.

* * *

كانـت السـينما المصريـة في السـابق بمثابـة القاطـرة.. التي تجـرّ وراءها قطـار القوة الناعمة المصرية.. لكن القاطرة أصابهـا العطب.. والقطار أصابه التوقف.

كانـت السـينما المصريـة فـي عقـود ازدهارهـا سـينما محليـة فـي معظم أفكارهـا ومضمونهـا.. لكـن هـذه المحلية لـم تمنـع سـيادتها وتفوقها على معظـم دول العالـم. لكن الزمـن الآن قد تغير.. فقد صعـدتْ دول عديدة منذ زمن الاسـتقلال.. وبعد أن كانت بلادنا واحدة من بلدانٍ معدودة تزدهر بتلك الصناعة السـاحرة.. أصبح إلى جوارنا وفي المقدمـة منّا العديد من العواصم والأقطار.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

ثمّة تطور آخر.. ذلك أن السينما المصرية كانت عالمية وهي محليّة شأن العديد من الفنون والآداب المصرية في ذلك الوقت.. كان كل ما هو مصري هو بالضرورة إقليمي.. يمتد صَدَاهُ من المحيط إلى الخليج، من جبال الأورال إلى خط الاستواء.

لقد تغيّر الأشخاص والأحداث.. ولم يعد نفوذ القوة الناعمة المصرية كما كان من قبل.. لم تعد محليّة حياتنا بالتأثير ذاته الذي أَخَذَ الاهتمام وشَغَلَ الناس.

***

لقد توازى تراجع نفوذ «المحلية المصرية» على الصعيد الخارجي مع تراجع المحلية ذاتها على الصعيد الداخلي.. فقد هبطت السينما المصرية حتى بالمعايير المصرية إلى مستوى غير مسبوق عبر مائة عام.

هبط النصّ والحوار.. هبط الفكر والمضمون.. هبطت اللغة والعبارات، فأصبحت الكوميديا حشدًا ركيكًا من الإفيهات المبتذلة.. وأصبح المقابل بكائيات رخيصة.. دموع بلا عاطفة وحزن بلا نُبْل!

إذن.. فلقد تراجعت السينما المصرية قفزتيْن إلى الوراء.. قفزة نتيجة تطور السينما المنافسة، وقفزة نتيجة البلادة السينمائية في الشكل والمضمون!

***

حاولَ العديد من المبدعين المصريين تجاوز القفزتين إلى حيث كُنّا.. وعمل عددٌ من المخرجين الرائعين والكُتّاب الموهوبين.. والممثلين المذهلين على ترميم الفجوة في الزمان والمكان.

www.ibtesamah.com/vb

لكنّ الكمّ الهائل من إنتاج الجهل والقُبح.. كان أكبر من أن تفلت من وسط مستنقعاته أزهار المبدعين، وكانت الأعمال المتميزة أشبه بباقة ورد تنبت فوق الأوحال!

* * *

لقد حان الوقت لانطلاق السينما المصرية إلى العالمية.. وحان الوقت لأن تكون القضايا الإقليمية والدولية موضوعًا لأفلامنا.

يمكن لكُتّاب السيناريو والمخرجين أن يتجهوا إلى إنتاج الفكرة والصورة من روح العصر ومعطيات المشهد. لقد أصبحت منطقتنا عالمية في الأحداث لا الإبداع.. وربما تكون الميزة الوحيدة في الأحداث الدامية التي تمر بها منطقتنا هو.. كونها ملهمة لأعمال فنية ستكون بلا شك موضع اهتمام عالمي.

* * *

لا يهم كثيرًا التذاكر المباعة، الأهم عدد الأفكار المباعة.. الأهم رفع مستوى العرض حتى نرفع مستوى الطلب.. الأهم أن نذهب بما يناسب إلى شاشات العالم.. وأن يأتي العالم إلى شاشاتنا بما يليق.

الحرب على الإرهاب تحتاج إلى القوة الصلبة والقوة الناعمة معًا.. إن مواجهة الإرهابيين لا تتطلب فقط كسر الإرادة.. بل أيضًا كسر العقول.

* * *

في خريف عام 2005م زرتُ نيويورك للقاء الدكتور «أحمد زويل».. حكى لي الصديق وليد الزمر- الذي كان يعمل دبلوماسيًّا في المكتب التجاري المصري بالولايات المتحدة- عن دعوة تلقاها لحضور فيلم سينمائي.. وقال

www.ibtesamah.com/vb

لي: إنها دعوة مدهشة.. ذلك أن صُنّاع الفيلم موجودون في العرض، وسيتم توزيع استمارات على جميع المدعوين لإبداء رأيهم في الفيلم. ولو توقَّف الأمر عند هذا الحد لكان طبيعيًّا، لكن غير الطبيعي هو أنه سيتم تعديل الفيلم بناء على هذه الآراء!

فقد قرَّر منتجو العرض ألا يطرحوه للجمهور قبل استطلاع رأي عدد من المشاهدين المتنوعين في الثقافة والذوق والاهتمام، وسوف يقومون بإضافة بعض المشاهد أو حذفها وكذلك تعديل القصة والسيناريو إذا ما رأى المدعوون ذلك.. وعلى هذا سنذهب ونملأ الاستمارة بعد المشاهدة.. وسيجتمع فريق العمل برئاسة المخرج لتحليل استمارات الرأي.. وتعديل الفيلم!

كان ذلك مدهشًا بالنسبة لي.. أدركتُ إلى أين يمكن أن تقود المنافسة وأن يذهب الصراع على شباك التذاكر. وقد كان إنتاج السينما الأمريكية في ذلك العام أكثر من (700) فيلم وإنتاج السينما الهندية أكثر من (1000) فيلم.

***

أشعر اليوم – مثلما يشعر كثيرون غيري– بالأسف الشديد لما وصلت إليه صناعة السينما في بلادنا.. التي أوشكت أن تخرج من سياق القوة الناعمة في مصر.

لقد شهدتْ بلادنا عروض السينما في القرن التاسع عشر.. فقبل مائة وعشرين عامًا كانت الإسكندرية تشهد أول عرض سينمائي بعد أسبوع من عرضه في باريس، وقبل سنوات من معرفة شعوب العالم بإطلالة الفن السابع.. لكن دور العرض في الإسكندرية والقاهرة وبورسعيد التي امتلأت بالحضور في القرن التاسع عشر تعاني الفراغ والركود في القرن الحادي

www.ibtesamah.com/vb

والعشرين.. يمضي العالم كله إلى الأمام.. فقط وحدنا القادرون على إبهار أنفسنا بالحركة المنتظمة.. إلى الخلف!

لقد جاءت صناعة السينما في الهند بعد صناعة السينما في مصر.. ولكنها أصبحت بالغة التأثير في كل مكان.. وأصبحت الطبيعة الهندية، والموسيقى الهندية، وثقافات بومباي وكلكتا ونيودلهي معروفة في جميع أنحاء العالم. ومؤخرًا دخلت السينما الهندية إلى مجال الخيال العلمي بفيلم كبير تكلّف الكثير.

عانت السينما الهندية مشكلات وتحديات.. ولكنها تغلَّبت وصمَدت.. يقول باحثو السينما: إن طغيان العائلية ونفوذ أقارب المنتجين وفرض أنفسهم كممثلين من بين المشكلات التي واجهتها.. يضاف إلى ذلك امتناع البنوك لفترة طويلة عن تمويل الإنتاج السينمائي، ودخول عصابات الجريمة في إنتاج العديد من الأفلام.. ومعضلة القرصنة التي ساهمت في تراجع الأرباح بشكل حاد.. حيث تزيد الخسائر من القرصنة على المائة مليون دولار سنويًا.

إن ذلك كله لم يدفع السينما الهندية إلى إغلاق أبوابها أو إظلام شاشاتها.

***

ثمّة نموذج آخر مثير للاهتمام والتأمل.. وهو السينما النيجيرية التي أصبحت أكبر صناعة سينما في القارة الإفريقية واحتلت المركز الثالث في العالم من حيث الإيرادات.. والمركز الثاني في العالم من حيث عدد الأفلام متفوقةً على السينما الأمريكية وتاليةً للسينما الهندية.

www.ibtesamah.com/vb

وفي تركيا وبالتوازي مع القوة الهائلة لإنتاج الدراما.. تُوالِي السينما التركية صعودها عبر أكثر من (2000) شاشة عرض وحجم صناعة يصل إلى مليار دولار وإيرادات تقارب ربع المليار دولار سنويًّا.

استفادت السينما التركية من ماضيها القوي.. حين كانت خامس أكبر منتج سينمائي في العالم في أوائل السبعينيات.. ومن حاضِرها القوي المتمثل في ظهور جيل جديد من الدارسين في أقسام السينما.. والذي بات يسيطر على جانب كبير من الصناعة.

***

لقد تزايد عدد مشاهدي الدراما التركية حول العالم.. حتى وصل إلى (400) مليون مشاهد في (140) دولة.. بينما تتنافس الفضائيات المصرية في عروضٍ ركيكة.. تتصارعُ على حفنة إعلاناتٍ لدى جمهورٍ محدودٍ.

***

نشر موقع «بي بي سي» تقريرًا مثيرًا حول «اكتساح الدراما التركية لقارة أمريكا الجنوبية».. وكان من بين ما جاء في التقرير.. أن المسلسلات التركية أصبحت الأكثر مشاهدة لدى شعوب دول أمريكا الجنوبية.. حتى بالمقارنة بالمسلسلات الأمريكية والمسلسلات المكسيكية.

وفي جمهورية تشيلي.. فاز المسلسل التركي «ألف ليلة وليلة» بجائزة أفضل عمل تليفزيوني، وفي الأرجنتين حاز مسلسل «ما ذنب فاطمة جول؟» على نسبة المشاهدة الأعلى.. حيث زاد عدد الذين تابعوا المسلسل عن (12) مليون مشاهد.

***

www.ibtesamah.com/vb

حيـن وصلَ الرئيس أردوغان إلى السـلطة في تركيـا كان يعرف جيّدًا.. أن لديه مشـروعًا إقليميًّا يتوجّب أن يشمل إعادة بناء القوة الناعمة التركية.. ذلك أن الجيش التركي لا يمكنُه الذهاب إلى حيث يريد أردوغان.. ولكن الشاشـة التركية يمكنها أن تتسـع لتشـمل المنطقة المجاورة، ثم تتسِـع لتشـمل العالم بكامله.

نجـح أردوغـان ونجحت تركيا.. وأصبحت إسـطنبول معروفة.. شـوارعَ ومنـازلَ، طعامًـا وحديثًا، تاريخًـا وحاضرًا.. لـدى مئات الملاييـن، وأصبح نجـوم ونجمـات الشاشـة التركية هم نجـوم ونجمات مئات الشاشـات حول العالـم.. ومئاتِ الملايين من المعجبين.

لقـد وصلت مبيعـات الدراما التركية من (عشـرة آلاف دولار)عام 2004م إلى (ربع المليار دولار) في عشـر سنوات.. ويجري التخطيط لتصل إلى أكثر من (مليار دولار) خلال سنوات!

***

لمـاذا إذن نجحـت الدراما التركيـة؟.. يجيب خبراء محطة «بي بي سـي» البريطانية ووسائل إعلام أخرى.. أن الأمر كان مخططًا بعناية.

لقـد تـم تقديم «الرومانسـية» في ظل غياب الرومانسـية، وتقديـم الطبيعة الجميلة الهادئة في ظل سطوة الطبيعة القاسية العنيفة. كما تم تقديم العائلة في ظل سطوة «اللاعائلة».. والموضوعات الجديدة في ظل تكرار الموضوعات القديمـة التي تـدور بين الجنس والجريمـة.. ووراء ذلك كله دولة مسـئولة.. تعرف جيدًا ما الذي يخرج من عندها للعالـم.

لقد نجح الرئيس أردوغان في أن يثير «أزمة مفتعلة» حول مسلسل «القرن العظيم» أو «حريم السـلطان»، ودافع عن السـلطان سليمان القانوني.. وقال:

www.ibtesamah.com/vb

إن حياة السلطان لم تكن محصورة بين الخمر والنساء.. بل إنه كان على جواده محاربًا ثلاثين سنة.

أوصل أردوغان رسالتيْن: تعظيم السلطان، وتأكيد استقلال الدراما التركية.. رغم أن الأمر لا يحتاج عناءً لكي يعرف المتابع أن الرئيس لا يمكنه أن يترك شأنًا كهذا لعددٍ من المخرجين والمنتجين، أو مجموعة من مسئولي القنوات ومندوبي المبيعات.

الدولة التركية هي التي تخطط وترعى القوة الناعمة التركية، وتعمل كافة المؤسسات على تنفيذ هذه الرؤية التي تأتي ضمن رؤية أوسع.. لمشروع إقليمي تريد أن تصل فيه تركيا إلى «مكانةٍ تقع في منتصف الطريق» بين الحاضر كدولة.. والماضي كإمبراطورية.

***

تمضِي القوة الناعمة التركية.. جائزة تلو الأخرى.. في الأدب والعلوم، ودولة تلو الأخرى في مشاهدة المسلسلات والإعجاب بنمط الحياة. وبعد اكتساح العالم العربي.. جرى ترجمة المسلسلات التركية باللغات الإسبانية والبرتغالية فجرى اكتساح أمريكا الجنوبية.. واليوم تجري الترجمة باللغات الآسيوية والإفريقية.. للوصول إلى «المليار مشاهد»!

***

لاتزال السينما الإيرانية – هي الأخرى – تواصل انتصاراتها في مهرجانات العالم.. ففي عام 2006م شاركت إيران بـ(6) أفلام في مهرجان برلين السينمائي. وفيما بعد تم ترشيح فيلميْن إيرانييْن لجائزة الأوسكار.. وفي عام 2012م فاز الفيلم الإيراني «انفصال» بجائزة الأوسكار لأفضل

www.ibtesamah.com/vb

فيلم بلغة أجنبية.. وهو الفيلم الذي قاربت إيراداته في الولايات المتحدة الأمريكية الثلاثة ملايين دولار.. وفي 2017م فاز الفيلم الإيراني «البائع» بجائزة الأوسكار كأفضل فيلم أجنبي.

***

إن السينما الجانب الأكثر سطوعًا من القوة الناعمة للولايات المتحدة الأمريكية وغيرها في عالم اليوم.. وهي تستطيع الهدم والبناء بمثل ما تستطيع الجيوش وأجهزة المخابرات تمامًا.. وبنفس القدر وبذات القدرة.

ومن يطالع تاريخ إسرائيل يجد أن تأسيس السينما الإسرائيلية كان عام 1948م.. وأن قانون تشجيع السينما أقرّه الكنيست الإسرائيلي عام 1954م. ومن المؤكد أن السينما الإسرائيلية مغمورة ولا يسمع بها أحد.. إلا أن سياق التأسيس والتشجيع يؤكد إدراك الدور الخطير الذي يمكن أن تقوم به السينما في أي مشروع استعماري.. فضلًا عن أي مشروع سياسي.

إن مصر قد شهدت صعودًا كبيرًا لقوتها الناعمة في أعقاب ثورة 1919م.. وأصبحت الفنون والآداب المصرية هي المسيطرة على وسط العالم طيلة النصف الأول من القرن العشرين.

لقد شهدت مصر صعودًا آخر في الفنون والآداب.. كما شهدت على نحو خاص صعود السينما المصرية في أعقاب ثورة 23 يوليو 1952م.

واليوم وقد شهدت بلادنا ثورتين مجيدتين: ثورة 25 يناير 2011م وثورة 30 يونيو 2013م.. فإنّها في احتياج حتميّ إلى «الموجة الثالثة» من صعود السينما المصرية.

www.ibtesamah.com/vb

تحتاج هذه «الموجة السينمائية الثورية الثالثة» إلى أن تكون جزءًا من المنافسة الإقليمية والعالمية.. ولم يعد مقبولًا ذلك الوجود الخجول للسينما المصرية في العالم.

يحتاج الأمر إلى أناس ذوي همَّةٍ وإرادة.. وذوي بصرٍ وبصيرة.. ليضعُوا «خريطة طريق» لعودة السينما المصرية.. ثم انطلاقها.

***

لقد عانتْ بلادنا وتألّم شعبنا من «سينما البلطجة» و«سينما البَلَهْ».. من تلك «السينما الزرقاء» التي تدور معظم صورها وتتعاقب مشاهدها.. وسط صعود الأدْخِنة والعقول الضائعة!

***

إن السينما أخطر من أن تُترك للسينمائيين وحدهم.. ويجب أن يكون المفكرون ومخططو السياسات ورجال الدولة حاضرين في رسم الخريطة العامة لصناعة السينما من منظور الاقتصاد، وصناعة العقل من منظور السياسة.

ولقد سبَق أن دعوتُ في أواخر التسعينيات عبر دوريّة «النداء الجديد» إلى تغيير اسم «مدينة الإنتاج الإعلامي» - وهو اسم بيروقراطي ركيك خالٍ من الروح - إلى اسم «موليوود».. وكان تقديري أن الشكل طريق إلى الجوهر.. وأن العنوان يضع مسار المضمون.. وأن اختيار اسم «موليوود» يضع الهدف بوضوح.. «هوليوود» في الولايات المتحدة، و«بوليوود» في الهند، و«نوليوود» في نيجيريا، و«موليوود» في مصر. ولقد عدتُ في مقال لي في أبريل 2010م وكتبت غير متفائل مقالًا بعنوان: «خريف موليوود».

www.ibtesamah.com/vb

أعـودُ إلى التفاؤل من جديد.. داعيًا أن تشـهَد بلادنا.. عودة السـينما.. أوْ «ربيـع موليـوود». إن مصر تواجـه تحدياتٍ إقليميـةٍ ودوليةٍ خطيـرةٍ.. والقوة الصَّلبة وحدها لا تكفي.

FARES_MASRY
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر ديسمبر ٢٠١٨

www.ibtesamah.com/vb

السياسة الخارجية للأزهر الشريف

السياسة الخارجية لا تكون إلّا للدول ذات السيادة.. ولكنّي هنا أستخدم التعبير - مجازًا - لإظهار أهمية أن يمتلك الأزهر رؤية كاملة للعلاقات الدولية.

***

لقد تشرفتُ بصحبة فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر إلى إندونيسيا.. وحضرتُ - ضمن ما حضرت - لقاء فضيلته مع السادة سفراء الدول الإسلامية في جاكارتا.

وحين جاء دوري في الحديث.. قلتُ للإمام الأكبر: إن العلاقات الدولية معقدة.. ثم إنها تزداد تعقيدًا بمرور الوقت.. وإن أمهر السياسيين وأقوى مراكز البحث يجدون صعوبات جَمّة في فهم وإدراك حقائق السياسة في العالم.. مع تلك التحولات التي لا تنتهي إلا لتبدأ.. ولا تبدأ إلا لتتغيّر.. من جديد.

ولقد شرّفني فضيلة الإمام الأكبر بأن طلب منّي.. إعداد ورقة بشأن ما أسميتُه «السياسة الخارجية للأزهر الشريف».

***

www.ibtesamah.com/vb

إن الجغرافيا السياسية للعالم الإسلامي تواجهُ تأزيمًا وتقسيمًا.. كما أن الشعوب الإسلامية تواجه محاولات هزيمتها أمام أنفسها.. وهزيمتها أمام العالم.

ولقد طرحتُ في كتابي «الجهاد ضد الجهاد» تلك المعادلة المأساوية التي يُراد لنا المضي بها ومعها إلى النهاية.. معادلة: الإسلام ضد الإسلام، والإسلام ضد العالم.. حتى يقضي المسلمون على المسلمين.. ثم إذا بالعالم الإسلامي بعد أن تنهكه الحروب الأهلية والمذهبية.. يواجه من تلقاء نفسه.. هزيمةً بلا حرب.. بينما يشهدُ العالم الذي لا عليه سوى أن ينتظر عند شاطئ النهر حتى يُلقي إليه الماء بجثة عدوِّه.. نصرًا بلا حرب!

لقد سمعتُ من فضيلة الإمام الأكبر – في إندونيسيا – معادلةً مضادة.. هي معادلةٌ رائعةٌ.. وحتميّة: السلام داخل الإسلام، والسلام مع العالم.

قال الإمام الأكبر: إن العالم لا ينقسم إلى المسلمين والكفار.. وإن هناك ديانات سماوية أخرى غير الإسلام.. وإن الإسلام يحرِّم دماء المسلمين.. كما يحرِّم دماء غير المسلمين.. ويضع ضوابط محكمة للقتال.

وقال الإمام للسفراء الحضور: احفظوا هاتيْن الآيتين جيدًا.. فهي تُمثِّل أساس رؤية الإسلام للعالم: قوله تعالى: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ [الممتحنة: 8].. وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: 13].

***

www.ibtesamah.com/vb

إن رسالة الإسلام التي يحملها الأزهر الشريف في وجه الأعداء من المسلمين ومن غير المسلمين.. هي الرسالة الضرورة.. وهي تتأتى في وقتٍ تبدو فيه وكأنها «النداء الأخير».

* * *

إن تعقيدات العالم الإسلامي ضمن تعقيدات العالم.. تفرض على الأزهر الشريف.. نهج سياسة خارجية تُعنى بالتفاصيل الدقيقة.. والمتغيرات المتلاحقة.

فيما قبل.. وقفت إندونيسيا المسلمة ضد إعلان دولة ماليزيا المسلمة، وباكستان المسلمة حاربت استقلال بنجلاديش المسلمة.. وإيران المسلمة وقفت مع أرمينيا المسيحية ضد أذربيجان المسلمة.. وعدد المسلمين في الهند الهندوسية أكبر من عدد المسلمين في باكستان المسلمة.. ثم إن المسلمين يتواجدون في كل دول العالم تقريبًا.. وهم موزعون على مذاهب وتيارات.. سواء كانوا أغلبية أم أقليات.

إن فهم ذلك كله.. ثم السير الآمن بين طرقاته ودهاليزه الوعرة.. والحفاظ على المصالح العليا للإسلام دون الإضرار بالمصالح الدنيا لبعض المسلمين.. هو عملٌ علميٌّ شاق.. وهو عملٌ سياسي أكثر مشقّة.

وإذا كانت الدولة الواحدة تجدُ صعوبات لا نهاية لها في وضع سياسةٍ خارجيةٍ لها.. فإنَّ الأزهر الشريف والتي تمتدُّ رسالته إلى عشرات الدول يواجه وضعًا أكثر صعوبة.. وملفات أكثر تعقيدًا.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

سوف يجِد الأزهر وهو يضَع وينفِّذ سياسته الخارجية.. حلفاءَ بلا عدد، وسوف يجِد من «اللوبي العالمي للأزهر» والذي تمثلُه الرابطة العالمية لخريجي الأزهر.. والتي ضمّت رؤساء ووزراء وسفراء وكبار مسئولين.. سندًا لن يتأتّى لغيره.

* * *

لقد حانَ الوقت لاستعادة القوة الناعمة للإسلام.. عبْر إعادة بناء القوة الناعمة للأزهر.. ويحتاج الأزهر الشريف إلى المضي في طريق التحديث والإصلاح.. فالقوة الداخلية تسبق - بالضرورة - أيّة سياسة خارجية.

www.ibtesamah.com/vb

الكتاب الأبيض للأزهر الشريف

علـى رأس الأزهـر عالمٌ عظيـم وإمامٌ جليـل.. وفي أروِقـة الأزهر علماءٌ ودُعاة يمتلئون بقوة المعرفة وسمّو الخُلُق.

لكـنّ الأزهر العظيم الذي يضمّ إمامًا وأئمة ومأمومين أجلّاء.. باتَ يواجه تحدياتٍ تحاول تهديد موقعِه التاريخي.. باعتباره المؤسسة الإسلامية الأولى في العالم.

***

يجـب الاعتـراف ابتـداءً أن عـددًا ممن دخل المؤسسـة الرفيعـة لا يملك مـا يكفي مـن المعارف والقيـم.. وأن أعـدادًا كبيرة ممـن يلتحقـون بالتعليم الأزهـري، أو يواصلون في دائرة الأزهر.. هم مجرد أعداد تبحث عن شـهادة ووظيفة.. دون تقدير لأيّة مكانة أو رسالة.

تمثِّل هذه الأعداد حشـودًا عاديّة دخلت بضغوط العائلة، لأسـباب تتعلق بقُرب المعهد الديني، أو توافر المواصلات، أو بسبب الاعتقاد السائد ببساطة التعليم وسهولة الامتحانات وضمان التخرج.

ومـن غير المتصور أن ينتظـر أحدٌ من هذه الأعداد أن تؤدي دورًا مهمًّا في شـئون الدين أو الدنيا.. ذلك أن ضحالة المسـتوى، وضعـف اللغة، وكراهية القراءة، واحتقار البحث.. هي سمات غالبة.

***

www.ibtesamah.com/vb

يجب الاعتراف - ثانيًا - أن الصورة الذهنية الشائعة للتعليم الأزهري هو أنه «التعليم الثالث».. ذلك أن التعليم العام الأجنبي هو «التعليم الأول» والتعليم العام الحكومي هو «التعليم الثاني».

ويتعامل المجتمع باستمرار باعتبار أن كفاءة وجودة التعليم الأزهري يأتي تاليًا للتعليم العام الحكومي.. وأن العائلات الأكثر جديّة والتلاميذ الأكثر طموحًا يتجهون إلى التعليم العام.. لا التعليم الأزهري.

يجب الاعتراف - ثالثًا - أن ضعف التعليم العام قد ساعد في ضعف المنافسة.. وهبوط الطرفيْن.. حيث أصبحت الضحالة والركاكة سمة عامة للتعليم والمتعلمين في مصر.

وبدلًا من أن تصعد جودة التعليم الأزهري إلى التعليم العام.. هبط التعليم العام إلى التعليم الأزهري.. ليلتقي الاثنان عند المنخفض.. وليهبطَ المستقبل من أعلى الجبل!

يجب الاعتراف - رابعًا - أن الدولة لم تكن جادة في أية لحظة في دعم الأزهر أو تقوية مكانتِه. كانت المؤسسات السياسية تنظر إليه بعين الريبة والشك.. وترى فيه «الخطر المحتمل» و«العدو الذي يجب أن يبقى نائمًا».

ولقد أعطتْ نظرة الدولة هذه فرصةً ذهبية لجماعات الإسلام السياسي.. للعملِ على ملء الفراغِ وقيادة الخطر!

***

وعلى الرغم من ذلك.. لم تتمكَّن جماعات الإسلام السياسي من الأزهر، وظلت محدودة في المكان والمكانة.. ولكن سطْوة هذه الأقلية في الحياة العامة قد توازت مع سطوتها على الخطاب الديني.. من أجل أن تعلو «ثقافة

www.ibtesamah.com/vb

الزعيق» على «ثقافة المعرفة»، وأن يغلب «الهتاف» على «الحوار».. وأن يسطو «صوت الجهل» على «صوت الأزهر»!

نجحَ الأشقياء لبعضِ الوقت.. غطّت «المظاهرات» على «المحاضرات».. وانتصر «التصفيق» على «الإدراك».. وأصيب ملايين المسلمين حول العالم بالصدمة وهم يشاهدون أحداثًا متفرقة في جامعة الأزهر.. طلابًا وطالبات.. يقتحمون ويشتبكون، يحرقون ويكذبون، يشعلون النار في المبنى والمعنى، ويشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا.

وباتَ المسلمون في مصر وخارجها يتساءلون في قلق: الأزهر.. أين؟ وإلى أين؟.. ومن الذي يتحدَّث باسم المليار مسلم؟

***

يبلغ عدد المسلمين في العالم (1,8) مليار نسمة، وقد جاءت موجات الإسلام السياسي، ثم موجات الإرهاب الأسود.. لتضرِب المسلمين بالمسلمين.. وتُخرِج القوى العظمى من بينهم سالمين.

هنا التحديات التي يواجهها الإسلامَ دينًا ودنيا.. وهنا المحنة التي تواجهها المؤسسة الإسلامية الأولى في العالم.

يمكن للأزهر.. أن يعيد الهيكلة الوظيفيّة والفكرية.. ويمكنه أن يعيد ترميم الداخل قبل الانطلاق إلى الخارج.. ويمكنه كذلك أن يقدم أجيالًا جديدة من الدعاة.. وعلماء جُددًا في الفقه والتفسير والحضارة.

***

يحتاج الأزهر الشريف إلى إصدار «الكتاب الأبيض» الذي يشرح استراتيجية الأزهر ورؤيته العالمية للإسلام والمسلمين.. على غرار «الكتاب الأبيض» الذي تصدره وزارة الخارجية في الصين واليابان.

***

www.ibtesamah.com/vb

يشارك في تحرير الكتاب الأبيض نخبةٌ من «الأزهريين» و«غير الأزهريين».. من ذوي الباع في العلوم الشرعية والسياسية وعلوم الاقتصاد والاجتماع والعلوم الأخرى.. وهو بمثابة خريطة طريق للدين في خضمّ الدنيا.. وعرض لاستراتيجية الدفاع والهجوم.. في معركة «الإسلام الحضاري» مع المخاطر الكبرى:

1- التطرف السني. 2- التطرف الشيعي.

3- المذاهب الهدّامة. 4- الإلحاد.

الهدف ألَّا يصبح الأزهر عنوانًا على مشروع «الإسلام الوسطي» فحسْب.. بل يصبح الأزهر بمنهجه الوسطي عنوانًا على الإسلام.. بحيث يدرك أكثر من مليار مسلم حول العالم أنَّ الإسلام.. هو ما يقدمه الأزهر.. وأن ما تقدمه القوى الأربع المذكورة يحمل الغرض والهوى والسياسة.

* * *

يجب الاعتراف بأن الأزهر ليس بالقوة الكافية لخوض المعركة مع القوى الأربع التي تهدِّد مستقبل الإسلام والمسلمين.

ويمثِّل الاعتقاد بأن الوضع في الأزهر في أفضل أحوالِه.. وأنَّه ليس في الإمكان أبدَع مما كان.. نموذجًا للتفكير الذي يفتقد المعرفة والإخلاص.. أو هُما معًا.

* * *

إن «إصلاح الأزهر» أو «تحديث الأزهر» من أجل «عولمة الأزهر» هو أمرٌ أساسي قبل الخوض في الحديث عن صورة الأزهر في الخارج.. ذلك أن

www.ibtesamah.com/vb

المشكلة لا تكمن في «صورة الأزهر».. بل تكمن في «قوة الأزهر».. ويجب أن تسبق «القوة» «الصورة».. وليس العكس.

وما لم يحدث ذلك الترتيب.. ستصبح محاولات تحسين صورة الأزهر نوعًا من الترويج المؤقت، والدعاية المحدودة.. التي تنتهي بنهاية تمويل حملة العلاقات العامة المخطط لها.

* * *

يحظَى الأزهر الشريف باستقلالية كبرى، واهتمام واحترام كبيرين.. وهو ما يجعل مهمة «تحديث الأزهر.. بالأزهر، ومن الأزهر، وللأزهر» مهمةً يسيرة.

* * *

يحتاج الأزهر إلى هيكلة كاملة للجهاز الإعلامي، وإلى تأسيس مؤسسات عالمية كبرى تكون قواعد عولمته وسيادته.

من دار نشر عالمية إلى مركز دراسات عالمي، ومن بوابة إلكترونية كبرى إلى خوض معركة «الإسلام الرقمي» بأقصى قوة وسرعة.. ومن تأسيس «منظومة فكرية».. ثم تأسيس «منظومة بشرية» تحمل رسالة «المنظومة الفكرية».. إلى تأسيس «منظومة إعلامية» تتولى تقديم «المنظومة الفكرية» عبْر «المنظومة البشرية».. فالترتيب المنطقي الذي لا بديل عنه: «الفكر».. «الدعاة».. «الإعلام».. ولابد أن يسبق «القائم بالاتصال» عملية «الاتصال».. ولابد أن تسبق «المعرفة والفكر» والمضمون الذي يتوجّب نقله.. دور «القائم بالاتصال».. أو «الداعية».

* * *

www.ibtesamah.com/vb

لقد تشرّفتُ بالعمل مع فريقٍ من المثقفين والأكاديميين والإعلاميين.. من أجل وضْع المسودة الأولى لهذا «العمل الضرورة». وقد انتهيْنا من الأوراقِ التي تصل إلى (129) ورقة.. على نحوٍ يساعد كثيرًا في فتح الطريق لأعمالٍ قادمةٍ.. تصوغ خريطةَ طريقٍ كاملة للأزهر الشريف.

تمثّل الأوراق التي قدّمتُها إلى فضيلة الإمام الأكبر بعنوان: «الكتاب الأبيض للأزهر الشريف».. أفكارًا واضحةً ومحددةً.. لهيكلة الإعلام بالأزهر، وكذلك «مأسسة الأزهر».. وإعادة عولمته بما يناسب تاريخه ويوازي مكانته. وهي كلها أوراقٌ.. تحتاج إلى «ورش عمل».. لإعادة تحريرها.. لكنها تمثل نقلةً مؤكدةً.. عمّا هو قائمٌ وسائدٌ.

* * *

إن المكانةَ الكبرى التي يحظَى بها منصب الإمام الأكبر شيخ الأزهر.. إنَّما تسهل كثيرًا عملية «تحديث الأزهر».. ودفعِه من النقطة الحالية.. إلى النقطة المنشودة.

www.ibtesamah.com/vb

الاتحاد الدولي لعلماء المسلمين

ضمَّ الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين الذي أسَّسهُ الدكتور يوسف القرضاوي.. نخبةً من أفاضل العلماء والدُّعاة.. ولا يجادل أحد في مكانة الكثيرين ممن أسَّسوا وانضمُّوا لهذا الاتحاد.. الذي قدَّم الكثير للإسلام والمسلمين.

كان الاتحاد يضم بين صفوفِه قاماتٍ رفيعةٍ من وزن العلامة الشيخ عبد الله بن بيّه والمفكر الكبير الدكتور محمد سليم العوَّا.. وقدم الاتحاد فتاوى وآراء كانت أساسًا لعمل ملايين المسلمين حول العالم.

* * *

لم يعُد «الاتحاد العالمي» كما كان.. كما أن الدكتور العوَّا والشيخ ابن بيّه قد غادرا الاتحاد، وغادر آخرون كان لهم فضلٌ كبير.

والأهم أن «الاتحاد العالمي» قد انخرط في السياسات المرتبكة في العالم العربي والشرق الأوسط.. واندمج – إلى حدٍ كبير – في المؤسسات والأجهزة التركية والقطرية.. وأصبح في أحيانٍ كثيرة.. وكأنه «الجناح الديني» للدولتين.. وليس «الاتحاد العالمي» لكل المسلمين.

ثم كان شبه الاندماج بين «الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين» و«التنظيم الدولي للإخوان المسلمين».. مَا جعلَ «الاتحاد العالمي» يبدو وكأنّه إحدى

www.ibtesamah.com/vb

شُعَب جماعة الإخوان.. أو أن «الاتحاد» هو أحد مؤسسات التنظيم الدولي.

لا يعني ذلك أن كلَّ أصحاب الفضيلة من أعضاء الاتحاد ينحُون هذا المنحى أو يذهبون هذا المذهب.. ولكن القيادة والأمانة العامة وما يمكن تسميته بالسياسة الخارجية والسياسة الإعلامية للاتحاد.. أصبحت كلها في إطار «الجماعة».

***

وهكذا فإن الغرض الذي تأسَّس لأجله الاتحاد وهو «توحيد الأمة» على المستوى العقلي والفكري.. وترميم النسيج الإسلامي من العِلَل والفتن.. ومن الانقسام والصّدام.. لم يعد موجودًا. حيث لم يعد «الاتحاد العالمي» رايةً للجميع.. بل صار رايةً للبعض دون الآخر.. وسلاحًا لبعض المسلمين في وجه بقية المسلمين.

فشلتْ رسالة التسامح والإصلاح.. وبات المشهد يحمِل الكثير من الشك والكراهية.. ومن سوء الظن وتنابز الألقاب.. وبدلًا من تجميع الأمّة بالموعظة الحسنة تفرَّقتْ الأمة بالسياسة والسُّلطة.

***

يحتاج «الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين» إلى حركة إصلاحية تصحِّح المسار وتضبط الطريق.. ويحتاج المسلمون إلى اتحادٍ آخر يكون طريقًا أكبر وأوسع.. للسلام الإسلامي.. إنَّهُ «الاتحاد الدولي لعلماء المسلمين».

إن مقر «الاتحاد الدولي لعلماء المسلمين» هو القاهرة.. والمدرسة الفكريّة التي ينتمي إليها.. هي مدرسة الأزهر الشريف.. والإطار الذي يعمل فيه هو العالم بكامله.. من مشرق الشمس إلى مغربها.

www.ibtesamah.com/vb

يضمُّ الاتحاد.. نخبةَ علماء المسلمين الوسطيين حيث يوجد المسلمون.. من جاكارتا إلى الدار البيضاء.. وما وراءهما.. كما يضم الاتحاد أصحاب الفضيلة من العلماء والفقهاء.. ومن المُفتين ووزراء الأوقاف.. ومن كبار الخطباء والدعاة.. ومن المفكرين وأصحاب الرأي.

يعمل «الاتحاد الدولي لعلماء المسلمين» كمؤسسة دولية مستقلة تعمل في مصر والعالم.. ويتشكَّل الهيكل العام من الرئيس والأمين العام والهيئة العليا للاتحاد.. واللجان الجغرافية والعلمية.

تختار الهيئة العليا رئيس الاتحاد والأمين العام لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد.. وتعمل الأمانة العامة على إدارة شئون الاتحاد في الداخل والخارج.. على المستوى اليومي وعلى الصعيد الاستراتيجي.

يعقد «الاتحاد الدولي لعلماء المسلمين» مؤتمرًا سنويًّا عامًّا في القاهرة يحضره جميع أعضاء الاتحاد.. ويُصدِر الاتحاد دورية شهرية تضم الرؤى الشرعية والفكرية لعلماء الاتحاد.. ويقدِّم موقع الاتحاد باللغتين الإنجليزية والفرنسية رؤية الاتحاد بشأن ما يطرحه المسلمون حول العالم في شئون الدين والدنيا.

لا يقدِّم «الاتحاد الدولي لعلماء المسلمين» نفسه بديلًا للاتحاد العالمي أو غيره من المؤسسات الإسلامية الدولية.. بل يعمل بالتعاون مع المؤسسات الوسطية ويعمل بالنصح والإرشاد تجاه المؤسسات المتطرفة.. حيث يمثل الاتحاد منظمة دولية غير تنافسية.. يحكمها الإخلاص للإسلام والسلام للمسلمين.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

يشيِّد المتطرفون في كل مكانٍ قلاعًا وراء الأخرى.. إعلامًا وتنظيمًا وفتوى.. في العالم الحقيقي والعالم الافتراضي.. وما لم يقم الوسطيون المخلصون بالبناء المضادّ.. من أجل تقويض التشدُّد وحماية الأمة.. فإن فرصة التطرُّف في استكمال حرب الاستنزاف الإسلامية.. ستمضي بلا توقُّف.

يشاهد الكثيرون ما يجري في العالم الإسلامي وهم في غاية الحزن والأسى.. لكن الأقوياء هم من يبنُون حوائط الصواريخ تحت القصف.. ويصنعون الأمل من قلب اليأس!

www.ibtesamah.com/vb

المسجد والحداثة

في مصر أكثر من مائة ألف مسجد.. تشهد سنويًّا أكثر من (25) مليون خطبة ودرس ديني.

يتفاوت الخطباء علمًا وإخلاصًا.. كما يتفاوتون هدفًا وغايةً.. ومن المؤكد أن هناك حاجة حتميّة لضبط الخطاب الديني لصالح الدين والدنيا.. ولصالح الأمة والدولة.

لقد سيطرت حركات الإسلام السياسي على الكثير من المساجد.. فتراجعَ العلم والدعوة.. لصالح التنظيم والحركة. ولقد كان من نتائج ذلك في بلادنا وخارجها.. أنْ انكسرَ المشروع الحضاري الإسلامي.. أمام جنوح السلطَة والسطْوة.

* * *

لقد أدّت الخريطة المخيفة لحركات الإسلام السياسي.. والتي تتقاتل مع الجميع تقريبًا.. إلى عودة التفكير في أطروحات «الإسلام الحضاري» بديلًا لحركات «الإسلام السياسي».

* * *

فشلتْ حركات الإسلام السياسي في أن تعيد الروح أو أن تبني المادة.. فلا نهضة أمام العالم، ولا صفاء أمام النفس. بل حديث متواصل عن «الكم»

www.ibtesamah.com/vb

لا «الكيف».. عن «الصناديق» و«المقاعد» و«السلطة».. وحديث لا ينقطع عن القتال والدماء.. وعن الإجبار والمغالبة!

وإذا كانت موجة الربيع العربي.. قد طرحت أخطاءَ وأخطارَ حركات «الإسلام السياسي» التي تنظر إلى عموم المسلمين وما يملكون بمنطق «الغنائم»، فإنها تطرح أيضًا.. ضرورات البحث الحقيقي في إحياء علوم الدين وإحياء علوم الدنيا، وفي عودة الروح إلى المسلمين، حتى يمكنهم منحها للآخرين.

فإذا كانت «حضارة الحداثة» خالية من الإيمان.. فإن العالم الإسلامي قد فَقَدَ كل شيء.. من ضعف الجسد إلى انكسار الروح.

* * *

كتبَ رئيس وزراء فرنسا الأسبق «ميشيل روكار» مقالًا بعنوان: «المسجد أم الحداثة؟».

ولقد طرحتُ الإجابة في كتابي « الحداثة والسياسة».. إنها ببساطة: الأمريْن معًا.. الإيمان والصناعة.. المسجد والحداثة.

* * *

تُمثّل الحضارة الإسلامية محورًا أساسيًّا في تاريخ الحضارة الإنسانية.. ومساحةً كبرى في جغرافيا الحضارات.. وبينما تنتسب (57) دولة إلى منظمة التعاون الإسلامي.. فإن أكثر من مليار ونصف مليار نسمة من المسلمين حول العالم.. يتطلَّعون إلى استعادة مجد الحضارة الإسلامية في الفنون والآداب، وفي العمارة والصناعة، وفي العلوم والاقتصاد.. والتي استندت إلى ثورة فكرية عالمية صاغها المسلمون الحضاريون.

www.ibtesamah.com/vb

يرى عالم السياسة الدكتور «حامد ربيع» أن الإنسانية قد عرفت ثوراتٍ فكرية ثلاث: الثورة الفكرية الأولى.. وقد نبعت من التصور الروماني للسياسة وصاغها الفيلسوف «شيشرون» في كتابه الشهير «القوانين».

والثورة الفكرية الثانية هي الدعوة الإسلامية بمبادئها وإنجازاتها.. وأما الثورة الفكرية الثالثة فهي الثورة الفرنسية والتي مازلنا نعيش في نتائجها.

وهكذا فقد فصَلَت ستةُ قرون بين الثورة الفكرية الرومانية بعد مقتل «شيشرون»، وبين الإسلام.. الثورة الفكرية العالمية الثانية.

***

يقول مؤرخو الحضارات: إن الحضارة الكلاسيكية هي الجذر التاريخي للحضارة المعاصرة، وتشمل «الحضارة الكلاسيكية» الحضارتين «اليونانية» و«الرومانية».

وقد ساهمت اليونان بفكرة «الجمهورية»، وساهمت روما بفكرة «الإمبراطورية».. كما ساهمت اليونان بفكرة «الحرية»، وساهمت روما بفكرة «القانون».

ويقول المؤرخون: إن اليونانية والرومانية واليهودية قد شكلّت معًا ما يُسمى «العالم المسيحي». وقد ظل استخدام مصطلح «العالم المسيحي» قائمًا حتى القرن التاسع عشر.

أدى انشطار «العالم المسيحي»، أثناء الإصلاح الديني، إلى «الكاثوليكية» و«البروتستانتية»، إلى تحوّل مصطلح «العالم المسيحي» إلى مصطلح «الحضارة المسيحية».. ثم كان التحول من «الحضارة المسيحية» إلى «الحضارة الغربية».

www.ibtesamah.com/vb

ولأن «الحضارة الغربية» لم تعد – الآن – تخصّ الغرب وحده.. بل أضحت بعد «العولمة» تشمل مناطق عديدة حول العالم.. فقد تحوّل الاسم من «الحضارة الغربية» إلى «حضارة الحداثة».. أو «الحضارة العالمية».

وفي «حضارة الحداثة» لم يعد الدين المسيحي هو عَصَب الحضارة، بل أصبح مفهوم «التنوير» بالمعنى الغربي هو عماد «حضارة الحداثة»، وهو مفهوم بعيد عن الدين المسيحي.

* * *

أصبحت معظم «الحضارة العالمية المعاصرة».. «حداثة بلا دين».. وفَقَدَ الإنسانُ المعاصر مقوّمات الروح.. وبات العديد من المفكرين يعيدون النظر في مجمل المعادلة.. وكان الفيلسوف الوجودي «هايدجر» يقول: إن الحضارة الغربية تمرّ بمأزق حقيقي.. إن عصر هذه الحضارة «يبدو مثل قصر شامخ، في منظر كئيب، يعاني سادتهُ من الأرق والقلق، ويقاسي خُدّامه من الجوع والجهل والمرض».

يفسِّر الفيلسوف الإسلامي «رشدي فكار»: المشكلة الأساسية بقوله: إنها ليست مادية أو اقتصادية.. بل هي ماثلة في غياب الإنسان في عملية البناء الحضاري.. فالحضارة الغربية بلا قلب ولا وجدان ولا مشاعر.. هي حضارة تتحرك على حساب الآخرين.. أو هي حضارة في غيْبة الإنسان».

ويكمل «رشدي فكار»: «إن الحضارة الحديثة قدمت نفسًا جفّت في أعماقها.. انتهت إلى مصادرة النفس البشرية في مشاعرها وعواطفها وقناعاتها الإيمانية.. لتتحول إلى جهاز يعطي حيثيات تبريرية للنقيض كالزيّف والغشّ والمضاربة».. «إن الحضارة الغربية تعيش تناقضية صارخة غير مسبوقة في جوهر منظومتها».

www.ibtesamah.com/vb

ثم ينطلق «رشدي فكار» إلى ما يمكن وصفه بالطريق إلى «الإسلام الحضاري».. يقول «فكار»: «ينقسم المسلمون في تعاملهم إلى مجموعات ثلاث: مجموعة تعكس مشكلاتها النفسية على الإسلام، ومجموعة ثانية تتعامل مع الإسلام بشكل (موسمي) لحاجة في نفس يعقوب، ومجموعة ثالثة تتجمَّد على قشور النصوص ولا تسبُر أغوار الجوهر المضيء».. «هذه المجموعات الثلاث لا فائدة ترجى منها.. ولابد من قيام مجموعات مستنيرة تقود مسيرة الإسلام الخالدة القادرة».

* * *

لقد أدرك رجالٌ مثل «مهاتير محمد» و«عبدالله بدوي» في ماليزيا.. هذا المأزق وهذا الاحتياج.. وقد طرح الدكتور «عبدالله بدوي» رئيس وزراء ماليزيا السابق مشروع «الإسلام الحضاري» خلال رئاسته للحكومة.. وقال إنه يعني: «تحريك الأمة نحو التقدم والتطور والريادة الإنسانية.. وكذلك مكافحة التطرف، ودمج المسلمين في الاقتصاد الحديث» ومشروع «الإسلام الحضاري» هو طبقًا لواضعيه «مشروع لإحياء الأمة.. ويهدف إلى الاستقرار السياسي، والسلام الاجتماعي، واستدامة النمو في ماليزيا».

* * *

تحتاج مصر ومن ورائها العالم الإسلامي أن يكون مشروع «الإسلام الحضاري» عالميًا.. لا ماليزيًا فحسب.. وتحتاج القاهرة إلى أن تستلهِم روح «الثورة الفكرية العالمية الثانية» بحسب تعبير «حامد ربيع».. لأجل عودة الحضارة.. مادة وروحًا.. بعد المِحْنَة الجامعة.. التي شملت الأخلاق والاقتصاد معًا.

www.ibtesamah.com/vb

بُوكُو حَلَالْ

قالت سيدة إفريقية لوسـائل الإعلام: حين يأتي إلينا مُلثّمون يُطلقون النار علـى الناس، ويحرقـون المنازل ويخطفون الفتيات.. نعـرِف على الفور أنهم مسلمون!

هكذا نجحت جماعة «بوكو حرام» في أن تُحوِّل صورة الإسلام في إفريقيا من الدين الأكثر جاذبية.. إلى الدين الأكثر فزعًا!

دخلتْ إفريقيا الإسلام بأعداد هائلة عَبْرَ التُّجار المسلمين والدُّعاة البُسطاء والأئمة الوسطيين.. واليوم تبني «جماعة أهل السنة والجهاد» الشهيرة بجماعة «بوكو حرام» حائطًا حديديًّا بيْن إفريقيا والإسلام.

***

تأسَّسـت جماعـة «بوكو حرام» من عـدد من الطلبة الفاشـلين، ولذا يُطلق عليها البعض مسمًّى «طالبان نيجيريا».. حيث تألَّفت الجماعة من طلبة تركوا الدراسة.. وأقاموا في قرية شمال شرق نيجيريا، وأعلنوا أن التعليم حرام!

وعلـى الرغم مـن أن كلمة «بوكو حرام» فـي لغة الهوسَـا النيجيرية تعني: «التعليـم الغربي حـرام» إلّا أنّ جماعة «بوكو حـرام» تؤمن بالجهل على وجه العموم، وترى أنَّ كلَّ التعليم حرام!

***

www.ibtesamah.com/vb

يعـود الباحثون بجـذور جماعة «بوكو حـرام» إلى منتصف السـبعينيات، حيث تأسَّسـت جماعـة «إزالة البدعة وإقامة السُّـنة» على يد الداعية السـلفي «إسـماعيل إدريس» واشـتهرت في وسـائل الإعلام باسـم «جماعـة إزَالة».. أسَّسـت «إزَالـة» ميليشـيا قتاليّـة، وكان هدفهـا إزالـة الجماعـات الصوفيـة والقضاء عليها.

وفـي منتصـف الثمانينيـات ظهـر تنظيـم يحمِـل اسـم «جماعـة الإخوان المسـلمين» بقيادة الشـيخ «إبراهيم يعقوب الزكزكـي».. وانضم لها عدد كبير من الشباب، كان من بينهم شاب بارز يُدعى «محمد يوسف».

كانت الصدمة في تَرْك الشيخ «الزكزكي» للمذهب السُّني واعتناقه المذهب الشـيعي.. ليصبح المرجع الشـيعي في نيجيريا.. وكانت الصدمة التالية.. في اعتناق عدد من «الإخوان» المذهب الشيعي مع شيخهم «الزكزكي» وأصبحوا رجال إيران في نيجيريا!

انشـقَّ «محمد يوسف» وهاجم «الزكزكي» ومن معه، وانضم إلى «جماعة إزالة».

في عام 2001م كانت أحداث 11 سـبتمبر الشـهيرة فـي الولايات المتحدة الأمريكيـة، وفـي عـام 2002م انشـق «محمد يوسـف» عـن «جماعـة إزالة»، وحسـب تقرير «الجهاد في 2012م» الذي أصدره مركز سـتراتفور للدراسات الاستراتيجية فإن «محمد يوسف» قد انشق عن «إزالة» وأسَّس - متأثرًا بتنظيم القاعـدة - جماعة «أهل السـنة للدعـوة والجهاد» - «بوكو حـرام».. واختار «أبوبكر شيكاو» نائبًا له.

أصبـح «محمد يوسـف» واحدًا مـن رموز التطـرف الديني.. واشـتبكت جماعتـه مع الأمن والأهالي مرات عديدة.. إلى أن كانت أحداث عام 2009م

www.ibtesamah.com/vb

حيث دارت معارك عنيفة بين الجماعة والشرطة قُتِل فيها أكثر من ألف شخص أكثرهم من الجماعة. وكان من بين القتلى «محمد يوسف» نفسُه الذي قالتْ الشرطة إنّهُ قُتِل وهو يحاول الفرار.

***

أصبح «أبو بكر شيكاو» نائب «محمد يوسف» رئيسًا لجماعة «بوكو حرام».

تقول وزارة العدل الأمريكية: إن «أبو بكر شيكاو» ولد في قرية من المزارعين ومُربِّي المواشي شمال شرق نيجيريا.. وأنه دَرسَ الدين في ولاية بورنو.. وقد اشتهر بأنه أقل خَطَابةً من «محمد يوسف» الذي كان يلقي الخُطب باستمرار ضد النظام.. أما «شيكاو»، فمعظم ما يصدر منه أفعال مباشرة وصادمة.

في أغسطس 2011م حقَّق «شيكاو» شهرة واسعة بعد نجاح هجومه على مقر الأمم المتحدة حيث قُتِل (23) شخصًا!

ثم اتخذ وضعًا أسطوريًّا بعد عمليات الخطف المستمرة، وإعلان السلطات النيجيرية أكثر من مرة أنه قُتِل.. ثم يُفاجئ الرأي العام بظهوره من جديد!

***

«أبو بكر شيكاو».. رجل غريب الأطوار، وقد أثار سخرية العالم حين هدَّد بقتل مارجريت تاتشر والبابا يوحنا بعد موتهما بسنوات!

وقد اختار «شيكاو» القيام بأقوى عملياته واختطاف (276) فتاة من مدرسة ثانوية في ولاية بورنو في عام 2014م!

www.ibtesamah.com/vb

وقال «شيكاو»: سأقوم ببيعهِنَّ في السوق وفقًا لشرع الله.. وقالت قيادات في الحركة: لقد تم نقلهُنَّ إلى تشاد وبَيْع الواحدة منهنَّ بـ(12) دولارًا!

* * *

تتشكل رؤية «بوكو حرام» الشرعية.. كما يتشكَّل فكرُها السياسي من عددٍ من المحرّمات:

التعليم حرام لأن الاستعمار المسيحي هو الذي جاء به، ويجب العودة إلى ما قبل الاستعمار.. أي ما قبل التعليم!

كل من ليسوا في الجماعة من المسلمين والمسيحيين هم أعداء الله، يجب قتالهم. ويستخدمون مصطلحات «الغنائم» و«الفيء» و«السَّبْي» في وصف ما يقعُ في أيديهم من ممتلكات ونساء!

كل ما هو غربي حرام.. البنوك والمؤسسات والشركات والقوانين والبرلمان والدستور، كلها أمور كافرة.. وكذلك فإن الجيش والشرطة هي مؤسسات كافرة، والعملُ بأيٍّ منها هو حرام شرعًا ولا يجوز نهائيًّا.

المدارس والمساجد كلها حرام، ولا تجوز الصلاة في أي مسجد، بل فقط في مساجد منفصلة ومخصصة لأعضاء الجماعة، وعلى ذلك يجوز إحراق المساجد لأنها ليست مكانًا للمؤمنين!

المجتمع كله كافر.. وليس أمام المسلم الحقّ إلّا أن يذهب إلى مكانٍ منعزِل عن العالم، ويُقيمُ مجتمعًا مثاليًّا.. ومن لم ينضَم لهذا المجتمع الجديد فهو كافر!

* * *

www.ibtesamah.com/vb

لقد اعتزلَ بعضُ أعضاء «بوكو حرام» بالفعل، وذهبوا إلى قرى نائية.. عاشوا فيها وسُمُّوا بـ«المهاجرين».

لكن أغلب الجماعة راحتْ تقتُل وتخطَف كلّ يوم.. وكان أخطر ما اختطفت «بوكو حرام» هو «الإسلام» نفسه، الذي أصبحت صورته في غرب إفريقيا أسيرة أعمال الجماعة.. التي باتتْ خارجَ الدين وخارجَ العقل.

* * *

خلقتْ جماعة «بوكو حرام» حالة من الغَيْظ الشديد في المجتمع النيجيري.. وقالت زوجة الرئيس حين اختطفتْ الجماعة الفتيات: «إنني قد أدخل الغابة اللعينة بنفسي للبحث عنهن»!

وحين أشار الرئيس «جوناثان جودلاك» إلى احتمال التفاوض مع «بوكو حرام» بعد أن قتلت أكثر من (12,000) شخص، قال أديب نيجيريا الأشهر «ويلي سوينكا» الحاصل على جائزة نوبل في الآداب: «إن نيجيريا في حالة حرب مع جماعة «بوكو حرام»، ويجب عدم التفاوض مع هؤلاء المجرمين». «إن السؤال الآن: من الذي سَيَسْقُطْ؟ هل هو المجتمع؟ هل هي الأمّة؟ أم مجموعة من السفّاحين؟!».

* * *

خَلَقَتْ «بوكو حرام» حالة من الغَيْظ الأَشَدّ لدى المجتمع الإسلامي.. هاجم الأزهر الشريف جماعة «بوكو حرام»، وأعلن مفتي السعودية أن «بوكو حرام» جماعة ضالّة من «الخوارج»، واعتبرتها منظمة التعاون الإسلامي «جماعة إرهابيّة».

www.ibtesamah.com/vb

انتقد الشيخ «إبراهيم الحسيني» مفتي نيجيريا الجماعة، وقال الشيخ «محمد سعد أبوبكر» سلطان سوكوتو ورئيس المجلس الأعلى للمسلمين في نيجيريا في خطبة له في المسجد الوطني في أبوجا: «لا مكان للإرهاب في الإسلام.. وإن المسلمين يدعمون الحرب على الإرهاب.. وملتزمون بدعم جهود إحلال الأمن في البلاد».

* * *

لكن المفاجأة الفكريّة جاءت من الكاميرون التي يقطُنها (21) مليون نسمة رُبُعُهم من المسلمين. رأى الدعاة في الكاميرون أن نشاط «بوكو حرام» قد استبدَّ ببلادهم هي الأخرى، حيث جَرَى قتل الأبرياء وخطف النساء، وكان من بين المختطَفَات زوجة نائب رئيس الوزراء «أحمدو علي»!

وقد حَدَثَ في عددٍ كبيرٍ من المدارس أن هَتَفَ التلاميذ كلمّا رأَوْا تلميذة محجَّبة: بوكو حرام.. بوكو حرام!

قرَّر «مجلس أئمة الكاميرون» إطلاق حملة لإظهار الوجه الحضاري للإسلام.. والتأكيد على أنه دين التسامح الذي لا يقبل مجازر بوكو حرام.

بدأ «الأئمة» في توعية الشباب بعدم الانضمام إلى الجماعة، ومعرفة مبادئ الإسلام الصحيح.. وأطلقوا على الحملة ذلكَ الاسمُ السَّاحِر: «بوكو حلال».

* * *

يحتاج العالم الإسلامي إلى تأسيس وتمديد هذه «الهجمة المضادة».. وعدم ترك الساحة لهذا الزحام المَقيت من الجماعات والحركات.. دون الردّ والمقارعَة.. الفكرة بالفكرة، والعنوان بالعنوان.. الكتاب بالكتاب والشعار بالشعار.

www.ibtesamah.com/vb

إنها المطاردة الفكريّة، والحِصار المعرفي.. فلا يبقوا وحدهم في الساحة، ولا يحتكروا - بجرأة الجهل - جدول أعمال المسلمين.

التسامح قوة والتطرف ضعف.. إن جانبًا من هندسة الصورة الذهنية للإسلام والمسلمين.. إنّما يتطلّب جسارة الوسطية وجرأة الاعتدال.

www.ibtesamah.com/vb

الثورة ليست مستمرّة

لا أرى الثائر العالمي تشي جيفارا «أسطورة» على النحو الذي يراه آخرون.. بل إنني أرى أنه لم يكن يستحق كل هذه الشهرة، وكل هذا المجد الذي أحاطَ به.

في العالم ثائرون كبار هم أعظم وأقيْم كثيرًا من جيفارا.. وفي العالم العربي وحده.. فإن المستوى النِّضالي والأخلاقي للمجاهد الكبير عمر المختار في ليبيا، والأمير عبد القادر في الجزائر وعبد الكريم الخطابي في المغرب.. هو أعلى وزنًا من تجربة جيفارا. كما أن معارك الحرية التي خاضها الزعيم أحمد عرابي، ومعارك الاستقلال التي خاضها الزعيم سعد زغلول.. كلها تفوقُ روعةً وبسالة تجربة جيفارا.

***

في كتابي «خريف الثورة» تحدّثت عن مناقشاتي المطولّة مع الرئيس الجزائري الأول أحمد بن بلة.. وهي المناقشات التي أكدّت لي أن جيفارا كان فنانًا أكثر منه ثائرًا، وكان أديبًا «ما بعد حداثي» أكثر منه مسئولًا جادًّا عن ثورةٍ أو دولةٍ.

كان جيفارا بلا شك مناضلًا جريئًا وعمِل ضدَّ قوى استعمارٍ واستكبارٍ غاشمةٍ.. وظلّ حتى اللحظة الأخيرة نموذجًا للشخص الذي لا يخاف

www.ibtesamah.com/vb

المواجهة ولا يهاب الموت. ولكن الرؤية التي امتلكها جيفارا في فلسفة الثورة.. كانت رؤية فوضوية.. لا تقودُ إلى شيء.

وقد روى لي الرئيس بن بلة الكثير عن صديقه جيفارا، وعن شهور استضافة بن بلة لجيفارا في الجزائر، وعن خلاف جيفارا وكاسترو.. كما حدثني الرئيس الأسبق مطولًا عن رؤية جيفارا في إشعال ألف ثورة.. وعن استمرار العمل الثوري كغاية دائمة.. وعن ضرورة أن تبقى «الثورة مستمرة».. لا نهاية لها.

***

لقد ألْهمَ جيفارا آلاف الفوضويين حول العالم بتلك الخرافة.. «الثورة مستمرة».. وروّج تابعوه من «اللاعقليين» و«اللاوطنيين».. المقولات الوهميّة حول الثورة العالمية.. والثورة الدائمة.. وحول إسقاط الجيوش.. وإسقاط الدول.

ويعتبر «الجيفاريون» و«الاشتراكيون الفوضويون» مجرد وجود الدولة.. عملًا عدائيًّا للثورة.. وأن المعادلة بينهما هي معادلة صفريّة.. إما دولة بلا ثورة أو ثورة بلا دولة.. والمثاليّة الثورية هي أن تكون لدينا ثورة بلا دولة.

***

لقد وجدت هذه الأفكار البدائية الركيكة صدّى لدى بعض ثوار يناير 2011م في مصر. وعلى الرغم من أن هذه الأفكار الفوضوية هي أفكارٌ بليدة.. لا تحمل أية قيمة علميّة أو فكرية.. ولا يمثل أصحابها أي وزنٍ معرفيٍّ أو ثِقلٍ فلسفي.. إلاّ أن مُحدِثي الثقافة.. وقُراء الفيس بوك.. قد وجدوا فيها

www.ibtesamah.com/vb

إبهارًا شديدًا.. قاموا على إثرها بحملة إبهارٍ لمن هم أكثر جهلًا وأدنى معرفةً.. لنجد في نهاية المطاف.. مجموعات من الحمقى الذين يتحدثون بثقةِ البلهاء عن تفكيك الجيش وإسقاط الدولة.. وإعادة البناء من جديد.. وأنّ الثورة مستمرة حتى يتم الهدم التام.. ثم إعادة البناء!

* * *

لم تعد لإيديولوجيا «الثورة مستمرة» أيّة قيمة لدى المصريين، ولم يعد للفوضويين ذلك الإبهار الذي حازوه في لحظة انهيار فكري وسياسي في بلادنا. وبات الشباب يدرك الآن أن مثل هذه الأفكار المتطرفة أصبحت تُثير السخرية، وتبعث على الضحك.. أكثر مما تثير من جديّة النقاش، أو تبعث على التأمُّل والحوار.

ولقد لفتَ انتباهي مؤخرًا.. ما نشرته الصحف العالمية حول الشاعر والفنان الكوبي «عمر جيفارا» ابن «تشي جيفارا». تحدث «عمر جيفارا» إلى وسائل الإعلام وقال إنّهُ ضد رؤية والده في أن الثورة مستمرة.. وقال جيفارا الابن: «يجب أن تكون الثورة قصيرة جدًّا.. وأن تنتهي بتحقيق هدفها المباشر.. ولا يجب أن تكون هناك ثورة دائمة.. لا توجد ثورة مستمرة».

* * *

أخطأَ جيفارا الأب وأصابَ جيفارا الابن.. ومن حُسْن حظٍّ بلادنا أن الذين أغواهم طريق الفوضى الجيفاري.. يتراجعون وينكسرون، بينما يتقدَّم الذين يروْن أن منهج الحياة.. هو البناءُ لا الهدم.. والتشييد لا التجريف.. والدولة لا الثورة.

يرى المثقّفون والوطنيّون أن فلسفة البقاء والارتقاء.. تكمُن في إلغاء معادلة «الثورة مستمرة».. وتأسيس معادلة «الحضارة مستمرة».

www.ibtesamah.com/vb

أيديولوجيا الغموض.. نقد خرافة

الحكومة السريّة للعالم

كلما التقيتُ طلاب الجامعات وشباب القوى السياسية.. أجدُ عددًا منهم يتحدَّث عن الحكومة السرية التي تحكُم العالم. وبدلًا من أن يكون هذا الحديث طريقًا للمواجهة والتحدّي.. أصبح طريقًا للإحباط والعدميّة.. والاستسلام إلى «راحة اليأس».

لقد اتّسعت مساحة الإيمان بهذه الخرافة.. لتشمل قطاعات متنوعة من المتعلِّمين وأنصاف المثقفين.. وبات البعض يتحدث عن «الدولة العميقة» التي تحكم البشريّة، وعن أولئك الكبار الذين يمتلئون ثراءً وقوةً.. ويديرون «أيديولوجيا الغموض».

إنهمْ – حسب الخرافة السائدة – يديرون العالم عبْر نظاراتهم السوداء، وسياراتهم الفارهة.. ومخابئ اجتماعاتهم التي تحيطها حراساتٌ أسطورية وأسوار إلكترونية.. حيث لا يمكن لأحدٍ أن يعرِفَ أو يقتَرِب.

* * *

ثمَّة كتب ومقالات، وبرامج ومواقع.. كلها تروِّج لهذه الخرافة.. حتى تمدَّدت عقيدة «اللا حيلة» و«اللا إرادة» و«اللا قدرة» في مواجهة أناسٍ لا قِبَل لنا بهم، ولا طاقة لنا عليهم. وعلى الرغم من أن الدين الإسلامي يقومُ على التوحيد، وعلى نزع المشيئة من غير الله، وعلى استحالة أن يملك أحد

www.ibtesamah.com/vb

من البشر أو كل البشر مجتمعين قدرةً واحدةً من قدرات الله.. إلا أن ملايين المسلمين أصبحوا مؤمنين بقدرة هؤلاء الكبار الغامضين.. على تحديد مسار العالم وتقرير مصير البشر.

***

لم يدرك أحدٌ من المؤمنين بخرافة الحكومة الخفيّة للكوكب.. أنّه بذلك قد يدخل في دائرة الشرك بالله.. ذلك أنَّه يُشرِك مع الله في مُلكِه حفنةً من البشر، وأنّه يؤمن بأن بعض مُلكِ الله ليس لله.. وأن مصائر الأرض قد تم اختطافها من خالقها.. لصالح مجموعة من الأثرياء الذين انتزعوا لأنفسهم إدارة الحياة الدنيا!

***

تتحدَّث خرافة الحكومة السرية للعالم.. عن المحفل الماسوني الذي يدير الكون، وعن جماعة الجماجم والعظام، وجمعية الحديقة البوهيمية، ونادي بيلدربيرج.. وعن الـ (13) عائلة التي تحكم القارات الستّ.

إنها خرافة تأسيس عقيدة جديدة: آلهةٌ مع الله!

وحين انعقد اجتماع بيلدربيرج في ألمانيا يونيو 2016م.. كتب كثيرون عن الشبهات وراء الاجتماع الذي يضم الحكومة السرية للعالم: لماذا كان الاجتماع سريًّا؟.. لماذا تمّ إعلان منطقة الاجتماع منطقةً مغلقةً؟.. ولماذا كان هناك (400) رجل شرطة في حماية الاجتماع؟.. ولماذا تمّ منع الإعلام من الدخول أو التغطية؟.. ولماذا حضر كل هؤلاء الكبار اجتماعًا سريًّا: رئيس CIA السابق وهنري كيسنجر وهيلاري كلينتون وجون كيري، ووزير الدفاع الألماني، ونجم المال الأمريكي روكفلر، ورئيس المخابرات البريطانية

www.ibtesamah.com/vb

السابق، ورئيس بورصة فرانكفورت.. ورؤساء شركات سيمنز وإيرباص وأكبر شركة تأمين في العالم؟

ثم توالت التحليلات: إن اجتماع أمثال هؤلاء في أول مرة بنادي بيلدربيرج في عام 1954م.. قد قرَّر تأسيس الاتحاد الأوروبي.. وهو الاجتماع الذي تقرَّر فيه تأسيس «فكرة الغرب».. من أوروبا وأمريكا الشمالية.. وتحدث آخرون عن اجتماع عام 2002م الذي تم فيه اتخاذ قرار غزو العراق.. وعن أن جميع أحداث العالم هي من صنع هؤلاء.

***

لا تخضع التحليلات السابقة لعِلم السياسة، كما أنّها لا تخضع لأيّ منهج علمي في البحث والتحليل، ولا تعدو أن تكون مجرد تعبير عن قلق أو استياء.. ولا تزيد.

الحقيقة ببساطة أن هناك صراعًا دوليًا على الثروة والنفوذ.. وأن هذا الصراع - ببساطة أيضًا - ليس وليد العالم المعاصر.. بل أساس فلسفة التاريخ وحركة العالم.

الحقيقة أيضًا.. أن الدول والأحلاف تعتمد أُطُرًا سريّةً في العمل إلى جوار الأطر العلنية، وأن الأطر السريّة هي أساس عمل أجهزة الاستخبارات.. وليس في هذا أيّة مفاجأة تستدعي الانبهار أو التأويل.

والحقيقة الثالثة.. أن الحكومات والمخابرات لا تعمل وحدها.. وإنما تعمل بمساندة مجتمعية واسعة.. وأولى تلك المساندات وأعظمها وأقواها هي مساندة النخبة. النخبة هي عماد المجتمعات الحديثة.. وإذا ما كانت

www.ibtesamah.com/vb

نخبةً متميزةً ومسئولة.. كان ذلك من حظ الدولة، وإذا ما كانت النخبة فاشلة وحاقدة وجاهلة.. فإنه لا أمل في حكومةٍ أو سلطة.

***

تلجأ الحكومة إلى النخبة.. وتلجأ النخبة إلى العلم.. ويحكُم الدائرة كلها إطارٌ من المنفعة والمصلحة.

معظم معضلات العالم لها مظاهرها العلنيّة.. لها إعلامها ومتحدثوها.. لها صولاتها وجولاتها.. ولها حملاتها الدعائية. مساحة العلن فيها أكبر كثيرًا من مساحة الأسرار.. ومساحة العقل والمنطق فيها.. أعلى من مساحة الخرافة والأسطورة.

تقلِع طائرات إف35 الأمريكية وصواريخ كاليبر الروسية أمام عدسات المصورين.. ويرافِق الصحفيون جيوش الغزو والاحتلال. تعلن مؤسسات الرئاسة ووزارات الخارجية في العالم مواقفها على مدار الساعة، ويشرح المحللون والخبراء خطة كل طرف، وسيناريوهات الحرب والسلام.. على الهواء.

لا توجد حكومة سريّة تحكُم العالم.. توجد صراعات ومنافسات.. توجد شركات ومؤسسات.. توجد ثورات وحروب.. مشكلات وأزمات.. وكلها يمكن أن تخضع للعِلم. كما أنها جميعًا تقع في إطار الممكن وفي دائرة الحلّ.. ولا يقول بـ«حتميّة الفشل» إلا الضعفاء والمهزومون.

السياسة «فن الممكن».. والجهل «فن المستحيل»!

www.ibtesamah.com/vb

نقد العدميّة.. مقدمة في فلسفة الحضارة

هل امتلك المسلمون في الماضي حضارة عظيمة؟ الإجابة: نعم. وهل يريد المسلمون عودة حضارتهم؟ الإجابة: نعم. وهل تتمنّى الشعوب الإسلامية إقامة مجتمعات متحضّرة تنافس حضارات العالم وتتفوّق عليها؟ الإجابة: نعم.

إنّه لشيء بائسٍ أن تكون هناك حاجة لطرح البديهيات، وعرضِ المسلّمات.. وإنه لأكثرُ بؤسًا.. ألاّ يكون الطرحُ والعرضُ لمَا لا يستحق الطرحَ ولا العرضَ.. موضعَ اعتراضٍ وهجومٍ.. لتصبحَ المفاهيمُ الفطريّةُ التي يقول بها الأطفال الرضَّع، وحديثو الولادة.. موضع نقاشٍ وخلافٍ!

***

في كتابه «معالم على الطريق» أعلن سيد قطب عن كتابه القادم تحت الطبع بعنوان: «نحو مجتمع إسلامي متحضّر».. ولكن الكاتب أصدر كتابه الجديد بعد حذف كلمة «متحضّر».. ليصبح العنوان «نحو مجتمع إسلامي» بدون «متحضّر»!

ولقد أَجْهَدَ الفيلسوف الجزائري «مالك بن نبي» نفسه في تفسير ذلك، لكن الأمر ربما لم يكن في احتياج لاجتهاد.. ذلك أن فكر سيد قطب هو مشروع من أجل «القتال» وليس «البناء».. «السلطة» وليست «الحضارة».

***

www.ibtesamah.com/vb

لقد كانت صدمتي بلا حدود وأنا أقرأ جوانب من كتاب الشيخ «ناصر الفهد» عن الإسلام والحضارة.. يحمل الكتاب عنوان: «حقيقة الحضارة الإسلامية»، وقد تصوَّرت أن المؤلف يتيه فخرًا بالحضارة الإسلامية، وأنه يعيد على مسامعنا ما نعرف وندرك عن عظمة الحضارة الإسلامية، وعن تأثيرها الطاغي في الحضارة الإنسانية. وقلت ربما جاء الكاتب بجديدٍ من الإضاءات.. بعد بحث وتنقيب ربما لم يتسنَّ للسابقين إدراكَ جوْهره أو سبْر أغوارِه. كانت الصدمة أكبر من الاحتمال، فالكاتب الذي يصفُ نفسه شيخًا يهيل التراب على الحضارة الإسلامية.. ويرى أنه لا حضارة في الإسلام ولا إسلام في الحضارة.. وأن الإسلام والحضارة لا يجتمعان!

مضى الشيخ يلقي الكُفر والفسوقَ والعصيان في طرقاتِ الحضارة الإسلامية، وأتى على كل علماء المسلمين وكل فلاسفة الإسلام.. وكل ما أبدع المسلمون في أزهى عصورهم.. فجعل منهم زنادقة وملحدين.. وجعل من تاريخهم وإبداعهم ابتداعًا في الإسلام، وحَربًا على الدين! إن المكان الطبيعي والوحيد لمثل هذه الأفكار هو «سلة المهملات»، ولكن صدمتي الأكبر كانت في تلك الحفاوة الكبرى على المواقع المتطرفة بالكتاب والكاتب.. في مؤامرة محكمة ومشروع متكامل للربط بين التخلف والإسلام!

***

يذهب «ألبرت اشفيتسر» في كتابه «فلسفة الحضارة»: «إن مستقبل الحضارة يتوقّف على تغلّبنا على الإحباط وفقدان المعنى».. ويذهب «فلاسفة التطرف» في بلادنا إلى صناعة الإحباط، وتدمير المعنى.

www.ibtesamah.com/vb

إن المشروع الفلسفي للتطرف هو «العدميّة».. هو «اللامعنى».. أو في كلمة شاملة.. «اللاوجود».

وإذا كان المؤرخ البريطاني «أرنولد توينبي» يرى في كتابه الأشهر «دراسة للتاريخ» أن الحضارات تقوم حيث تتحدى البيئة الناس.. فتكون معادلة «التحدي والاستجابة» هي أساس تأسيس الحضارة.. فإن «المشروع اللاحضاري للتطرف» هو إلغاء التحدي والاستجابة معًا.. والدوران في جغرافيا اليأس.. ضدّ الأنا وضدّ الآخر.. ضدّ المبنى وضدّ المعنى!

* * *

في نقد إيديولوجيا التطرف يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه «تراثنا الفكري»: إن التخلّف الحضاري جريمة.. والعلاج ليس فتوى مضحكة بإعلان الجهاد.. وإنما إعادة ترتيب البيت كله.. على مستوى «العقل» وعلى مستوى «الأخلاق».

ويذهب الشيخ الغزالي إلى القول بأن «الغباء معصية».. وأن العقل والعلم هو أساسٌ في الإسلام.. وإذا بقي الفكر العفِن يمثّل حياتنا، فإن مستقبل الإسلام في مهب الريح.. وسيُحكم عليه بالطرد من كل ميدان.. إذا بقي المتطرفون يظهرونه في تلك المعالم القبيحة التي لا يعرفها غير الدهماء المنتسبين للإسلام.. إن الذين كشفوا ثرواتنا وعلى رأسها النفط هم الخواجات.. أمّا نحن فقد كُنّا نتصارع: هل حديث التوسُّل صحيح أم ضعيف؟ هل كرامات الأولياء حق أم وهم؟ هل الحكم لبني هاشم أم لأسرٍ أخرى؟

ويواصل الغزالي: إن الحرية الدينية حق.. ثم يأتي جهول يقول: إن آية ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [البقرة: 256] هي آية منسوخة تم

www.ibtesamah.com/vb

بطلان حكمها!. والسلام في الإسلام حق.. ثم يأتي غلام طائش يقول: إن نبينا قال: «بعثتُ بالسيف بين يدي الساعة، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي».. وهذا كلام لا يعرف القرآن.. ويعرف منطق العصابات. ويقول هؤلاء: إن الرسول (ﷺ) خرج من المدينة مُغيرًا على قافلة قريش.. وكان يقيم بالمدينة آمنًا، ولم يخرجِهُ إلّا التعرّض للعدو.. وهذا باطل أيضًا. ويروجون لأثرٍ منكرٍ.. أن عمر ابن الخطاب كان ينهى عن تعليم النساء الخطّ، مع أن ابنته حفصة كانت كاتبة.. لماذا علّمها إذن؟.. لم يبق إلّا أن يقول أحمق: لقد تعلمت حفصة في الجاهلية، فلما جاء الإسلام نهى عن ذلك.. لأن الأميّة جزء من غاية الإسلام ورسالته!

***

ثمّة طريقان في الفكر الإنساني.. وهما الطريقان ذاتهما في الفكر الإسلامي.. الوجود والعدم.. الحياة والعبث.. البداية والنهاية.

ومن المؤسف.. أن تنشأ الحيرة في الاختيار.. ولا مستقبل لنا إذ لمْ نهزِم الحمقى، ونُسقِط الحائرين. لابد لنا من تنظيف الطريق.. من إزاحة الأذى ودفع القاذورات إلى سلّة المهملات.. حتى تتسنى لأمّتنا الحركة.. ولحضارتنا العودة.

إن هزيمة المهزومين بداية الانتصار.

www.ibtesamah.com/vb

الحداثة والسياسة

أصدرتُ قبل سنوات كتابي «الحداثة والسياسة» في بدايات مشروعي.. ولايزال تقديري أن معضلة الدولة المصرية في المائتي عام الأخيرة.. هي معضلة «الحداثة والسياسة».

* * *

ثمّة كتب ومقالات لا نهاية لها حول مفهوم الحداثة وأطروحاتها. وقد حظيَت نظريات الحداثة في الآداب والفنون باهتمام واسع.. ثم جاءت أطروحات «ما بعد الحداثة» لتضيف إلى أطروحات الحداثة.. أرففًا جديدة في المكتبات.. ورسائل متجدِّدة في الجامعات.

وفي العالم العربي.. كان المشهد موازيًا.. حيث جرى الانشغال بـ«الحداثة»، ثم الانشغال بـ«ما بعد الحداثة».. وبدأ البعض يتحدث عن «ما بعد بعد الحداثة»!

* * *

لقد انشغلَ الفكر الإسلامي بنقد الحداثة، وبينما حاول البعض التوفيق بين الإسلام والحداثة.. قال البعض الآخر بكُفْر الحداثة.. وشيْطنة الحداثيين. وتركّز الصراع حول مقولات الحداثة.. بإلغاء الماضي، ونسْف الموروث، ونقد الدين.. والتحرُّر من كل شيء!

www.ibtesamah.com/vb

لم تكن هذه هي بالضبط أُسُس الحداثة.. ولكنّ المعركة مع مِثل هذه المبادئ.. هي معركةٌ ضروريةٌ وصحيحةٌ.. ذلك أن الدفاع عن الدين وقيم الإيمان.. هو أمرٌ واجبٌ على معسكر المؤمنين جميعًا.

القضية هي أن الإسلاميين المتطرفين اختاروا الحداثيين المتطرفين.. لإطلاق المعركة مع الحداثة.. وكان دور الحداثيين المتطرفين من غلاة العلمانية ومعاداة الدين داعمًا للطرف الآخر، ومعززًا لوجوده، ومؤكدًا لرسالتِه.

* * *

في تقديري.. أن جانبًا كبيرًا من هذه المعركة كان مفتعلًا، وأن تلك المعركة كانت أشبه بقنابل غبار جرى تفجيرها لإضعاف الرؤية.. وإرباك الطريق.

إن الحداثة ليست كلمة «مقدسة» لها نصها وسياقها الثابت.. بل هي كلمة فلسفية فكرية يمكن تعريفها على النحو المناسب.. ولا يوجد تعريف يمكنه أن يعلن امتلاكه وحده الصواب المطلق.. ونفي كافة التعريفات الأخرى.. ومن يبحث جيدًا سيجد أن الكثير من مفاهيم علم الاجتماع لها عشرات وربما مئات التعريفات.

وعلى ذلك يمكن القول إن الحداثة هي سيادة العقل.. وإن عصر الحداثة هو تحكيم المنطق في إدارة شئون الحياة.

وما يخصّ زيادات المتزيّدين عن إلغاء التراث ونقد الدين.. فيمكن إلغاؤه تمامًا.. والاكتفاء في مشروع الحداثة.. بالعلم والبحث والعقل والمنطق.. إلى غير ذلك من أسس الحضارة الحديثة.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

وإذا كان الأمر كذلك.. فإن الحداثة هي سياق إسلامي.. وليست سياقًا معاديًا للإسلام.. ولا معنى لأن يلهث الإنسان وراء تطوير المادة مع إلغاء الروح.. أو تطوير المبنى مع تدمير المعنى.. أو تحديث الاقتصاد وإلغاء الرسالة.

لتكن «الحداثة الإسلامية» أو «الحداثة القيميّة» أو «الحداثة الأخلاقية».. التي تجمع الأصالة والمعاصرة.. الدين والدنيا.

* * *

إن «الحداثة الإسلامية» لم تتمكن.. وعصر العقل لم يسيطر.. ونداء العلم لم يصِل. ولاتزال معظم مجتمعاتنا تعيش في حقبة ما قبل العلم.. أو ما قبل المنطق.. وفي قولةٍ واحدةٍ: ما قبل الحداثة.

ولقد جاءت تنظيمات الإسلام السياسي المتطرفة.. لتدفع العالم الإسلامي أبعد وأبعد نحو الخروج من حقائق العصر.. والانجراف خارج حركة التاريخ.

إن الحداثة.. بمعنى: التحديث أو العلم أو العقل.. يجب أن يسود.. يجب أن تسبِق السياسة، ذلك أن البناء السياسي في مجتمع ما قبل حداثي.. هو بناء في الفراغ.. أو تشييد قلاع من رمال.. هو كتابة موسوعة كبرى على قمم الأمواج!

الحداثة قبل السياسة.

www.ibtesamah.com/vb

الفصل الثالث

قادة الهندسة السياسية

www.ibtesamah.com/vb

FARES_MASRY
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر ديسمبر ٢٠١٨

www.ibtesamah.com/vb

أحمد بن طولون.. الدولة الوطنيّة في الإسلام

في عصر أحمد بن طولون أصبحت مصر.. أوّل دولة إسلامية مستقلة.. لم يكن استقلال مصر خروجًا على الدين أو ابتعادًا عن رسالة الإسلام.. بل كان استقلالًا وطنيًا في ظل الإسلام.. استقلالًا داعمًا للدين والأمّة، وخروجًا من صراعاتٍ سياسيةٍ وركاكةٍ حضاريةٍ.

حمَتْ مصر نفسها من حالة الوهن العباسي.. وأقامت الدولة المصرية مع الدولة العباسية ما يُشبه «الكومنولث الإسلامي».. حيث كانت العلاقة شبه كونفدرالية.

* * *

إنَّ نموذج «الكومنولث الإسلامي» هو الأنسب للأمّة الإسلامية التي تقاربُ المليارَيْ نسمة.. وتمتدُّ في كل قارات العالم. لم يعد ممكنًا في ظلّ خريطة القوى الدولية ومعطيات عصر «الحداثة» و«ما بعد الحداثة» ثم «ما بعد بعد الحداثة».. توحيد الأمة في دولة مركزية واحدة.. بل إن سعي المتشددين وحركات الإسلام السياسي لقرونٍ طويلةٍ من أجل دولة مركزيةٍ إسلاميةٍ واحدةٍ.. قد قاد إلى سيادة الدمّ في التاريخ الإسلامي.. أصبح القتال هو عنوان الأمة.. وأصبحتْ «الحرب الأهلية الإسلامية» هي النتيجة الدائمة لطموحات الأباطرة والملوك باسم الإسلام وباسم المسلمين!

www.ibtesamah.com/vb

إن نموذج «الكومنولث الإسلامي» الذي أسَّسه الزعيم المصري أحمد بن طولون في القرن التاسع الميلادي.. كان محاولةً ناجحةً لتجنيب المسلمين «إيديولوجيا الدم» قبل أكثر من ألف عام. ولقد كان ذلك نموذجًا جديدًا في الهندسة السياسية.. كيف يمكن إقامة دولة وطنية دون أن يكون ذلك خروجًا على الإسلام والمسلمين؟

* * *

لقد سمعتُ وناقشتُ الشيخ عبد الله بن بيّه رئيس منتدى تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة.. بشأن فتواه حول شرعية الدولة الوطنية في الإسلام.. وظنّي أن ابن طولون والذي يصفه «ابن الأثير» في كتابه «الكامل في التاريخ» بأنَّهُ كان «متدينًا، يحب العلماء وأهل الدين، وعمل كثيرًا من أعمال البرّ ومصالح المسلمين».. هو أوّل من طبّق مفهوم الدولة الوطنية في الإسلام.

* * *

كانت الهندسة الداخلية موازيةً للهندسة الخارجية في بناء الدولة المصرية في عهد أحمد بن طولون.. فلقد بنى مدينة القطائع.. عاصمة سياسية لمصر.. كما بنى مسجد ابن طولون أحد أجمل المساجد وأكبرها في التاريخ الإسلامي.. ثم إنَّه بنَى أول مستشفى حديث في العالم.. وكان المرضى يعالجون بالمجان.. كما كانتْ قواعد السلامة الصحية قائمةً على أعلى مستوى.. من خلع ملابس المرضى وارتداء ملابس جديدة من المستشفى، وترك الأموال الخاصة لدى موظف مهمته حمايتها.. إلى تناول الطعام مجانًا.. وكذلك توفير الدواء عبْر الصيدلية التابعة للمستشفى بالمجان.

ولقد توازتْ مع ذلك نهضة زراعية.. تمثّلت في الطرق والترع والقناطر والسدود.. ورفع الضرائب عن كاهل الفلاحين.. ثم نهضة صناعية.. كان

www.ibtesamah.com/vb

أبرزها التطور الكبير في صناعات النسيج.. والمستوى الفنّي غير المسبوق في العالم لصناعات الكتان.

لقد اتّسم الزعيم المصري الذي ترجع أصولُه إلى آسيا الوسطى بأبرز صفات القادة.. العقل والحزم.. كان شديد الذكاء، واسع الاطلاع، شديد الطموح لبلاده.. كما كان شديد الحزم.. إداريًّا وعسكريًّا. ويوجز «ابن الأثير» صفاته في قوله: «كان أحمد بن طولون عاقلًا وحازمًا».

* * *

أسهمَ النظام الطولوني في مصر في الإضافة الحضارية والأخلاقية للعالم الإسلامي.. كان ابن طولون بتأسيسه أول دولة وطنية في الإسلام.. نموذجًا جادًّا في الهندسة السياسية.. هندسة الداخل.. عبْر مشروع نهضة وطني ناجح، وهندسة الخارج عبْر إقامة علاقة كونفدرالية إسلامية مع الدولة العباسية.. في إطار مُحكم لهندسة الروح والوطن.

www.ibtesamah.com/vb

علي بك الكبير.. زعيم الاستقلال
الذي خطَّط لغزو تركيا

الزعيم المصري علي بك الكبير.. هو أحد كبار النجوم في تاريخ السياسة المصرية.. بدأ مملوكًا قادمًا من خارج البلاد.. وانتهى شيخًا للبلد ثم زعيمًا لمصر.. فقام بعملية تحديثٍ واسعةٍ.. وقاد حركة استقلال رائدة.. ثم قام بتمديد نظرية الأمن القومي.. فضمّ الحجاز والشام.. ليصبحَ زعيمًا للمنطقة.. وليبدأَ خطةً جادّةً لغزو تركيا.

* * *

تولّى علي بك الكبير الذي وصلتْ مهاراته العسكرية والسياسية إلى أعلى مستوى.. بعد أن تعلّم على يد أستاذه «إبراهيم كتخدا».. منصبًا رفيعًا هو «شيخ البلد» أيْ «محافظ القاهرة».. وكان ذلك في عام 1763م.

كان الصراع على السلطة حادًّا في ذلك الوقت.. فتمتْ الإطاحة به من منصبه.. لكنه نجح في العودة إليه عام 1767م.. ثم أصبح حاكمًا للبلاد.

لجأَ علي بك الكبير إلى ما لجأ إليه قادة مصر العِظام على مرّ التاريخ.. من تقوية الجيش.. وبناء الجبهة الداخلية.. والتطلع إلى فرض نفوذ الدولة المصرية في محيطها.. الذي يصل إلى جبال طوروس.

كان علي بك الكبير زعيمًا مثقفًا.. قرأ تاريخ الأبطال المصريين مثل بيبرس والمنصور قلاوون.. وغيرهم.. ثم شرع في بناء جيشٍ قوي، واعتمد على

www.ibtesamah.com/vb

عددٍ من نخبة العسكريين وقتها مثل: محمد بك أبو الذهب وأحمد الجزار ومراد بك وإبراهيم بك.

نجح الجيش في فرض الأمن الداخلي الذي كان منهارًا.. وأصبحت مصر من أكثر دول العالم أمنًا.. وأصبح الاستقرار فيها مضرب الأمثال ومصدر الروايات. ويذكر المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي في وصف ذلك: «قضَى علي بك الكبير على انعدام الأمن.. فأمِنَت السُّبل، وانهزم أولاد الحرام.. وكان الشخص يسافر بمفرده ليلًا وراكبًا دابّته، أو ماشيًا.. ومعه الدراهم والدنانير إلى أية جهةٍ.. ويبيتُ في الغيط أو البريّة.. آمنًا مطمئنًا، لا يرى مكروهًا أبدًا».

***

بالتوازي مع بناء جيش قوي.. قام علي بك الكبير بعملية تحديث كبرى.. أصلح قلاع الإسكندرية ودمياط.. وأصلح المساجد وطوّر العمارة المصرية.. وقد تجلّى ذلك في قِباب ومآذن مسجد السيد البدوي في طنطا، وقبّة الإمام الشافعي في القاهرة.. وفي سرايا الأزبكية، ومنشآت كورنيش النيل في بولاق.. وفي العديد من المعالم الرائعة في مصر.

لقد شملتْ عملية التحديث المصرية في عهد الزعيم علي بك الكبير.. تطوير الزراعة وتحسين أحوال الفلاحين.. واستعان في ذلك بخبراء ومتخصصين. ثم إنَّه كافح الفساد والرشاوي.. وحقَّق انضباطًا كبيرًا في العلاقات الاقتصادية والتجارية وفي تطبيق القانون – رغم مصادراته لأموال خصومِه من المماليك المتمردين – ويقول الجبرتي في مديح الأداء الإداري للزعيم علي بك الكبير: «لم يراعِ في ذلك أحدًا، سواء كان متعمّمًا أو فقيهًا.. قاضيًا أو كاتبًا.. أو غير ذلك في كافة البلاد والقرى».

***

www.ibtesamah.com/vb

كان علـي بـك الكبير يمتلـك رؤيـةً حضاريـةً.. وكان يرى الأتـراك طغاةً وظالمين.. كما أنهم لا يحقِّقون مبادئ الإسـلام في الحرية والعدالة وتحقيق مصالـح الناس.. وعلى ذلك فالأتراك «المسـتعمرين» ليسـوا إلا مجرمين في حق الشعوب باسم الخلافة ورفع راية الدين.

كما كان يرى سلاطينَهم الذين قتلوا ونهبوا وعاشوا حياة الملوك المترفين.. لا يسـتحقُّون وصف الخلفاء.. ولا حُماة المسلمين.. ذلك أنهم أدخلوا الأمّة فـي حقبةٍ كارثيـةٍ من الانهيـار الحضاري والفسـاد السياسـي.. ووقف عجلة انطلاق المسلمين نحو حضارة العصر.. وسيادة العقل والعلم.. كما كانوا في عصور ازدهار الإسلام وسطْوة المسلمين.

وعلـى ذلك كانـت اسـتراتيجية علي بك الكبيـر هي اسـتقلال مصر.. ثم التوسـع الإقليمي.. ثم غزو تركيا وإسـقاط المؤسسـة السـلطانيّة الفاسـدة.. وإعادة تحديث الأمّة من جديد.

***

نجـح الجيـش المصري في عهد علي بك الكبير فـي ضمّ الحجاز واليمن والشـام.. وكان يرسل للمدن والبلاد قبل وصول الجيش المصري يؤكد على أن المصريين جاءوا من أجل الحرية والقضاء على الطغيان العثماني.

كانـت الحجاز من أملاك مصر في عهد الدولة المملوكية.. وكان سـلطان «مصـر الكبـرى» يسـمى «خـادم الحرميـن الشـريفين».. إلـى أنْ جـاء الغزو العثماني في عهد السـلطان سـليم الأول عام 1517م.. فاحتلّ مصر والحجاز وأطلق على نفسه لقب «خادم الحرمين الشريفين».

حين وصـل الجيش المصري إلى المدن المقدسـة الثلاث: مكة المكرمة والمدينـة المنـورة والقـدس الشـريف.. خـرج سـادتها ترحابًـا وحبًّـا بقدوم المصريين والتخلص من العثمانيين.

www.ibtesamah.com/vb

كانت هزيمة يونيو التركية معركة أساسية في الحرب المصرية – العثمانية.. حيث هزم الجيش المصري الجيش التركي هزيمة ساحقة في 6 يونيو عام 1771م. ثم كان قرار علي بك الكبير بغزو تركيا.. وإسقاط السلطنة. هنا كانت نهاية هذه الحقبة من التاريخ المجيد.. حيث واجَه الزعيم علي بك الكبير انقلابًا قاده محمد بك أبو الذهب قائد جيشه وأقوى جنرالاته.

لقد مضى التاريخ إلى سياقٍ آخر.. ولولا انقلاب أبو الذهب.. لاحتلت مصر تركيا.. وتمدّدتْ سيادة القاهرة إلى جبال طوروس. لقد نجحتْ تركيا في ترتيب الانقلاب، وعرضتْ روسيا أن تدعم الزعيم الوطني علي بك الكبير.. لكنه رفضَ الاستعانة بجيشٍ أجنبي لمحاربة جيش بلاده.

***

كان الزعيم المصري علي بك الكبير نموذجًا للهندسة السياسية لبلاده.. ولقد خلّد أمير الشعراء أحمد شوقي سيرته المجيدة في مسرحيته الشهيرة «علي بك الكبير أو دولة المماليك».

في 1773م.. انهزم علي بك الكبير أمام محمد بك أبو الذهب.. ثم انهزم تلاميذه إبراهيم بك ومراد بك أمام نابليون بونابرت. وبعد قرابة قرنين ونصف القرن.. لا يزال «سبيل علي بك الكبير» في طنطا شاهدًا على عصر زعيم الاستقلال.

إن «سبيل علي بك الكبير» هو سبيل كل القادة الكبار في تاريخ بلادنا.. من قبل ومن بعد. ولا تزال تجربة هذا الزعيم الوطني الكبير.. موضع اهتمام بالغ من كبار المؤرخين.. وموضع تقديرٍ واحترامٍ من الوطنيين المصريين.

www.ibtesamah.com/vb

رفاعة الطهطاوي.. صناعة الأمل

كان الشيخ رفاعة الطهطاوي هو «المعادِل الفكري» للزعيم الوطني محمد علي باشا.. هو المفكِّر العابِر للقارات.. ورجل الدولة الأقوى من النظريّات.. هو فيلسوف الأصالة والمعاصرة.. الحداثة والإسلام.

* * *

جاء الشيخ رفاعة الطهطاوي في زمنٍ عصيبٍ.. كانت مصر فيه بعيدةً ونائيةً.. وكانت المسافةُ شاسعةً وصادِمةً.. كان ما يجري في بلادنا نقيضَ ما يجري في العالم. ثم جاء رفاعة الطهطاوي.. فأسّس مشروعًا حضاريًّا عظيمًا.. أنقذَ العقلَ والقلب، وأعادَ وضع البلاد في الجانب الصحيح من التاريخ.

* * *

ولد «رفاعة الطهطاوي» في عام 1801م.. قبل وصول «محمد علي» إلى السلطة بأربع سنوات.. وفي عام 1817م التحق بالأزهر.. ثم أصبح مقربًا من الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر.

كان الشيخ حسن العطار من كبار العلماء في الديار المصرية.. وكان مخلصًا لدينه ووطنه بلا حدود.. وقد صُدِم الشيخ حين رأى الفارق الكبير

www.ibtesamah.com/vb

بين «اللاحضارة» التي سادت بلادنا.. و«الحضارة» الغربية التي سادت عند الغرب.. وعند الغزاة الفرنسيين.

كان يمكن لصدمة الشيخ العطّار أن تنتهي إلى تطرف ديني، وانغلاق فكري، ورفض الاعتراف بالتخلّف.. وتغطية الضعف بالخطابة، وإغراق الناس في توافِه الأمور.. لكنَّ إخلاص الشيخ كان عظيمًا، وقرّر - وهو عالم الدين الأكبر - أن يضع «خريطة الطريق» لتحديث المصريين، وتحديث المسلمين.

رأى الشيخ العطار أنّه لابد أن نأخذ من «العدوّ» الفرنسي.. الذي جاء بحملةٍ أذهلتْ بمستواها العلمي والتكنولوجي جموع المصريين، وأنْ يكون هذا الأخْذ في حدود العلم والتنظيم والإدارة.. وألّا يتجاوزه بالأخْذ من نظام القيم والمبادئ والأخلاق حتى يعود المسلمون - كما كانوا - أمّةً مرموقة بين العالمين، وحتى يعود المصريون كما كانوا.. ذوي شأنٍ ومكانةٍ.. وذوي علمٍ وفضلٍ.

ولقد تشرّب الشيخ الطهطاوي «معالم الطريق» من أستاذه الشيخ العطار.. ولمّا رشحه الشيخ العطار لمحمد علي باشا ليكون إمام البعثة المصرية ذات الأربعين دارسًا.. في فرنسا. كان الطهطاوي يعرف جيّدًا.. أن طريق الأستاذ الإمام.. هو طريق التلميذ الصاعد.

* * *

كتبَ الشيخ الطهطاوي كل ما رآه في السنوات الخمس في باريس.. وكانت تحفته الشهيرة «تخليص الإبريز في تلخيص باريز».. وهو بمثابة «وصف فرنسا».. على غرار ما كتبه علماء الحملة الفرنسية «وصف مصر».

www.ibtesamah.com/vb

ولمّا عاد الطهطاوي.. مضَى على «خريطة الطريق». أسَّس الشيخ الجليل.. مدرسة المحاسبة لدراسة الاقتصاد، ومدرسة الإدارة لدراسة العلوم السياسية، ومدرسة الألسن للترجمة.. ونقل معارف الغرب وعلومه.

كما أنّه أسَّس مدارس محو الأمية.. ثم وضَعَ «استراتيجية النشر».. فأطلقَ من مطبعة بولاق نشر أمهات الكتب وروائع الموسوعات.. وبدأ كثير من الناس يقرأون كنوز المؤلفات «المطبوعة»..من كتب التفسير.. إلى مقدمة ابن خلدون.

لقد مضى الشيخ الطهطاوي أيضًا في حماية الماضي المجيد.. ترجم كتاب «تاريخ القدماء المصريين» وأصدره عام 1838م، وأسّس أول متحف في البلاد يجمع الآثار المصرية. ووضع قواعد جمع الآثار وحمايتها.. وهو من وضع الإطار المؤسس للآثار المصرية.

كان الشيخ مؤمنًا بالعِلم.. وضرورة مواكبة التعليم المصري لمستوى المدارس العلمية في الغرب.. وكان هو بنفسه واحدًا ممن أثْروا العِلم العربي بترجماته للعديد من الكتب.. ثم إنّه هو من ترجم كتاب «مبادئ الهندسة» الذي أصدره عام 1854م.. وهو من قام بتطوير المناهج في العلوم الطبيعية.

* * *

كان الشيخ رفاعة الطهطاوي صاحب مشروعٍ فكري رائد.. كان فيلسوفًا ورجل دولة في آن. هو مترجم كتاب «المنطق» وكتاب «قلائد الفلسفة».. وهو صاحب الكتاب الرصين «مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية».

www.ibtesamah.com/vb

والشيخ هو صاحب مصطلح «الأخوة الوطنية» و«الوطن الواحد».. وهو الداعية الأول لوضع وتطبيق القانون العصري الذي ينهض على الحرية والمساواة.. وقام في ذلك بترجمة القانون المدني والقانون التجاري الفرنسي.. للاسترشاد به في وضع القوانين المصرية الحديثة.

وحين قام الدكتور محمد عمارة بتحقيق «الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي» والتي صدرت في القاهرة عام 2010م.. جعل عنوان الجزء الأول: «التمدّن والحضارة والعمران»، وجعل عنوان الجزء الثاني: «السياسة الوطنية والتربية».

ويقول الأديب بهاء طاهر في كتابه «أبناء رفاعة.. الثقافة والحرية»: «إن الطهطاوي أسّس مفهوم الوطن مقابل الدولة العثمانية، وأن البعض أراد بعد ذلك الانتكاس والعودة للعثمانية بعد تبجيلها وتعظيمها، وعدم إدراك استعماريتها وكارثيّتها».

وتقوم رؤية بهاء طاهر وكذلك جمال حمدان.. على أن «الاستعمار العثماني» التركي هو نوع من الاستعمار.. وأن القناع الديني الكاذب.. لا يلغي كونه استعمارًا.

ومن هنا يتأتّى تقدير الطبقات المثقفة والوطنية في المائتي عام الأخيرة.. للدور الكبير الذي قام به رفاعة وتلاميذه من أجل تحديث وتطوير الدولة والمجتمع في مصر.

وحسب «بهاء طاهر» فإن المثقفين من تلاميذ رفاعة هم الذين نقلوا مصر إلى العصر الحديث، وأن المدارس التي أسسها الطهطاوي وعلي مبارك

www.ibtesamah.com/vb

من خلال مشروعهما الحضاري لنشر التعليم.. كانت وراء تأسيس «الذات الوطنية المصرية» المستقلة عن «التعريب» و«التريك».

* * *

لقد أدَّى «المشروع الحضاري المصري» الذي أطلقه «الشيخ المؤسِّس» رفاعة الطهطاوي إلى غضب المتشددين وعداء تنظيمات الإسلام السياسي.. وأصبح الشيخ هدفًا للكتابات الرجعيّة والسطحيّة.. التي لا تدري ما يكفي من أمور دينها ودنياها.

ولقد انضمَّ لتلك الموجة من الكتابات أسماء بارزة في الحركات الإسلامية.. ممّا زادَ من إرباك المشهد وارتباك الرؤية. وكان من بين هؤلاء الدكتور «محمد محمد حسين» الذي انتقد في كتابه «الإسلام والحضارة الغربية» مشروع الشيخ الطهطاوي.. واعتبره نواة العلمانية وأساس الغزو الفكري.. وأنَّهُ كان مبهورًا بالقانون والسلوك.. وبالعِلم في الغرب!

وكان من بينهم أيضًا «محمد قطب» شقيق «سيد قطب» الذي هاجم الشيخ في كتابه «واقعنا المعاصر» واعتبره البذرة الأولى لشجرة التغريب.. وأنه ذهب إلى فرنسا إمامًا ولكنه لم يعد إمامًا.. بل صار واحدًا من أنصار الغرب.

وأما «هاني السباعي» فقد كتب مهاجمًا وحاسمًا من العنوان: «دور رفاعة الطهطاوي في تخريب الهويّة الإسلاميّة».

* * *

لم يكن الشيخ كما قالوا.. بل كان رجلًا مؤمنًا وصالحًا.. وكان حداثيًّا وعالميًّا كذلك. كان يمتلك الغيرة على دينه ووطنه.. بعد صدمتِه من وضع بلاد المسلمين ووضع بلاد الآخرين.

www.ibtesamah.com/vb

لم يكن الشيخ ذلك «الساذج» المبهور بأضواء الغرب.. ولاهو ذلك «المنبطِح» أمام سطْوة الحداثة.. بل كان واعيًا ومدركًا تمامًا.. أنَّه يملك حضارة عظيمة.. لكنها اندثرت حتى الحكم العثماني البدائي.. وأن عودة الحضارة تعني الأخذ بما يناسب من الحضارات العليا في زمانه.

لم يهاجم الطهطاوي الدولة العثمانية على تخلُّفها.. ولم ينقل «شريعة نابليون» لتحلَّ محل «شريعة الإسلام».. ولم يقل بالحرية المطلقة.. بل كان يؤمن بأن وضع القوانين يضبط أداء السلطة والناس.. ويحفظ الحقوق والواجبات، ويضمن العهود والمعاملات.. كما أنه كان يرى «الحرية» مشروطةً بألّا تخالف الدين والقانون.

لم يحمِل الشيخ في مشاهداته انبهارًا جاهلًا بالغرب.. فقد انتقدَ الانحلال الأخلاقي في فرنسا.. وانتقد شيوع الإلحاد والفحش، وكذلك الكذب في السياسة والصحافة. وحذّر من يشرعون في قراءة الغزب من معاداة الدين بحجة الحداثة.. وقال في وضوح: «يجب على من أراد الخوض في لغة الفرنساوية المشتملة على شيء من الفلسفة.. أن يتمكَّن من الكتاب والسنة.. وإلاّ ضاع يقينُه».

* * *

لم يمكثْ الشيخ الطهطاوي في باريس سوى خمس سنوات.. ولقد مكثَ غيره فيما بعد عشرات السنوات. لكن الشيخ كان استثناءً في العِلم والفِكر. عادَ إمامُ البعثة.. مؤسِّسًا لمشروعِ نهضةٍ شاملةٍ.. وقد نشر تلاميذه ألفيْ كتاب في أربعين عامًا.. ما بين تأليف وترجمة.. فيما يعد نقلةً كبرى في النشر.. في تلك الحقبة من القرن التاسع عشر.

www.ibtesamah.com/vb

ولقد أحسنَ الأستاذ محمد حسنين هيكل الوصف.. حين تحدّث عن الشيخ في كتابه «أكتوبر 73 السلاح والسياسة».. يقول «هيكل» عن كتاب «الطهطاوي».. «تخليص الإبريز»: «إنَّه كتابٌ يحكي رؤيةَ أزهري ريفي للحضارة الغربية.. رؤيةَ مصري خام عَبَرَ البحار إلى باريس.. وألقى نظرةً على ما رأى.. ثم شهِق شهقة مدهوشًا منه.. وكانت القيمة الكبرى لهذه الشهقة.. أن صاحبها.. لم يقصِر انبهاره على شكل ما رأى.. وإنّما غاصَ فيه.. محاولًا أن يلمس أعماقه، وأن يتعرَّف إلى جوهره».

***

كانتْ مصر عند «حافة الهاوية».. ثم جاء الطهطاوي ليبدأ.. «صناعة الأمل».. كان الشيخ نموذجًا لـ«الهندسة الحضارية».. وكان نجاحه مذهلًا.. في الفكرة والحركة.. وفي المبنى والمعنى.

www.ibtesamah.com/vb

الإمام محمد عبده.. الطريق الثالث

يذهب الدكتور محمد عمارة في كتابه «الإمام محمد عبده.. مجدِّد الدين بتجديد الدنيا».. إلى أن «الأستاذ الإمام» هو «مجدِّد الإسلام في القرن العشرين».

يروي «محمد رشيد رضا» الكثير عن أستاذِه في كتابه الشهير «تاريخ الأستاذ الإمام».. ويعرض الأستاذ عباس محمود العقاد فضائل جمّة في كتابه ذائع الصيت «عبقري الإصلاح محمد عبده».

ولقد أسهب تلاميذ «الأستاذ الإمام» في شرح مناقِبه، وعرض فقهِه وعلمِه.. وإيضاح مشروعِه ورؤيتِه.. وكان من بين هؤلاء التلاميذ أسماء كبرى وقامات شامخة.. شيْخا الأزهر الشريف الشيخ المراغي والشيخ مصطفى عبد الرازق، وعالم الجزائر الأشهر الشيخ عبد الحميد بن باديس.. وفي فلسطين الشيخ عز الدين القسّام.

كما كان من بين تلاميذه الزعيم الوطني سعد زغلول وعميد الأدب العربي طه حسين والمفكر السوري عبد الرحمن الكواكبي.

* * *

ولِد «الأستاذ الإمام» عام 1849م.. درس في المسجد الأحمدي في طنطا ثم في الجامع الأزهر. ولمّا حصل على شهادة العالميّة قام بالتدريس في

www.ibtesamah.com/vb

مدرسة دار العلوم.. وعمل قاضيًا في محاكم بنها والزقازيق والقاهرة.. إلى أن أصبح أول من يتولّى منصب مفتي الديار المصرية.

خلال مسيرته قضَى الإمام محمد عبده (6) سنوات منفيًّا و(6) سنوات مفتيًا.. لتصبح سنوات المنفى مساوية تمامًا لسنوات الإفتاء!

تعلّم «الأستاذ الإمام» اللغة الفرنسية وكتب بها، وفي منصبه مفتيًا للديار.. أصدر قرابة الألف فتوى.. كانت معظمها في الاقتصاد والمعيشة وحياة الناس.

ولقد توازتْ مع رحلته الفكرية.. رحلةٌ سياسية غنيّة.. حيث انضم للثورة العرابية.. وعلى إثر الاحتلال البريطاني دخل السجن ثم المنفى، وانطلق مع أستاذه جمال الدين الأفغاني في تأسيس جمعية العروة الوثقى.. وصحيفتها التي صدر منها ثمانية عشر عددًا. ولمّا جاء الخديوي عباس حلمي.. فَصَلَ الإفتاء عن الأزهر.. وأصدر قرارًا بتعيين «الأستاذ الإمام» في منصب «مفتي الديار المصرية» عام 1899م.. وقد ظلَّ في منصبه حتى رحيله 1905م.

* * *

امتلك الإمام محمد عبده رؤيةً شاملةً في الإصلاح الديني.. ومضَى في ثلاثيّة المؤسسات الدينية.. الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية.. يسعى إلى تطويرها.. لأجل منظومة إسلامية أفضل للدين والدنيا.

تركّزت فتاوى الإمام.. على تطوير حياة الناس، وضمان حقوقهم.. وتيسير سبل العيش الكريم لهم.. ثم إنّه ذهبَ إلى تأسيس «الجمعية الخيرية الإسلامية».. لإنقاذِ غير القادرين من أبناءِ الفقراء.. حتى لا يسقُطوا من أهداف التربية والبناء الأخلاقي.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

تأثَّر الإمام محمد عبده بشخصيتيْن كبيرتيْن في مسيرته الرائدة.. الزعيم أحمد عرابي والسيد جمال الدين الأفغاني.

انضمّ «الأستاذ الإمام» مع «الحزب الوطني الحر».. إلى العرابيين بعد مظاهرة عابدين في 9 سبتمبر 1881م.. ثم اندمجَ أكثر في الثورة مع التدخل الأجنبي في مصر. يذهب الأستاذ عباس محمود العقاد إلى أن الإمام محمد عبده كانت لديه رؤية مركبّة للثورة العرابية.. حيث إنّه كان يؤيد أهداف الثورة، ولكنه لا يؤيد المسار السياسي لها.

أيّد «الإمام» مبادئ الثورة العرابية في رفع الوعي ومقاومة الظلم وتمصير الوظائف الكبرى، وإعطاء المكانة المناسبة للتعليم، وإعداد البلاد للحكم النيابي.. ولكنّه لم يؤيد خطط العرابيين السياسية والعسكرية.. وكان يعيب عليهم قصر نظرهم وقلة تبصّرهم.

يصِل العقاد إلى أن الإمام محمد عبده كان ثوريًّا ولم يكن عرابيًّا.. وأنّه انضمّ إلى العرابيين وألغى تحفّظاته عندما أصبح الإنجليز على الأبواب.. فتمّ القبض عليه ونفيه إلى خارج البلاد.

إلى جانب الزعيم الوطني أحمد عرابي.. كان «الأستاذ الإمام» قريبًا من السيد جمال الدين الأفغاني.

دعا الاثنان إلى يقظَة العالم الإسلامي.. وتجاوُز التخلف.. ومواجهَة الغرب فكريًّا وحضاريًّا.. لكنَّ الاثنيْن اختلفا في منهج الإصلاح والمواجهة مع الغرب.. حيث ذهب الأفغاني إلى الإصلاح السياسي، وذهب محمد عبده إلى الإصلاح الاجتماعي وإصلاح التعليم.

وقد اختلفَ الاثنان في النهاية بمثل ما اتَّفقا في البداية.. وتباعدتْ المسافة بينهما.. ويذكر الدكتور محمد عمارة أن الأفغاني اعترض على نهج محمد

www.ibtesamah.com/vb

عبده وأرسل له يقول: «كُن فيلسوفًا يرى العالم ألعوبة.. ولا تكن صبيًّا هلوعًا».. وربما يفسِّر ذلك عدم قيام محمد عبده برثاء الأفغاني حين رحل في مارس 1897م.

***

لم يكن الأستاذ الإمام صبيًّا هلوعًا.. كما أنه لم يكن يرى العالم ألعوبة.. ولكنه كان مفكرًا عملاقًا.. وكان ينظر إلى العالم بجدية تامة.. ورؤى واقعية.. وفهمٍ عميقٍ لمَا هو قائم ولمَا يجب أن يكون.

كان الإمام محمد عبده نموذجًا لـ«الهندسة الفكرية».. كان يعرف على المستوى الكُلِّي والاستراتيجي.. معالم الضعف وحقائق القوة.

كان الإمام يدرك أن الخطاب الديني والسياسي.. إنما هو لغةٌ ومضمون.. فقام على اللغة فأعاد بناءها في صورةٍ عصريةٍ.. وقدرةٍ علميةٍ.. فتخلّصت من الصنعة والتقليد.. والزخارف اللغوية، وزحام السجْع والنظْم.. إلى لغة سلسة غنية.. وقادرة.

وقد نجح الإمام في تطوير اللغة من أجل وصولها إلى الجميع.. ومن أجل توسيع مساحة الفهم للدين والدنيا.. ويذكر المؤرخون أنه حين قام بتفسير القرآن الكريم بأسلوب بسيط.. وعصري.. طلب المسيحيون في لبنان حضور دروسه في مساجد بيروت.. وفي ظاهرة فريدة.. حضر المسيحيون والمسلمون دروس تفسير القرآن الكريم للأستاذ الإمام!

لم يكن تفسير الإمام لما تيسَّر من القرآن.. جديدًا في أسلوبه فحسب.. بل كان جديدًا في شرح مضمونه ومقاصده. وكان الإمام محمد عبده يقول: إذا كان الرسول (ﷺ) لم يفسِّر القرآن الكريم.. فلماذا نضفي

www.ibtesamah.com/vb

قدسيةً على تفسيرات العلماء السابقين.. ونضعها حاجزًا على العقل ومقاصد الآيات.

***

تشكّلت «الهندسة الفكرية» عند الإمام محمد عبده ممّا يمكن تسميته الطريق الثالث أو الطريق الجديد. كان أحد معالم ذلك الطريق.. هو الإصلاح السياسي الذي يتأسَّس بالإصلاح الاجتماعي.. والذي لا يمكن له أن يتم بدون الإصلاح التعليمي. وكان من معالم الطريق أيضًا.. تأسيس الحرية لدى المسلمين.. وهي الحرية في مواجهة الاستعمار الأجنبي، والحرية في مواجهة الأفكار غير الصحيحة.. وكان من بين رؤاه.. أن حرية المرأة المسلمة هي أساس في الإسلام.. وأن «الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادةً في بيوتهم.. فإنهم إنمّا يلِدون عبيدًا لغيرهم».

وكان من معالم الطريق كذلك.. الوسطية بين تطرفيّن.. فوقف ضد التقليد والتغريب.. فلم يقبل التطرف السلفي الذي لا يرى حقائق العصر وتحدياته، ولم يقبل التطرف العلماني الذي يذهب إلى سحْق الحضارة العربية الإسلامية.. والاندماج كتابعين في الحضارة الغربية.

كان «الأستاذ الإمام» يرى أن الوسطية هي الطريق المستقيم.. وأن الإصلاح الديني إنمّا يتوجّب عليه الانطلاق من الأزهر الشريف.. وأنّه ليس في الإسلام سلطة دينية.

انتقد «الأستاذ الإمام» الخلافة العثمانية.. وهاجم سلطة الأتراك التي تتستّر بحماية الدين.. وقال الإمام: «الأتراك أصحاب الخلافة قد أهملوا.. بحيث صاروا غير أهلٍ لإمارة المؤمنين، والأسرة العثمانية لم تحفل بالخلافة

www.ibtesamah.com/vb

مثقال ذرّة خلال القرنيْن الماضييْن.. ولم يبق لها حق ولا سلطان.. ولا مناص من البحث عن أميرٍ آخر للمؤمنين».

انتقل الإمام من نقد الدولة العثمانية ومطالبته بإصلاحها لتكون سلطة روحية فقط.. ومن قلقه على أي صراعٍ بين العرب والأتراك.. وهو ما قد يقود إلى مصلحة أوروبا المتربِّصة.. انتقلَ الإمام إلى رؤيةٍ ثوريةٍ في ضرورة إزالة الدولة العثمانية وإسقاط حكم الأتراك.

يقول الإمام «إن كل مصري يكره الأتراك.. ويمقت ذكراهم، ولا يستطيع مصري أن يفكِّر في نزول الأتراك بلادنا.. دون أن يشعر بعاطفةٍ قويةٍ تدفعه إلى امتشاقِ سيفه، والهجوم على هذا المعتدي. إن الأتراك ظالمون.. وقد تركوا في بلادنا من آثار السوء ما لاتزال قلوبنا تضرب منه ضربًا من الجرح.. فلسْنا نريد رجْعهم، ولسنا نريد أن نعود إلى معرفتهم».

كان الأستاذ الإمام ضمن تيار فكري يدعو إلى الدولة الوطنية الحديثة، وإلى الوحدة العربية القوية.. وكان من ذلك التيار أحمد عرابي وعبد الله النديم.. واللذان كانا يهاجمان حكم الأتراك.. ويهاجمانِ السلاطين.. وقد ألَّفَا حزبًا كبيرًا لإعلان الاستقلال عن تركيا إذا تدخل الأتراك في مصر تدخلًا حربيًّا.. وكان عبد الله النديم يقول: «سأهدم عرش السلطان قبل أن أموت».

ويذكر الدكتور محمد عمارة في كتابه «العروبة في العصر الحديث».. أن الخديوي توفيق كتب إلى السلطان العثماني في نوفمبر 1881م يقول: «إن في مصر ثورة.. وهناك اقتراح لإنشاء إمبراطورية عربية».

***

www.ibtesamah.com/vb

إذن.. فلقد تشكّلت «الهندسة الفكرية» للأستاذ الإمام محمد عبده من تأسيس مصر كدولةٍ وطنية قوية، إلى صياغة الفكر الإسلامي في إطار الوسطية وبعيدًا عن التقليد والتغريب.. ثم إلى صياغة الحياة العامة في إطار من العصريّة والحداثة.. وصياغة الحركة الوطنية على أسسٍ جديدةٍ.. ترفعُ من القدراتِ العامة للبلاد.. لمواجهة الاستعمار المتفوِّق علميًّا وعسكريًّا.

رفع «الأستاذ الإمام» في هندسته الفكرية اللاءات الست: لا للتقليد.. لا للتغريب.. لا للتخلف.. وكذلك لا للأتراك.. لا للإنجليز.. لا للاستبداد.

***

يأخذ البعض على الإمام هجومه القاسي على الأزهر.. وتعامله الزائد مع اللورد كرومر.. ويهاجم السلفيون الأستاذ الإمام بسبب فتاواه العصرية ونقده للحركة الوهابية. وقد ذهبت أقلام عديدة للنيْل من الإمام محمد عبده، ونقده في فكره وفقهه.. وذهب البعض إلى التجريح في عقيدته وإيمانه.

إن الإمام محمد عبده لا يخلو من أخطاء وسوء تقدير.. وثمّة اجتهادات خاطئة، ومساعٍ غير صائبة يمكن الإشارة لها.. ولكنها لا تمثل الكثير في حسناتِه.. وفيضِ عطاءاته.

***

كان الأستاذ الإمام معتزًّا بنفسه بلا حدود.. وكان الأفغاني يقول له: «قل لي بالله.. أيُّ أبناء الملوك أنت!».. وقال عنه الخديوي عباس: «إنّه يدخل عليَّ كأنه فرعون».

حظي الأستاذ الإمام باحترام كبير لدى المسلمين في الشرق والغرب.. وأصبحت رؤيته في الهندسة الفكرية.. أساس كل حركات ومدارس تجديد الفكر الديني في العالم الإسلامي.

www.ibtesamah.com/vb

وعلـى الرغم من هجوم المتشـددين عليه وعلى مشـروعه.. فإن الجمْهرة الغالبة من المسلمين تراه مجدِّد الإسلام في القرن العشرين.. ويقول الدكتور محمد عمارة: إن الشيخ محمد عبده هو أعظم عقل إسلامي تأمّل آيات القرآن لتفسيرها في العصر الحديث.. وأنه استحق – من دون جدال – لقب «الأستاذ الإمام».

وفـي تقديري.. فإن اللاءات الســت للأســتاذ الإمام.. إنمـا تمثل نموذجًا جادًّا في «الهندسة الفكرية».

www.ibtesamah.com/vb

طلعت حرب.. كيف بنَى شخص واحد نصف الدولة المصرية؟!

يمتدحُ المصريون روعة وطنهم.. و«حلاوة» بلادهم.. بتلك المقولة الشهيرة: «اللّي بنَى مصر كان في الأصل.. حلواني». وأذكر أنني حين ألقيتُ محاضرةً عن «مصر الحديثة».. جعلتُ عنوانها: «اللّي بنَى مصر كان في الأصل.. طلعت حرب». إنَّهُ - حقًّا - ذلك «الحلواني» العظيم الذي أسَّس بمفرده.. نصف الدولة المصرية المعاصرة!

***

إن الزعيم الاقتصادي المصري طلعت حرب.. هو أحد أفضل مهندسي الدول في العالم.. امتلك رؤيةً نظريةً رفيعة.. ثم امتلك قدرةً عمليّةً فائقة.. ليصبح عالم الاقتصاد ورجل الاقتصاد.. امتيازًا يوازي امتياز.

أدركَ طلعت حرب أن الاقتصاد هو الوجه الآخر للسياسة.. وأن الاستقلال الاقتصادي هو الراعي الحقيقي للاستقلال السياسي.. وأنَّ جلاء الاستعمار يجب أن يعقُبه جلاء الفقر.. وأنَّه لا وجود للفخر الوطني من دون حماية من الاقتصاد الوطني.

كان طلعت حرب زعيمًا اقتصاديًّا موازيًا للزعامة السياسية.. مصطفى كامل ثم سعد زغلول. كان هو الاستمرار في ظلّ التغيّر.. والثابت في ظلّ التحوّلات.

www.ibtesamah.com/vb

لقد كانوا جميعهم قادةً تاريخيين.. من المستوى الرفيع.. تحالفَ طلعت حرب ومصطفى كامل.. بمثل ما تحالفَ طلعت حرب وسعد زغلول.. الكل على طريقٍ واحدٍ.. يتشكّلُ من كلمتيْن: الجلاء والبنَاء.

***

ولد الزعيم طلعت حرب في منيا القمح محافظة الشرقية عام 1867م.. ولمّا مدّ البصرَ إلى بلاده.. وجدَ الاستعمار قد رسَّخ بقاءه.. في إطار استراتيجية من النهب الثابت.. والمدروس.

كانت الأموال القائمة في البلاد هي أموالٌ لأجانب، وكان نصيب المصريين فيها محدودًا.. وحين اندلعت الحرب العالمية الأولى.. كان حجم الأموال في مصر يصل إلى (100) مليون جنيه، كان منها (8) مليون للمصريين و(92) مليونًا للأجانب.. أي نسبة امتلاك المصريين لرؤوس الأموال في مصر لم تزد عن (8٪) من إجمالي رؤوس الأموال.

كان المال الأجنبي متوجِّهًا إلى الزراعة.. وكان القليل جدًّا متوجِّهًا للصناعة.. فلم تزد نسبة الأموال المستخدمة في الصناعة عن (6٪).. بينما وصلت نسبة الأموال المستخدمة في الزراعة إلى (94٪) من إجمالي رؤوس الأموال.

كان الأجانب يمتلكون الأراضي الزراعية في مصر.. ولم يكن هناك حد أقصى للملكية، وقد وصل إجمالي ممتلكات الأجانب من الأراضي الزراعية المصرية إلى (700) ألف فدان.. ولم يتم إلغاء امتلاك الأجانب للأراضي الزراعية إلّا في عهد حكومة الوفد في أوائل الخمسينيات، وكان ذلك باقتراح من المؤرخ عبد الرحمن الرافعي.

كان الاستعمار يعمل على جعْل مصر دولة زراعية.. دون تأسيس أو تطوير البنية الصناعية.. لتصبح مصر مجرد مزرعة كبيرة لأوروبا. وقد تأسَّست البنوك

www.ibtesamah.com/vb

الأجنبية في مصر منتصف القرن التاسع عشر.. ليتمّ تحويل الأموال.. فضلًا عن تحويل المنتجات إلى خارج البلاد.. في عملية استنزاف شاملة للثروة المصرية.

***

في عهد الزعيم مصطفى كامل سعى الزعيم طلعت حرب لتكامل الجهود.. كان طلعت حرب يعمل من أجل «الخبز».. وكان مصطفى كامل يعمل من أجل «الحرية».. كانا يعملان معًا من أجل الاستقلال وإعادة البناء.. من أجل «الكرامة» و«الحياة». وكانت رؤية طلعت حرب هي تأسيس بنك وطني مصري.. يتولى تمويل تأسيس شركات كبرى.. تعمل كلها كمنظومة لبناء الدولة المصرية.

انضم طلعت حرب إلى الحزب الوطني بزعامة مصطفى كامل.. وقام بتمويل الصحف التي ترفع شعار: «مصر للمصريين».. واستمر في توفير الغطاء الاقتصادي للسياسة الوطنية.. طيلة مسيرته.

وفي عام 1911م نشر طلعت حرب كتابه الذي يشرح برنامجه الاقتصادي لمصر.. «علاج مصر الاقتصادي وضرورة تأسيس بنك للمصريين».. وعبْر (186) صفحة.. وخلال زحامٍ جادٍّ من الأرقام والجداول والحسابات.. والمعلومات.. كانت هناك خريطة طريق اقتصادية كبرى للبلاد.

كان تقدير طلعت حرب أن البنوك الأجنبية لن تموّل المشروعات الوطنية المصرية، وأن سياسة الأجانب الماليّة تقوم على شراء أراضٍ زراعية.. لا بناء مؤسسات وشركات صناعية. ومن ثمَّ فإنّ الحل الوحيد.. هو تأسيس بنك وطني.. «بنك مصر».. من أجل تمويل النهضة المصريّة.

www.ibtesamah.com/vb

في العام نفسه 1911م قرَّر «المؤتمر الاقتصادي المصري» سفر طلعت حرب إلى أوروبا لدراسة إدارة البنوك.. ليعودَ وقد تمكّن من الإدارة الحديثة وقيادة المصارف الكبرى.

ظلّ طلعت حرب يواصِل دراساته ويطور أفكاره ورؤاه بشأن «بنك مصر» والاقتصاد الوطني.. حتى جاء سعد زغلول باشا.

كانت ثورة 1919م ثورةً عظيمةً.. وقد وجَد طلعت حرب فيها «الأمل الجديد».. وفي عام 1920م أعلن تأسيس بنك مصر.. رغم سخرية الأجانب ويقين الاحتلال من الفشل الذريع.

وقد جاء نداء سعد زغلول للشعب بسحب أموالِه من البنوك الأجنبية وإيداعها في بنك مصر.. صدمةً وصفعةً على وجْه المحتلّ.. وهنا كان قرار الاستعمار بإعدام مساعدي سعد باشا ممن وقّعوا بيان سحب الأموال.. وصدر الحكم على حَمَدَ الباسل وبقية الموقعين بالإعدام!

واصَل سعد باشا وقادة ثورة 1919م العمل العظيم.. وطلبوا من المصريين مقاطعة الصناعة الأجنبية.. ودعم الشركات المصرية بالتعامل معها وشراء منتجاتها.

***

ما بيْن الحربيْن العالميتيْن الأولى والثانية.. كان طلعت حرب وبنك مصر قد نجحَا في بناء الاقتصاد المصري الحديث.. في تجربةٍ مذهلةٍ وباهرةٍ.

في عشرين عامًا من 1919 إلى 1939م.. من نهاية الحرب العالمية الأولى إلى بداية الحرب العالمية الثانية.. تمكَّن طلعت حرب من تأسيس (50) شركة عملاقة.. قادتْ مصر الحديثة إلى المستقبل.

www.ibtesamah.com/vb

إن الكثير من الأسماء الكبرى في عالم الشركات المصرية هي كلها شركات طلعت حرب.. من شركة مصر للسياحة إلى شركة مصر للطيران، ومن شركات الأسمنت والزيوت والمحاجر والمناجم.. إلى شركة الملاحة البحرية، ومن شركة حليج الأقطان وشركة كفر الدوار إلى شركة المحلة للغزل والنسيج.. ومن شركة بيع المصنوعات إلى شركة مصر للتأمين.. ومن مطبعة مصر إلى شركة مصر للسينما.

خمسون شركة في عشرين عامًا.. في إطار رؤية فكريّة واقتصادية.. وخريطة طريق واضحة ومنضبطة.

***

رَحَلَ طلعت حرب باشا عام 1941م بعد عامين من إجباره على التقاعد عام 1939م. لم يكن أمير الشعراء أحمد شوقي مبالغًا حين وصف «بنك مصر» بأنّه «الهرم الرابع».. ذلك الهرم الذي أسَّس خمسين هرمًا آخرين.. صاغُوا جميعًا مصر المعاصرة.

يذكُر أمير الشعراء في وصفِ الزعيم طلعت حرب باشا:

شرفًا محمّد هكذا تُبنى العُلا ... بالصَّبر آونةً وبالإقدامِ

مازلتَ تبْني ركنَ كلّ عظيمةٍ ... حتى أتيْتَ برابعِ الأهرام

***

كان طلعت حرب باشا.. نموذجًا لذلك التوازي الخلّاق بين «الهندسة الاقتصادية» و«الهندسة السياسية».. إنَّه ذلك الزعيم الذي امتلك رؤيةً عالميةً في رسم «الهندسة الوطنيّة».. هو «صانع الحلوى» الذي بنَى بمفرده نصفَ الدولة المصرية!

www.ibtesamah.com/vb

نابليون بونابرت.. تعديل أوروبا

لم يكن «نابليون بونابرت» نموذجًا لـ«الهندسة السياسية» في فرنسا وحدها.. وإنّما كان أبرز محاولة في التاريخ لـ«الهندسة السياسية» لقارّة بأكملها.

كانت فرنسا تغرق في الثورة والفوضى.. كانت تمضي إلى المجهول بسرعةٍ متزايدةٍ، وكانت أوروبا تغوصُ تحت سطْوة الإقطاع، وسلطة البابا.. وأطلال الإمبراطورية الرومانية المقدّسة.. وجاء نابليون ليضَع نقطة نهاية السطر.. وليتمكّن من إنقاذ الثورة والدولة.. ثم الانطلاق من باريس إلى «تعديل أوروبا».

قام نابليون بانتشال القارة من الماضي.. ودفعِها - بالقوة - نحو المستقبل.. ليكون زمن نابليون.. نهاية تاريخٍ.. وبداية تاريخٍ جديدٍ.

* * *

ولد «نابليون بونابرت» في جزيرة كورسيكا عام 1769م.. لم يكن «نابليون» فرنسيًّا، وكادَ أنْ يكونَ بريطانيًّا.. ولكنَّهُ انتهى.. أعظم قادة فرنسا على مرّ العصور!

ولد «نابليون» لأسرة إيطالية تنتمي إلى «جمهورية جنوة».. وقد قام والده بتسميتِه «نابليون» تخليدًا لذكرى عمِّه.. الذي قُتِل وهو يحارب الفرنسيين دفاعًا عن بلاده!

www.ibtesamah.com/vb

لـم يكـن «نابليون» يعرف الفرنسـية.. وقد تعلّمها في مدرسـة مسيحية.. ويقول المؤرخون: إن زملاءه في المدرسـة كانوا يسـتهزئون بلغتِه الفرنسية.. حيث كان يتحدَّث الفرنسـية بلكنةٍ إيطالية طيلة حياته، ولم يحدُث أنْ تحدّث الفرنسيّة مثل الفرنسيين في أيّ وقت.

إن «الإيطالي» نابليون بونابرت.. كاد أنْ يكون ضابطًا بريطانيًا.. حين فشل في أن يكون بحّارًا فرنسيًا.. فقرَّر أنْ يذهب إلى لندن.. وأن ينضم إلى البحرية البريطانية!

تمكّن نابليون من القيام بـ«هندسـة سياسـية» لنفسِـه أولًا، ثم فرنسا ثانيًا.. ثم أوروبا ثالثًا.

فـي إطار «الهندسـة الذاتيـة».. ألغَى نابليون ماضيه كشـخصٍ كورسـيكي متطرِّف، كان يسـعى لاستقلال مسقط رأسه عن فرنسـا ومحاربتها، كما ألغى اسـتخدام اسـمه الإيطالي «نابليوني بونابرته» ليسودَ اسـمه الفرنسي «نابليون بونابرت».

ثـم إنَّهُ بعـد ذلك قرَّر غزو إيطاليا.. ومحاربة البحريـة البريطانية.. فأصبح ملـكًا فرنسـيًا على إيطاليا، وراح يطارد بريطانيا فـي بحار العالم.. وذهب إلى مصر ليقطع طريقها إلى الهند.

***

كان نابليون بونابرت نموذجًا مدهشًـا في «صناعة الوطنيّة».. ذلك أنّه ولد في جزيرة أصبحت فرنسـيةً بعد عام واحدٍ فقط من ولادته.. ثم إنّه كان مؤيدًا لاسـتقلال بلاده «كورسـيكا».. ثم أصبح في حالة صراع داخلـي بين تيّارات ذلـك العصر.. بين «الكورسـيكيين الوطنيين» الذين يسـعون نحو الانفصال،

www.ibtesamah.com/vb

وبين «الثوار الفرنسيين» الذين يرون إبقاء «الثورة مستمرة».. وبين «الملكيين» الذين يعملون ضد الثورة ويسعون لإعادة النظام الملكي القديم.

أصبح نابليون ضدَّ المشهد بكامله.. وأبدَى سخطَه على الثوّار الذين حوّلوا الثورة إلى فوضى.. وقضُوا بالثورة على الدولة.. وكان يقول في نقدهم: «هؤلاء الإيديولوجيون.. هم أناسٌ غارقون في الأفكار، ويعربدون بالمنطق والعقل.. لدرجة تجعلهم غير قادرين على فهم حقائق الحياة والتاريخ».

كان نابليون يرى أن الثورة الفرنسية لم تنشئ تعليمًا وطنيًا، وأنها تركت التعليم على حالته الركيكة والمفكّكة.. وهو ما ساعدَ على انكسار الهويّة الفرنسية، وترهل النسيجِ الوطني.. وأن اضطراب الهوية هذا قد أضعفَ فرصة تأسيس وانطلاق «الأُمّة الفرنسية».

وينقِل «ويل ديورانت» في «قصة الحضارة» قول نابليون: «طالما أنَّ المرء ينشأ دون أن يعرف ما إذا كان جمهوريًا أم ملكيًا.. كاثوليكيًا أم لا دينيًا.. فإن الدولة لن تستطيع أبدًا بناء أمّة.. وإنما ستقوم على أسسٍ غامضة وغير أكيدة.. وستكون دائمًا عرضة للفوضى والتغيير».

***

يقول المثل الفرنسي: من السهل أن تبدأ ثورة، ولكن من الصعب أن تنهيها بسلام.. ولكن نابليون نجح في إنهاء الثورة بالقوة والرؤية.. أنقذ الثورة من نفسها.. وأنقذ الدولة من الثورة.

أطلقَ نابليون عمليةً واسعةً لتحديث فرنسا.. حيث شرعَ في بناء الاقتصاد والجيش معًا. أسّس نابليون أول بنكٍ في فرنسا، وأسّس القانون المدني الذي لايزال موجودًا في دولٍ عديدةٍ حول العالم.

www.ibtesamah.com/vb

قام نابليون بتقسيم فرنسا إلى محافظات، وزيّن باريس بقوس النصر الذي يضيء شارع الشانزليزيه الشهير.. ووضع استراتيجية للتنمية الزراعية والصناعية.. ويذكر «ويل ديورانت» أنه كان يربح من حروبه الخارجية أكثر مما يتكلف.. وأنه رغم كونه رجلًا عسكريًّا إلا أنه كان يدرك أن قياس قوة الدولة وضعفها يتعلق بالاقتصاد. وفي أول (13) عامًا من حُكم نابليون.. كانت فرنسا تشهد أكثر الفترات ازدهارًا في كلِّ تاريخها.

وعلى صعيد الجيش.. قام نابليون بانتهاج سياسة التجنيد الإجباري، وإعادة تنظيم الجيش على نحوٍ غير مسبوقٍ.. حيث جرتْ إعادة هيكلته بطريقةٍ لم تعرفها الجيوش من قبل.. ويذكر المؤرخون أن نابليون لم يقُم بتحديثٍ كبيرٍ في الأسلحة والمعدات العسكرية.. لكنه أجرى تحديثًا واسعًا في الإدارة العسكرية والخطط الحربية.. وأنَّ نابليون كان بذاته تمثيلًا مذهلًا لـ «عبقرية القيادة».

***

حاربَ نابليون بونابرت أكثر مما ينبغي.. حارب الألمان والإنجليز والروس واحتل إسبانيا.. كما احتل إيطاليا والدولة البابوية. أنهى الإمبراطورية الرومانية المقدسة.. وقذفَ بها خارج التاريخ.. وفي لحظةٍ من اللحظات كان نابليون يسيطر على أوروبا بأكملها.

يقول المؤرخون العسكريون: إن نابليون هو ثاني أكبر فاتحٍ في التاريخ بعد الإسكندر الأكبر، وأنّه انتصر في جميع المعارك التي خاضَها وجهًا لوجه مع أعدائه.. فيما عدا معركتين صغيرتين خاضهما أثناء حملته على إيطاليا.

وحين سُئل «آرثر ويلزلي» قائد الجيش البريطاني في «معركة ووترلو» عن أعظم قائد عسكري في زمانِه.. أجاب: «إنَّ أعظم قائد عسكري في الماضي

www.ibtesamah.com/vb

والحاضر والمستقبل.. نابليون بونابرت». ويذكر المؤرخ هنري لورنس في كتابه «بونابرت والإسلام.. بونابرت والدولة اليهودية»، أن نابليون كان مبهورًا من قدرة المسلمين على فتح العالم في (13) سنة فقط.. وأنَّه كان يدرس باهتمام غزوات الرسول محمد (ﷺ).. وينقل «لورنس» عن نابليون ما ذكره في مذكراتِه: «سوف أكون الإسكندر الأكبر على المستوى العسكري.. و(محمدًا جديدًا) على المستوى السياسي».

* * *

انهزم نابليون في معركة ووترلو.. ثم تم نفيُه إلى جزيرة سانت هيلانه ذات السيادة البريطانية.. وهناك مكث منفيًّا ست سنوات.. حتى رحل في عام 1821م.

ومن المثير أن نابليون حين أراد أن يوجِز سيرته.. ويُظهِر أعلى مراتِبَ فخره.. رأى أن القانون وليست الحروب.. هو ما سيبقى خالدًا في العالم، ومخلِّدًا لتاريخه وسيرته. يقول نابليون: «إنّ فخْري ليس بالأربعين معركة التي كسبتُها في حياتي.. لأن هزيمة ووترلو سوف تمحُو الكثير من الانتصارات.. لكن فخري هو قانوني المَدني».

* * *

حكَم نابليون الثاني ابن نابليون بونابرت فرنسا لمدة أسبوعيْن فقط.. ورحل في الحادية والعشرين من عمره.. وأصبح ابن أخيه لويس نابليون إمبراطورًا على فرنسا.. «نابليون الثالث».

نجحَت بريطانيا في النيْل من نابليون في جوانب عديدة.. حيث جرى تصويره داخل المجتمع البريطاني باعتباره آكل لحوم البشر.. ويذكر

www.ibtesamah.com/vb

المؤرخـون أن العائلات في بريطانيا كانت تردِّد أغنية للأطفال الأشـقياء أنهم إذا لـم يلتزموا الأدب.. فسـوف يأتي نابليون ليأكل لحومهـم. كما أن الدعاية البريطانية نجحت في وصف نابليون بالشـخص قصير القامة.. وعلى إثر هذه الدعايـة تحدَّث العالم النفسـي «ألفريد أدلـر» عام 1908م عمّا أسـماه «عقدة نابليون».. حيث اعتبر قصر القامة دافعًا للسلوك العدواني.. وهو تفسير نفسي لا يحظى بالاحترام في أوساط نفسية عديدة.

ويقرِّر المؤرخون.. أن نابليون كان طوله (170) سم.. وهو متوسط الطول السائد في فرنسا في ذلك الوقت.. لكن الصحافة البريطانية نجحت في أن يتم تصويره في السينما والإعلام.. باعتباره شخصًا قصير القامة.

***

يذهب نقَّاد نابليون إلى أنه لم يمتلك الأخلاقيات والمبادئ الإنسانية، وأنه كان إمبراطورًا توسعيًّا.. أدّى عصره إلى الدم والفقر. ويذكر بعض المؤرخين أنـه كان يسـمح لرجاله بنهـب المدن والبـلاد التي دخلوها.. ويشـهد متحف اللوفر على نهـب التحف والآثار من الدول التي غزاها، وأحضَر تاريخها إلى باريس.

ويشير مؤرخون إلى أن نابليون كان يهدف إلى إعادة العبودية، وأنه أراد أن يعمل بنظام العبودية في بعض المسـتعمرات. وبينما يشـبِّه المؤرخ الهولندي «بيتـر جيل» نابليـون بونابرت بالزعيم النازي أودلف هتلـر.. يلخِّص المؤرخ «فيكتور هانسون» الحصاد المرّ لعصر نابليون.. بأنه «بعد 17 عامًا من حروب نابليون كانت النتيجة كالتالي: 6 مليون قتيل وإفلاس الخزينة، وفقدان فرنسـا لمستعمراتها وراء البحار».

***

www.ibtesamah.com/vb

يتحـدّث بعض الكُتّاب العرب عن دعوة نابليون إلى تأسـيس دولةٍ يهودية في فلسـطين.. وقـد روّج لذلك الاتهام غير الصحيح الكاتب محمد حسـنين هيـكل.. حيـث نشـر «هيـكل» فـي كتابـه «المفاوضات السـرية بيـن العرب وإسـرائيل» خطابًا نسبَه إلى نابليون بونابرت.. يدعو فيه يهود العالم للذهاب إلى فلسـطين وإقامة دولة يهودية.. وهو الخطاب المزعوم الذي جاء فيه نداء نابليـون لليهـود في العالم: «أيها الإسـرائيليون.. انهضـوا.. فهذه هي اللحظة المناسـبة. إن فرنسـا تقـدِّم إليكم يدها.. حاملةً إرث إسـرائيل.. سـارعوا إلى استعادة مكانتكم بين شعوب العالم».

قـام «تيودور هرتزل» بترويج ذلك في أوسـاط الحركة الصهيونية.. لحثّ اليهـود علـى الذهاب إلى فلسـطين.. ثـم راحَ مـن بعده الخطـاب الصهيوني العالمـي يواصـل ترويـج هـذا الادعـاء.. لإعطـاء فكـرة إقامة دولة إسـرائيل تاريخًا أبعَد من وعد بلفور.. واسـتثمار اسم نابليون بونابرت صاحب المكانة الأسطورية في تاريخ أوروبا والعالـم.. لتغطيته المشروع الصهيوني.

لقد أعطى نابليون حقوقًا واسعة لليهود الفرنسيين.. وبعد أن كانوا محدّدي الإقامة فـي أحيائهم.. ومحـدّدي الحقوق فـي التملك والتوظّـف والعبادة.. قـام نابليـون بتحريرهـم من هـذه القيـود.. وكان ذلك فـي إطار رؤيتـه لفكرة «المواطنة».. ومساواة كل الفرنسيين أمام القانون الفرنسي «النابليوني».

وحيـن قـرر نابليـون غزو موسـكو.. وكان للحـرب جانبٌ مذهبـي.. بين «الكاثوليكية» الفرنسـية و«الأرثوذكسـية» الروسـية.. قامت الكنيسة الروسية بحملةٍ دعائيةٍ ضد نابليون.. واستخدمت قيامه برفع مكانة اليهود إلى مستوى المواطنين.. ووصفته بأنّه «مسيح دجّال.. عدوٌ للربّ.. ومتآمر مع اليهود ضد المسيحية».

www.ibtesamah.com/vb

لقد ساعدتْ الكنيسة الروسية من جانب والحركة الصهيونية من جانب.. في إنصاتِ البعض إلى رواية دعم نابليون تأسيس دولة يهودية في فلسطين.

ويقطَع المؤرخ «هنري لورنس» في كتابه «بونابرت والإسلام.. بونابرت والدولة اليهودية».. والذي ترجمه «بشير السباعي».. بأن ذلك غير صحيح.. وأن كلَّ ما نُسِبَ إلى نابليون بشأن دعوته لليهود لإقامة دولة لهم في فلسطين.. هو محض خرافة.

***

رغم الانتقادات الواسعة.. ومساحة الغضب التاريخي على نابليون.. فإن كثيرًا من المؤرخين والفلاسفة يذهبون إلى تعظيمه.. ومديح عصره وزمانه.. وأن حروبه لم تكن خرابًا على أوروبا.. وأنّه لم يكن السبب الأكبر للحروب.. حيث كان المتآمرون على فرنسا سببًا في أغلبها.

أدّى قانون «نابليون» إلى نشأة الدولة القومية الحديثة في أوروبا بعد إنهاء سلطة البابا، وإسقاط الإمبراطورية الرومانية المقدسة.. والعمل على دمج السكان تحت فكرة الدولة والمواطنة.

بسبب نابليون أصبحت إيطاليا دولة.. وبعد أن كانت ألمانيا مكوّنة من (300) دويلة أصبحت تتشكّل من (39) دويلة.. فقد ساعدت حروب نابليون على تجميعها إلى أن نجح «بسمارك» لاحقًا في توحيدها.. وتأسيس الدولة الألمانية الموحّدة.

إن فكرة الدولة الحديثة والوحدة الألمانية هي التي دفعتْ فيلسوف ألمانيا الكبير «هيجل» لتأييد غزو نابليون لبلاده.. حيث رأى «هيجل» أن نابليون هو الأمل الوحيد في إسقاط النظام الإقطاعي وإحلال النظام الحديث.. ومضى «هيجل» في فلسفته يرى نابليون تمثيلًا لـ«جوهر الحرية» و«نهاية التاريخ»..

www.ibtesamah.com/vb

وقال «هيجل» واصفًا «نابليون»: «رأيتُ الإمبراطور.. روح العالم.. على حصانِه».

* * *

كان عصر ما بعد الحروب النابليونية.. والذي صاغه «مؤتمر فيينا» 1815م بإشراف مهندس السياسة النمساوي «مترنيخ».. موضِعًا للكثير من الدراسات والأبحاث.. وكانتْ ظِلال نابليون حاضرةً في كل رقعةٍ في أوروبا.. وقد تعرضّت رسالة الدكتوراه التي قدمها «هنري كيسنجر» إلى جامعة هارفارد حول الفترة التي تلتْ الحروب النابليونية في أوروبا.. لجانبٍ من تلك الظلال.

* * *

كان نابليون بونابرت نموذجًا باهرًا لـ«الهندسة السياسية».. كيف أعاد صناعة نفسه.. وتقديم دوره.. وانتقاله من مواطن كورسيكي إيطالي انفصالي.. ماتَ عمُّه وهو يقاتل الجيش الفرنسي.. إلى أعظم أبطال الدولة الفرنسية.

ثم كيف أعاد هندسة فرنسا.. ونقلِها إلى الحداثة العسكرية والمدنية.. كيف أسّس دولة القوة والقانون معًا. ثم كيف أعاد هندسة أوروبا.. من قارة مقسَّمة إلى حفنة من الدويلات الفاشلة.. وبقايا إمبراطورية مقدسة وصلتْ قرنها التاسع.. وهي في حالة من الإعياء التام والموت التاريخي.. ليجعلَ نابليون من أوروبا القديمة.. مكانًا للحداثة والأمل.. وهو ما دفع الفيلسوف «هيجل» للترحيب به غازيًا للحاضِر ومحرّرًا للمستقبل.

يمكن للمؤرخين أن يمضوا عقودًا أخرى في إعادة قراءة عصر نابليون.. لكن المؤكد - تمامًا - أن نابليون بونابرت كان واحدًا من أعظم روّاد «الهندسة السياسية».. هندسة الأنا، ثم هندسة الوطن.. ثم هندسة المحيط الجيوسياسي بكامله.

www.ibtesamah.com/vb

عصر مترنيخ.. قوة الضعف

كانـت «الإمبراطورية النمسـاوية المجرية» من أعظـم الإمبراطوريات في أوروبا.. وكانت أسـرة الهابسـبورج المرموقّة هي الأسـرة المالكة لها.. وأمّا وزير خارجيّتها الأمير «كليمنس فون مترنيخ» فقد كان أشهر نجومها.

لم يكن «أسطورة الدبلوماسية» مترنيخ أشهر نجوم الإمبراطورية فحسب.. بل كان أحد قادة القرن التاسع عشر.. وأحد صُنّاع أوروبا الحديثة.

***

يُطلِق المؤرخون على الحقبة الممتدة من عام 1815 إلى عام 1848م «عصر مترنيـخ».. إنَّـه العصر الذي يبدأ مـع اتفاقية فيينا عـام 1815م.. وهي الاتفاقية التي لا يمكن فهم تاريخ أوروبا بدونها.. وينتهي بعام الثورات 1848م.. حيث سقطت أوروبا المحافظة.. وبدأ تاريخ جديد.

كان وزيـر خارجيـة فرنسـا «تاليـران»، ووزيـر خارجيـة بريطانيـا «لـورد كاسـلريه».. مـن كبـار النجـوم في عصـر مترنيخ. وقـد ألّف وزيـر الخارجية الأمريكـي الأسـبق هنري كيسـنجر كتابًـا بعنوان: «اسـتعادة العالـم.. مترنيخ وكاسـلريه وقضايا السـلام 1812».. وفيه رأى كيسـنجر أن «مترنيخ» قد جعل من الإمبراطورية النمسـاوية المجرية الممتلئة بالمشاكل.. قوةً قاريَّة عظمى.. مَا يجعله من أعظم الدبلوماسيين في التاريخ.

***

www.ibtesamah.com/vb

يمثِّل ساسة كبار بوزن «مترنيخ» و«بسمارك».. نموذجًا مذهلًا للهندسة السياسية.. ومن المثير أن كلاَ الرجليْن وُلِدا في ألمانيا، وكلاهما من السلك الدبلوماسي، كما أنَّ كليهما عمِل سفيرًا.. قبل أن ينطلِق إلى دورِه الكبير.

بدأ «مترنيخ» حياته الناضِجة مع أكبر ثورة في أوروبا.. وانتهى هاربًا مع أكبر موجة ثورية في تاريخ القارة الأوروبية.. وما بيْن الثورة الفرنسية 1789م والربيع الأوروبيْ 1848م.. كان العالم يشهد براعة مترنيخ الكبرى: كيف يمكن لدولةٍ تواجه أزماتٍ كبرى.. أن تتجاوز أزماتها وطاقاتها وحدودها.. لتحكُم أقوى قارات العالم.. بـ«قوة الدهاء»!

كان «مترنيخ» يدرس في جامعة استراسبورج في فرنسا عام 1787م.. وبعد عامين وفي أثناء الدراسة قامت الثورة الفرنسية عام 1789م.. فغادرَ فرنسا.. وفيما بعد عمل سفيرًا للإمبراطورية النمساوية المجرية في برلين وباريس.. بعد عشر سنوات من وجوده طالبًا في فرنسا.. أصبح «مترنيخ» وزيرًا للخارجية.. بعد هزيمة بلاده أمام فرنسا وتوقيع النمسا اتفاقية 1809م المذِلّة مع باريس.

***

إن «مترنيخ» الذي بدأَ العمل وزيرًا للخارجية بعد هزيمة قاسية ومعاهدة مُهِينة.. استطاع بفضل رؤيته أنْ يقدِّم نموذجًا مذهِلًا في «إدارة الضعف».. لتصبح بلاده المهزومة والمرتبكة.. صاحبة السيادة الدبلوماسية.. وصانعة النظام الأوروبي لمدة قرنٍ كاملٍ.

ففي عام 1815م كانت اتفاقية فيينا التي وضعت قواعد السلام الأوروبي.. وفي 1914م فشلتْ «قواعد السلام».. واندلعتْ الحرب العالمية الأولى..

www.ibtesamah.com/vb

لكن (99) عامًا كاملة.. من 1815 وحتى 1914م كانتْ – في عمومها – حقبةً من السلام وتوازن القوى.

* * *

كان «مترنيخ» الدبلوماسي الأرستقراطي وزوج حفيدة مستشار الإمبراطورية النمساوية المجرية.. ينظُر باحتقار إلى الثورة والثوار.. وكان ينظر إلى «نابليون بونابرت» الذي هَدَمَ أوروبا في سنواتٍ.. وأصبح أعظم ساستِها.. في أسى وغضب.. ليس فقط لأنَّ نابليون سَحَقَ بلاده.. ولكن أيضًا لأن نابليون هو ذلك «الفلّاح» القادم من مجاهِلِ كورسيكا.. ليقضي على الجيوش والعروش، ولأنَّ ملكًا كبيرًا بوزن «لويس السادس عشر» وزوجته الملكة «ماري انطوانيت».. قد تم قتلهما بطريقة صادِمة.. ومن جانِب حفنةٍ من الثوّار الغوغَاء.

ويذكر المؤرخون أن «مترنيخ» أدار الاستعلاء والاحتقار على نحوٍ مثالي.. حيث رتّب لزواج نابليون من «ماري لويز» من عائلة الهابسبورج المالكة.. ليكسَر شوكتَه، ويأخذَ الوقت للاشتراك في هزيمتِه.

* * *

انتهتْ أسطورة نابليون بونابرت في نكسة يونيو 1815م بعد معركة ووترلو.. وانتهى معه ربعُ قرنٍ كاملٍ من الحروب المتواصلة. وبعد تسعة أيام من الهزيمة.. تم التوقيع على الوثيقة النهائية لمؤتمر فيينا 1815م.. وكانت فلسفة المؤتمر الذي انعقد طويلًا وحضره كلُّ سفراء أوروبا.. «المَلكيّة مقابل السلام».

www.ibtesamah.com/vb

كانت هناك أربع قوى كبرى في مؤتمر فيينا.. روسيا وبروسيا والنمسا وبريطانيا.. وكان «مترنيخ» سيّد المؤتمر.. الذي أرضَى الجميع وقادَ الجميع.. وأسّس معادلة.. اللاثورة واللاحرب مقابل الأمن والسلام.

***

مضَى «عصر مترنيخ» في صعودٍ مثيرٍ.. ثم انكسر في عام 1848م.. وهو عام الثورات الأوروبية التي قضتْ على أنظمة أوروبا.. قبل أن تنجح الأنظمة في العودة.. والقضاء عليها. بدأت ثورات الربيع الأوروبي 1848م في صقلية، ثم باريس، ثم برلين وفيينا وبودابست وميلانو.

كانت الأحداث متلاحقة ومباغتة.. هربَ ملك فرنسا بعد ثلاثة أيام.. وهاجمَ الثوار مقر البابوية في روما.. ثم أعلنوا الجمهورية وطاردوا البابا الذي فرّ هاربًا!

ثار الفلاحون على المُلّاك.. والعمال على الرأسمالية.. وكانت النوادي الاجتماعية تغذي «الوعي الثوري» والتحريض ضد النظام. ويرصُد المؤرخون وجود أكثر من (200) نادي اجتماعي في باريس وحدها عام 1848م، ووجود المئات في ألمانيا.. وكان أحد نواديها يضم قرابة المليون عضو!

لقد وقعتْ كل الأحداث التي قضتْ على السلطة في أوروبا عام 1848م في مائة يوم فقط.. ولكنها لم تصمُد طويلًا.. حيث سرعان ما فشلتْ الثورات عام 1849م.. وسارتْ الأمور في فرنسا – لاحقًا – إلى تأسيس الإمبراطورية وتولّى ابن شقيق نابليون.. «لويس بونابرت» منصب الإمبراطور!

أمّا الثوار فقد تزاحموا في موجة لجوء وهروب واسعة.. ما يمكن تسميتُهم بـ«لاجئي 48 الأوروبيين» أو «لاجئي 1848م».. وكان من بينهم «كارل ماركس» الذي لجأ إلى بريطانيا.

***

www.ibtesamah.com/vb

ذهب «ماركس» و«انجلز» إلى أنَّ الثورات قد فشلت.. لأن البيئة لم تكن جاهزة، والطبقة العمالية لم تكن قوية. وأنه لكي تكون «الثورة مستمرة» لابُدّ أن تقودها الطبقة العاملة.. ويدعمها الفلاحون.

مضتْ أوروبا في عقود من السلام.. حتى كانت الحرب العالمية الأولى 1914م.. ثم الثورة الشيوعية في روسيا 1917م.. ثم بداية عصرٍ جديدٍ من التاريخ.

* * *

ينتقِد المؤرخون «عصر مترنيخ».. ويروْن أنَّهُ قام على الرجعيّة والعداء للثورات.. وكذلك قمع حركات الحقوق المدنيّة التي روّجت لها الثورتان الأمريكية والفرنسية.

يرى أنصار السلام.. فيما جرى عملًا عظيمًا.. حيث تمَّ وقْف الثوار من أجل وقْف الدماء.. وأن السياسة المحافِظة التي اتخذتها أوروبا جاءتْ بعد زمنٍ طويلٍ من الحروب.. وكان الأوروبيون يتطلّعون إلى عودة الأمن في «قارة الخوف».

وباستثناء حروبٍ محدودةٍ مثل الحرب بين فرنسا وبروسيا عام 1870م، وحرب القرم.. كانت لدى أوروبا فرصةٌ غير مسبوقةٍ لالتقاط الأنفاس.. وكانت لدى شعوبها الجريحة «مائة عام من السلام».

* * *

كان مترنيخ «مهندسًا سياسيًا عالميًا».. استطاع تحقيق رؤيتين كبيرتين في الهندسة السياسية. تمكن «مترنيخ» من تحقيق هدفه الاستراتيجي الكبير.. بتحقيق السلام.. وإنهاء الحروب.. وبرعَ في صياغة الحسابات المعقدة،

www.ibtesamah.com/vb

والتوازنات الدقيقة.. حتـى تثبُت الرمال المتحركة.. وتصمُد التُّربة الأوروبية تحـت «خيمـة السـلام». وقـد تمكّن - أيضًا - من بسْـط نفوذ بـلاده في عالم مفـزِعٍ.. وقوى مدمِّـرة.. ليحصُد بـ«السياسـة» مـا كان مسـتحيلًا بـ«القوة».. وليأخذ بـ«العقل» ما كان مستحيلًا بـ«الجيش».

كان «مترنيخ» يرى أن السياسـة الناجحة.. هي ألاّ تضيف منافسًا لك، وأنْ تلعبَ دورًا أكبر من حجمك. وهذه - في تقديري - من أبرز قواعد الهندسـة السياسية.

إنَّ «مترنيخ» هـو ذلك المهندس الذي قدم للعالم تلك التجربة المذهلة.. في «إدارة الفشل».. و«قوة الضعف»!

www.ibtesamah.com/vb

بسمارك.. تسع سنوات غيّرت وجه العالم

في أكتوبر 2015م أجرتْ صحيفة «نيويورك تايمز» استطلاعًا مثيرًا للرأي.. توجّهت الصحيفة إلى القراء بالسؤال التالي: «إذا أمكنكَ العودة بآلة الزمن وقتل أودلف هتلر عندما كان طفلًا.. هل كنت ستفعل ذلك؟».. وبينما كانت إجابة (42٪) من القرّاء هي نعم.. ارتبكتْ إجابة (28٪) من القرّاء.. ووسط الحيرة.. قال بعضهم: كان من الأفضل قتل بسمارك.. لأنّه كان أول من وحّد ألمانيا.. لأنها كانت منقسِمة إلى دويلات عديدة.. وقام بسمارك بتوحيدها».

***

السياسي الألماني بسمارك.. هو واحدٌ من كبار صُناع «الهندسة السياسية» في التاريخ.. يقول المؤرخ «جوناثان شتاينبرج» في كتابه «بسمارك.. قصة حياة».. الصّادر عن جامعة أكسفورد: «إنّ بسمارك هو صاحب أعظم إنجاز دبلوماسي وسياسي.. حقّقه أيّ قائد أو زعيم خلال القرنيْن الماضييْن».

ويوجِز هنري كيسنجر معجزة بسمارك.. في أنه استطاع خلال (9) سنوات فقط حلّ معضلتيْن كانتَا من أعقد التحديّات في أوروبا.. وهما: «كيفيّة توحيد ألمانيا، وإعادة تنظيم أوروبا الوسطى».

***

قام بسمارك بتوحيد ألمانيا فيما يُسمّى «الرايخ الثاني».. وقبله كان «الرايخ الأول» قد انهار.. وبعده أسّس أودلف هتلر «الرايخ الثالث».. ومع توحيد

www.ibtesamah.com/vb

ألمانيا من جديد بعد سقوط الاتحاد السوفييتي ونهاية الحرب الباردة.. تحدّث البعض عن عودة القوة الألمانية، وتأسيس «الرايخ الرابع».

***

يبدأ المؤرخون «قصة ألمانيا» عام 1099م.. حين سقطتْ القدس على يد الصليبيين.. تشكّلت جماعة ألمانيَّة.. تجْمع المسيحية والسياسة.. الدين والحرب. حملت هذه الجماعة اسم «فرسان الرهبنة».. واستمرتْ في نشاطها حتى هزيمة الصليبيين في عام 1211م.. فعادتْ إلى أوروبا.

يروي المؤرخون عمليات إبادة جماعية قام بها «فرسان الرهبنة» للسكان البروسيين الوثنيين ذوي الأصول البلطيقية.. لإجبارهم على اعتناق المسيحية الكاثوليكية. وبعد نحو ثلاثمائة عام.. وفي عام 1525م تشكّلت «إمارة بروسيا» بعد أن تحوّل القائد الكاثوليكي للجماعة إلى البروتستانتية.. لتصبح أوروبا إزاء «إمارة بروسيا» البروتستانتية التي أصبحت قاعدة الدولة الألمانية.

كان الحدث الأهم - فيما بعد - هو الحرب المذهبية الكبرى في أوروبا.. بين البروتستانتية والكاثوليكية.. وهي «حرب الثلاثين عامًا» الشهيرة من عام 1618 إلى عام 1648م.. وهي الحرب التي أذاقت أوروبا ويلاتٍ غير مسبوقة.. وفي نهايتها اتَّحدت «إمارة بروسيا» مع إمارة أخرى ذات وزن كبير هي «إمارة براندنبورج». هنا يرصد المؤرخون أوَّل صعود لمؤسسة «الجيش الألماني».. حيث قام الأمير «فريدريش فيلهلم» بتطوير الجيش لتصبح «بروسيا الشرقية» التي هي نتاج وحدة «بروسيا وبراندنبورج» من أقوى جيوش المنطقة.

بعد أكثر من قرن.. وفي عام 1772م تأسست «بروسيا الموحدة» من «بروسيا الشرقية» و«بروسيا الغربية».. وأصبح الملك فريدريش الثاني ملكًا على «بروسيا» الموحّدة.

www.ibtesamah.com/vb

كانت بروسيا والمنطقة المجاورة لاتزال ضمن «الإمبراطورية الرومانية المقدسة» التي استمرت تسعة قرون.. حتى جاء نابليون بونابرت.. فقضَى عليها.. واحتلَّ نصف بروسيا ضِمن احتلاله أجزاءً واسعة من أوروبا.. ليضعَ نابليون نقطة نهاية السطر للرايخ الأول.

لم تتمكّن «مملكة بروسيا» من استرداد أراضيها من نابليون إلّا بعد هزيمته التاريخية في معركة «ووترلو» الشهيرة.. على يد جيوش بروسيا وبريطانيا وهولندا.

***

مضتْ سنوات «ما بعد ووترلو» عاديَّة.. وربما أقل من عاديَّة.. حيث سادَ عدم الاستقرار السياسي، وسيطَر الانقسام على المشهد الجغرافي الألماني. وهنا جاء بسمارك.. قام الملك فيلهلم الأول بتعيين السفير «أوتو فون بسمارك» رئيسًا للوزراء في عام 1862م.. وقام بسمارك بتأسيس «الرايخ الثاني».

ولد بسمارك في عام 1815م من عائلة أرستقراطية.. ويذكر «جوناثان شتاينبرج» أن بسمارك لم يعمل في أيِّ منصب إداري قبل أن يتولَّى رئاسة الوزراء.. وكان أكبر منصب تولّاه قبل ذلك هو «سفير بروسيا في روسيا».. ولكن هذا المسئول السياسي المبتدئ كان يملك رؤيةً.. ولديه هدف.. لم يخرج عنه.. هو «توحيد ألمانيا».. و«تنظيم أوروبا الوسطى».

وحسب «شتاينبرج».. فقد كانت ألمانيا مقسَّمة إلى (39) دولة مستقلة ذات سيادة.. لا يجمعها سوى إطار واسع هو الكونفدرالية الألمانية.

سعى بسمارك لتحقيق هدفه الكبير بعملية عملاقة من «الهندسة السياسية».. حيث وضع مشروعًا حضاريًّا ألمانيًّا.. يشمل الزراعة والصناعة

www.ibtesamah.com/vb

والحرب.. كما يشمل القيم والمبادئ التي أطلقها بسمارك وهي ما تسمى الآن بـ«القيم الألمانية».

يذكر «بيير بيزباك» في مقالته «بسمارك وجذور القوة الألمانية»، والتي نشرها في صحيفة «لوموند» الفرنسية.. أن بسمارك مضَى في كل المجالات في وقتٍ واحد.. حيث وضع استراتيجية زراعية تمثّلتْ في استصلاح الأراضي، واستخدام الأسمدة الكيماوية، وتحسين الإنتاج الزراعي. كما وضع استراتيجية صناعية.. واعتمد على مقاولين مثل «ألفريد كروب» الشركة المصنِّعة لمعدات السكك الحديد والمدافع.. وشركات أخرى عديدة.. حتى جعل من ألمانيا القوة الصناعية الأولى في أوروبا.

ثم إنَّه وضع استراتيجية للتجارة.. فأسّس اتحادًا جمركيًّا لولايات شمال ألمانيا.. ثم أسّس «عملية المارك» في أول يناير عام 1876م.. كعُملة موحّدة لألمانيا، وهي العملة التي حلّت محل العديد من العملات التي كانت متداولة آنذاك.

وبالتوازي مع ذلك كله.. وضع «بسمارك» استرتيجية عسكرية.. قامت على تطوير الجيش.. وإعداده للحرب وبناء خطط عسكرية وسياسية محكمة.. فخاضَ الحرب ضد الدانمرك وانتصر عليها، كما قام بإعلان الحرب على النمسا وقام بسحقها في سبعة أسابيع.. وكانت المفاجأة العسكرية.. هي تحريضه فرنسا على الحرب.. ثم خوض الحرب معها بعد احتلالها مدينتيْن بروسيتيْن.. وهزيمتها واحتلال العاصمة باريس.. وفي قصر فرساي عام 1871م أعلن تأسيس الإمبراطورية الألمانية.. «الرايخ الثاني».. وإعلان «برلين» عاصمة للإمبراطورية.

www.ibtesamah.com/vb

كانت رؤية بسمارك بحسب المؤرخين.. أنّه إذا لم تقم «بروسيا» بتوحيد ألمانيا.. فلن يقوم أحد بذلك.. وكانت خطته - بعد تقوية الجيش - ضم الولايات الشمالية والوسطى، والتفاهم مع الولايات الجنوبية وإقناعها، وضرورة هزيمة النمسا وفرنسا لأنهما أقوى أعداء الوحدة.

***

كان بسمارك نموذجًا في تحديد الهدف وعدم الخروج عليه.. فعلى الرغم من قوة الجيش.. إلاّ أنه رفض أن ينجرف في طريق الاستعمار.. والذهاب إلى إفريقيا للسيطرة على أجزاء منها.. ويذكر «فريد زكريا» في مقاله الذي نشرته صحيفة واشنطن بوست في 19 أكتوبر عام 2015م.. أن «قوى أوروبا كانت تتسابق لتكسب النفوذ في إفريقيا.. تلك القارة التي شكّلت بقعة الأرض الأخيرة التي لا مالك لها.. ولكن بسمارك كان لديه هدف واحد: ألمانيا الموحدة.. وأن أيّ تدخل في إفريقيا سيقوم باستنزاف القوة الألمانية.. ويروي زكريا: «عندما عُرضت على بسمارك خريطة إفريقيا لإغرائه بالاستعمار.. قال: تبدو خريطتكم لإفريقيا ممتازة.. إلا أن خريطتي لإفريقيا تقع في أوروبا.. ها هي روسيا.. وها هي فرنسا.. ونحن هنا في الوسط.. هذه خريطتي لإفريقيا»!

***

كان بسمارك ضدَّ الاستعمار من أجل عدم الخروج على الهدف، كما أنه كان ضد الفيدرالية والأفكار التحررية لأنها أيضًا كانت برأيه خروجًا على الهدف.. وكانت كل سياساته ضد أفكار «الأحرار الأوروبيين».. ومؤيدة للملكية المطلقة.. وغير عابئة بالبرلمان أو رأي الأغلبية.. أو آليات النظريات الديمقراطية.. وهو ما عبّر عنه بقولته الشهيرة: «إن أنظار ألمانيا لا تتطلّع إلى

www.ibtesamah.com/vb

الحركة التحررية البروسية.. بل إلى قوة ألمانيا.. وأن مشاكل العصر لا يمكن أن تُحلّ بالخطب وقرارات الأغلبية.. بل بالدم والحديد».

ويرى باحثون أن بسمارك كان ضد فلسفة الحرية لأنّه كان لديه جدول أعمال لا يمكن تنفيذه عبْر أفكار الأحرار بل عبر سواعد الجيش.. ويفسِّر دكتور محمد عبد الستار البدري رفض بسمارك للفكر الثوري والنموذج الليبرالي.. بأنه كان يرى أن الإمارات الألمانية هي في حالة ضعف وتفكك.. وأنها مفتوحة أمام التدخلات الخارجية.. وأن وحدة ألمانيا هي السبيل الوحيد للمستقبل.. وأنّهُ «ينبغي توحيد ألمانيا قبل النظر في نظامها السياسي».

***

أسّس بسمارك نموذج «القيم الألمانية» ونموذج «الفخر الألماني».. ويصِف هنري كيسنجر الزعيم بسمارك بأنه «عملاق الأمة الألمانية».. ويقول إنَّهُ «كان يتصرّف كفيزيائي.. يحلِّل العناصر الرئيسية لكل وضعٍ يواجهه.. ثم يستخدم تلك العناصر في صياغة رؤية عامّة».

وحسب «شتاينبرج» فإن «بسمارك لم يكن سيّدًا على أوروبا لأنّه كان الأقوى.. بل لأنّ خصومَه كانوا أقلّ منه براعة.. وفي (19) عامًا.. غيّر بسمارك أوروبا أكثر من أيّ شخص آخر.. باستثناء نابليون.. لكنّه – على عكس نابليون – لم يكن جنرالًا ولا إمبراطورًا».

قبْل بسمارك.. كانت ألمانيا ضمن «إمبراطورية الفرنجة الشرقية».. وكانت فرنسا ضمن «إمبراطورية الفرنجة الغربية».. وكانتا معًا ضمن الإمبراطورية الرومانية المقدسة. جاء نابليون فأنهى عصر الإمبراطورية الرومانية المقدسة «الجرمانية» في عام 1806م بعد تسعة قرون.. وجاء بسمارك ليقضي على

www.ibtesamah.com/vb

نابليون.. ليكون نابليون قد أسقط «الرايخ الأول».. فاتحًا الباب بعد هزيمتِه أمام بسمارك.. لتأسيس «الرايخ الثاني».

***

إن أقوى ما تركه «بسمارك»: الوحدة الألمانية والقيم الألمانية.. حيث تأسَّست في عهده «القيم البروسية».. من التنظيم والصبر والاجتهاد. وهي ليست قيمًا فطْريّة تتعلق بالجنس الألماني.. أو بالجيش الألماني.. بل هي قيم مكتسبة.. لولا بسمارك.. لربّما لم تكن!

وفي كتابه «تاريخ الألمان» يذهب «فايت فالنتين» إلى أن «الألمان ليسوا آريين.. لأن الآريين هم الفرس والهنود.. طبقًا للحقائق العلميّة.. كما أن الألمان ليسوا جرمانًا.. ولا تتعدّى نسبة العرق الجرماني فيهم الـ(30٪).. ذلك أن الألمان هم مزيج من أعراقٍ مختلفةٍ.. وهم ككل البشر.. فيهم نقاط قوة وإبداع ونقاط ضعف وتدمير.. إن ألمانيا التي أنجبتْ أينشتاين وبيتهوفن وجوته وغيرهم من العباقرة الأفذاذ.. أنجبتْ في نفس الوقت مجموعة من الغوغائيين ممّن جرّوا عليها الحروب والكوارث».

في عهد بسمارك تأسّست وترسّخت ما تُسمى بـ«القيم الألمانية»، والتي هي بحسب العِلم لا أساس عرقي لها.. بل هي رؤية وإدارة.. وقد نجح بسمارك في أن يجعل «الرايخ الثاني» عنوانًا للمعرفة والتقدم.. ففي «الرايخ الثاني».. فاز الألمان بجوائز نوبل أكثر من بريطانيا وفرنسا وروسيا وأمريكا.. مجتمعة!

***

مضَت ألمانيا في سنوات الانتصار والانكسار.. من «الرايخ الأول» إلى «الرايخ الثاني» إلى «الرايخ الثالث».. أنهى نابليون بونابرت «الرايخ الأول»..

www.ibtesamah.com/vb

ثم أنهت الحرب العالمية الأولى «الرايخ الثاني».. ثم أنهت الحرب العالمية الثانية «الرايخ الثالث».. ويتحدث باحثون عن تأسيس الرايخ الرابع بعد الوحدة الألمانية عام 1990م.. وصولًا إلى عصر الازدهار في عهد المستشارة أنجيلا ميركل.

عادتْ ألمانيا من جديد.. تحوّلت ألمانيا من دولة مهمة تدور في الفلك الأوروبي إلى دولة أهم تدور أوروبا في فلكها.. من «القوة الصلبة» في عهد بسمارك إلى «القوة الناعمة» في عهد ميركل.. وحسب تعبير وزير الخارجية الألماني الأسبق يوشكا فيشر.. فإن الانتقال قد حدث من حقبة «ألمانيا الأوروبية» إلى «أوروبا الألمانية». وهو ما دفع «بيير بيزباك» للتساؤل: هل تلعب «ألمانيا القرن الحادي والعشرين» دور «بروسيا القرن التاسع عشر»..؟

كان بسمارك شديد الثقة بالنفس وقد جعل من ذلك نمطًا سلوكيًا ألمانيًّا.. ويروي البعض.. أن بسمارك قد دُعِي ذات يوم إلى حفلٍ.. وأخطأَ المنظِّمون بوضعِه في أحد المقاعد.. ولمّا انتبه مسئول البروتوكول أسرع إليه معتذرًا: أنا آسف يا سيّد بسمارك.. لأنّه يجب أن تجلس في المكان الرئيسي.. قال له بسمارك: لا داعي للأسف.. حيث يجلس بسمارك.. يكون هذا هو المكان الرئيسي!

لقد نجح بسمارك في أن يجعل المقعد الذي تجلس فيه ألمانيا في أوروبا هو المكان الرئيسي.

* * *

إن «الهندسة السياسية» هي أساس الدولة الألمانية.. و«نظرية القوة» هي خريطة الطريق.

www.ibtesamah.com/vb

يقول هنري كيسنجر: «لم تكن سياسة بسمارك في جوهرها تعبيرًا عن الفيلسوف الفرنسي برينيه ديكارت: «أنا أفكر إذن أنا موجود».. ولكن بسمارك كان يتبع سياسة البيولوجي الإنجليزي تشارلز داروين: البقاء للأصلح».. وتقديري.. أن قول كيسنجر غير دقيق.. ذلك أن بسمارك كان يعتمد بالأساس نظرية ديكارت.. «أنا أفكر إذن أنا موجود».. إن الفكر الذي امتلكه بسمارك كان وراء عصرٍ كاملٍ من البناء والبقاء.. وبتعبير «شتاينبرج»: «.. لم يكن بسمارك سيّدًا على أوروبا لأنه كان الأقوى.. بل لأن خصومه كانوا الأقل براعة».

إن قوة بسمارك الحقيقية.. كانت «قوة العقل».. وامتلاكه رؤية كاملة في «الهندسة السياسية».. ولقد استطاع بفضل هذه الرؤية.. الانتقال من «بروسيا المرتبكة» إلى ألمانيا الموحّدة.. ومن (39) إمارة مستقلة يحكمها «توازن الضَّعف».. إلى شروقٍ تاريخي باهر.. لألمانيا العظمى.

www.ibtesamah.com/vb

الإمبراطور بطرس الأكبر..

نهاية العصور الوسطى الروسية

لولا بطرس الأكبر لما أصبحت روسيا دولة حديثة، ولما كانت قوة عظمى.. وكان يمكن أن تكون دولة آسيوية شأن دول أخرى.. لا تزيد.

* * *

إن موجز تاريخ الدولة الروسية ليس مرهِقًا.. في جملةٍ واحدة: إمارة كييف روس، ثم دوقية موسكو، ثم روسيا القيصرية، ثم الإمبراطورية الروسية، ثم الاتحاد السوفيتي، ثم روسيا الاتحادية.

أوّل التاريخ هو تأسيس «إمارة كييف روس» في القرن التاسع الميلادي.. والتي أصبحت دولةً مسيحيةً بعد اعتناق الأمير فلاديمير الأول المسيحية بتأثيرٍ من الإمبراطورية البيزنطية.. وأصبحت روسيا دولة أرثوذكسية.. يلقّب حاكمها بـ«الأمير الكبير».

وثاني مراحل التاريخ.. تأسيس «دوقيّة موسكو العظمى» في القرن الرابع عشر.. وكان لقب حاكمها «الدوق الأعظم لموسكو».

وثالث المراحل.. هي روسيا القيصرية.. التي تأسَّست في القرن السادس عشر في عهد إيفان الرابع.. والذي اتخذ لقب «القيصر».

www.ibtesamah.com/vb

هنا يأتي أقوى زعيم في تاريخ البلاد.. إنّه بطرس الأكبر.. آخر القياصرة وأول الأباطرة.. وقد أعلن الإمبراطورية في عام 1721م.. وهي الإمبراطورية الكبرى التي امتدّت من بولندا في أوروبا.. إلى آلاسكا في أمريكا الشمالية.. وتُعدّ ثالث أكبر إمبراطورية في التاريخ.

وفي عام 1917م.. قامت الثورة الشيوعية.. وتأسّس «الاتحاد السوفيتي».. الذي سقط في عام 1991م.. لتبدأ «روسيا الاتحادية».

* * *

كانت روسيا القيصرية إحدى دول العصور الوسطى البائسة.. ولم تكن تُقارن بالنماذج الحضارية البازغة في الغرب الأوروبي. ولقد كان القيصر بطرس الأكبر هو «المهندس السياسي الوحيد» للدولة الروسية.. فقد استطاع - منفردًا - أن يحوّل بلاده من دولة آسيوية عاديّة.. إلى قوة عظمى.. منذ ذلك الحين وإلى الآن.

ولِدَ القيصر في الكريملين عام 1672م.. شارك أخاه في السلطة عدة سنوات.. ثم أصبح قيصر روسيا في عام 1696م. كان بطرس الأكبر مبهورًا بالأقوى.. ولكنه ليس بذلك الشخص الذي يقف مشدوهًا أمام الأكثر تقدمًا.. ثم تحكمه مشاعر اليأس أو التبعية.. بل كان من ذلك النوع الذي يرى الأقوى ليكون أقوى منه.. ويزور الأوطان المتقدمة ليكون الأكثر تقدمًا.. وكان إذا فشل في شيء لا يلجأ إلى الشيء التالي.. بل يعيد المحاولة للنجاح في الشيء نفسه.

زارَ بطرس الأكبر أوروبا المتقدمة.. ورأى المسافة شاسعةً بين روسيا وبينها.. في الملبس والمأكل.. وفي الحرب والسلاح.. وفي مكانة المرأة وطرائق الحياة.

www.ibtesamah.com/vb

تعلم القيصر بنفسه عددًا من الحِرَف والصناعات، وأصبح خبيرًا في عددٍ من المجالات.. ولم يمنعه شغفه الشديد بالملاحة البحرية وبناء السفن من أن يلتفت إلى كافة المجالات التي يتطلّبها أيّ مشروع للنهضة.

يقول مؤرخون أنّه كان يجيد (14) حِرفَة.. وينقل مؤرخون نصًّا واضحًا في مديح القيصر.. من رسالة فريدريك الثاني ملك بروسيا (ألمانيا) إلى الفيلسوف فولتير: «لقد كان الملك الوحيد المتعلِّم حقًّا.. كان يفهم جميع العلوم البحرية.. كان خبيرًا حربيًّا واقتصاديًّا بارعًا.. كما كان معماريًّا وجراحًا.. ولو كان الأقل همجيّة لكان المثل الأعلى لكل الملوك».

***

انبهرَ القيصر بما رآه في هولندا وفرنسا.. وبما كانت عليه ألمانيا وبريطانيا.. وقرر أنْ يجعل من بلاده الشرقيّة دولةً غربيّةً.

كان هذا هو مشروع القيصر باختصار: كيف يمكن لدولة شرقيّة مثل روسيا أن تصبح دولة غربيّة مثل فرنسا وبريطانيا؟

أدرك بطرس الأكبر.. أن التعليم والجيش هما عمادُ القوة الغربية.. فلجأ إلى التسليح وإلى بناء الأساطيل.. وأرسل البعثات وأسَّس المدارس والجامعات وافتتح المصانع والشركات.. وأطلقَ عصر الحداثة الروسي.

في عهد القيصر تأسَّس أكثر من (200) مصنع كان بعضها يضمّ ألف عامل، وفي عهده أيضًا تأسست مدينة سان بطرسبورج التي أصبحت عاصمةً لروسيا.. كما صدرتْ أول صحيفة روسية «سانت بطرسبورغ فيدوموستي».. وإلى جوارها تأسَّست أكاديمية سان بطرسبورج ومطابع ودور نشر ودار محفوظات.. ومعاهد علمية كان تركيزها على العلوم والرياضيات.. مع

www.ibtesamah.com/vb

حركة ترجمة واسعة شملت ألف كتاب في العلوم والتكنولوجيا.. كما أسّس القيصر أول مسرح وأول متحف وأول مستشفى عسكريٍ وأول سلسلة من الصيدليات في كل مدن روسيا.

كان تأسيس سان بطرسبورج.. ليس فقط تأسيسًا للمبنى وإنّما أيضًا تأسيسًا للمعنى. فقد أراد لها أن تكون طريق العبور من الشرق إلى الغرب.. ومن العصور الوسطى إلى العصور الحديثة. يقول المؤرخون: إنه «أراد الهروب من جوّ موسكو الكنسي القاتِم، وروحها القومية الضيّقة.. وأراد أن يشعر النبلاء المحافظون برياح التقدم تهبَّ عليهم من الغرب».

أسّس القيصر سان بطرسبورج عام 1703م لتكون مدينة حضارية فحسب، ولكنَّه في عام 1712م أعلنها عاصمةً لروسيا. يقول المؤرخون.. إنّه حين قام القيصر بنقل العاصمة من موسكو إلى سان بطرسبرج حزن أهل موسكو وقالوا: إنَّ الله سيدمِّر هذه المدينة نصف الوثنيّة!

* * *

قام بطرس الأكبر بعملية تحديث اجتماعي وإصلاح ديني واسعة.. حدّد للكنيسة دورها الروحي والأخلاقي، وأمر الشعب بحلق اللحى وارتداء الزي الغربي.. وقرَّر أن تخرج المرأة إلى الحياة، وتشارك في كل شيء.. ويذكر باحثون.. أن عددًا كبيرًا من الطبقة الأرستقراطية وطبقة الفلاحين كانوا ضدّ عملية التحديث وتحييد الكنيسة.. وقد شاع بينهم أن «القيصر عدوّ المسيح».. كما أن بعض الروس رفضوا حلق اللحى ودفعوا الغرامات.. وأوصى بعضهم بوضع شعر اللحية في النعش مع أجسادهم.. خشيةَ ألّا يُسمح لهم بدخول الجنة بدونه!

* * *

www.ibtesamah.com/vb

كانت حركة التسليح والصناعات العسكرية تمضي بقوة.. نجحَ القيصر في تمديد مساحة دولته.. هزمَ السويد، واحتلَّ فنلندا، وأسَّس أول إطلالة لروسيا على البحر الأسود.. لتصبح الإمبراطورية الروسية - التي أعلنها بطرس الأكبر - هي أقوى دولة في الشرق.. وقوة عظمى دولية.

إن القيصر - الإمبراطور «بطرس الأكبر» هو أحد أقوى المهندسين السياسيين في التاريخ.. نجحَ في تغيير كل شيء.. وأعاد بناء بلاده من جديد.. واليوم فإنَّ روسيا الاتحادية وقبلها الإمبراطورية السوفيتية تدينان تمامًا للقيصر بالمكانة التي تحصّلان عليها.

لقد قام القيصر في سنوات حكمه.. بالهندسة الحضارية الكاملة لبلاده.. ونجح - رغم قوة أخطائه وكثرة معارضيه - في أن ينتقِل بروسيا.. من «الإقطاع» إلى «الحداثة».. ومن الانزواء إلى الصدارة.. ومن الدولة إلى الإمبراطورية.

* * *

www.ibtesamah.com/vb

خاتمة

أمَا وقد وصلتْ هذه السطور إلى نهايتها.. فإنّ إعادة التذكير بما جرى عبْر الفصول الثلاثة يبقى ضروريًا: لا شـيء يمكن أن يُترك لحركة القصور الذاتي أو تدافُع الطبيعة.. لا مشـروعًا للتقدم يمكن أن يُترك للخاملين في مقاعدهم، أو الغارقين في القشور والمنمنمات!

لن يتأتى المشروع الحضاري المصري من خِداع السياسة ولغو الخطاب.. كما أنه لن يتأتّى إذا سادتْ بلادنا نخبٌ تتصارعُ على السلطة.. وجماهير تُدارُ بالهتاف والتصفيق!

لـن يصلُـح للعصـر الحديـث خطوة واحـدة إلى الأمـام.. ولـن يصلُح له خطـوات عديـدة مبعثرة.. واحـدةٌ هنا وأخـرى هناك. لابد أن تكـون الخطوة ضمـن الغايـة.. والحركـة ضمـن الرؤيـة.. وإلاّ ضاعـت الجهـود.. وباتـت الخُطى.. معالمَ بلا طريق.

هنـا يتأتـى دور «الفكـر الهندسـي لبلادنـا».. ذلـك البصر الممتـدّ وتلك الرؤية الواسـعة.. ذلك الذي ارتآه الآخرون ونجحوا، ومضى عليهم التائهون وسبقوا.

لسـنا «مستجدّين» على الرؤى الكليّة والأطروحات الكبرى.. فلطالما كنّا في الصّدارة.. ولطالما كنّا هناك.. قبل أن يأتي الجميع!

www.ibtesamah.com/vb

لقـد تأخرّنـا بعض الوقت.. لكن بـاب الحضارة لم يُغلق بعـد.. لقد تأخّر قبلنـا كثيـرون.. ثم بدأوا ووصَلُوا.. فقط علينا أن نبـدأ.. وأن نأتي متأخرًا خيرٌ من ألاّ نأتي أبدًا.. مرةً أخرى.. لـم يسبق لليأس أن فاز بأيّة معركة!

* * *

FARES_MASRY
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر ديسمبر ٢٠١٨

www.ibtesamah.com/vb

المحتويات

www.ibtesamah.com/vb

الفصل الثاني: هندسة الحاضر

www.ibtesamah.com/vb

www.ibtesamah.com/vb

الفصل الثالث: قادة الهندسة السياسية

* * *

www.ibtesamah.com/vb

FARES_MASRY
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر ديسمبر ٢٠١٨

www.ibtesamah.com/vb



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر ديسمبر 2018 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

www.ibtesamah.com/vb



FARES_MASRY
www.ibtesamah.com/vb

"إنَّ نسبة نابليون إلى فرنسا كنسبة محمد علي إلى مصر، هذا من مواليد جزيرة لم تكن فرنسية، وذاك من مواليد مدينة لم تكن مصرية، وكلا الرجلين قاد وطنه الجديد إلى المجد...

إن أدولف هتلر مواطن نمساوي ولم يتحدث أحد عن نمساوية هتلر الذي لم يكن مواطنًا ألمانيًّا حتى عام 1932م...

إنَّ القيصرة «كاترين الكبرى» قيصرة روسيا كانت ألمانيّة.. كما أنَّ العائلة المالكة السويدية من أصول فرنسية.. ومع هذا فإن أحدًا لا يقول عن الملك كارل جوستاف وهو يمنح جوائز نوبل.. إنه ملك فرنسي!".

***

تمثِّل أطروحة "الهندسة السياسة" جديدًا في الفكر السياسي العربي.. وقد نجح الكاتب عبْر أسلوب شيق ومعلومات غزيرة.. وكذلك عبْر تحليلات هادئة ورصينة.. في أن يجعل من التاريخ والسياسة.. مجالاً ممتعًا للتفكير والتأمل ومنصّةً قويةً في صناعة الأمل.

إن كتاب "الهندسة السياسية".. ليس كتابًا في الهندسة الفكرية أو السياسة العملية وحدهما، ولكنه كتاب في المنطق والتاريخ والجغرافيا.. وكذلك الدين والثقافة.. والقوة الصلبة والقوة الناعمة. إنّه من ذلك النمط الموسوعي من الكتابة التي يندُر توافرها في المكتبة العربية.

أحمد المسلماني .. كاتب وإعلامي مصري ـ تخرج في قسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ـ جامعة القاهرة. صدر له العديد من الكتب والمقالات الصحفية.. وقد عمل مستشارًا للدكتور أحمد زويل، ثم مستشارًا لرئيس الجمهورية .

FARES_MASRY
www.ibtesamah.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
حصريات شهر ديسمبر ٢٠١٨

9 789777 950091

الدار المصرية اللبنانية

www.ibtesamah.com/vb



www.ibtesamah.com/vb